تذكرتين سفر

"رحلات ابن حمودة السرية إلى جورجيا وروسيا الاتحادية"

محمد حمودة



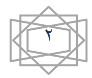




الكتـــــاب	تذكرتين سفر
النـــوعيـــة	أدب رحلات
اسـم المؤلـف	محمد حمودة
تصميم الغلاف	محمد مجدي
تنسيق داخلي	هبـــة خليـــل
مراجعة لغوية	نورهان سعيد
	شريف محمد حسين
الطبـــعـــــة	الأولى (نوفمبر ٢٠١٧)
رقــم الإيـداع	2017/19917
الترقيم الدولي	978-977-6534-35-3
إشراف عام	رباب الشهاوي
لطلب الكتاب	01022897649 – 01126652278

ويمكن طلبه عن طريق موقع جوميا من Elfoad Publishing Marketplace

Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing






تذكرتين سفر
محمد حمودة





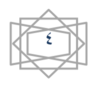
صديقي القارىء، حيث أن نفسك قد سولت لك بالفعل إخراج حافظة نقودك وشراء هذا الكتاب، إذًا ربما نصبح أصدقاء، بالتأكيد ليس لأنك "نفعتّني" واشتريت الكتاب، فهذا أمر يعود ربحه لجهات كثيرة والعبد لله آخرها، ولكن لأنك ستعرف عني الكثير مما يعرفه أصدقائي المقربون. وحيث أنك خلال الصفحات القادمة ستمضي الكثير من الوقت معي فلك أن تعرفني بشكل أكبر:

كما علمت من غلاف الكتاب اسمي محمد حمودة، ولأن حمودة الوالد سماني "وليس سممني" تيمنا باسم الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وحيث أن مجتمعنا يحمل ملايين ال "محمد"، لذلك تقريبا اصبح اسمي هو " حمودة". مواليد محافظة السويس ١٩٨٧ لكن فى ديسمبر، وبالتالي إذا ما استخدمت آلة حاسبة لمعرفة عمري فضلا احسبه كما المحظوظين من مواليد يناير ١٩٨٨، حيث لم أشهد في ٨٧ هذه سوى أيام. خريج كلية الألسن جامعة عين شمس قسم اللغة الألمانية، أعمل أخصائي موارد بشرية بإحدى الشركات، أعشق السفر والترحال وسافرت لعدة دول. صدر لي كتاب أدب رحلات بعنوان سفرنامة "رحلة ابن حموده إلى بلاد جنوب شرق آسيا – رحلة إلى ماليزيا وسنغافورة". و أهوى القراءة والسينما.

وفي انتظار أن تعرفني بنفسك في أقرب فرصة، وإليك رابط حسابي الشخصي عبر الفيسبوك

https://www.facebook.com/mohamed.hamoda.7359

وفي انتظار أن تعرفني بنفسك في أقرب فرصة





الإهـــــــداء

إلى المعذبين من أهل "سوريا"، ضحايا الحرب البشعة التي تجري على أرضها؛ طِبتم وطابت جراحكم.

إلى كل ضحايا الحروب والقمع والقهر؛ كان العالم ليصبح أفضل لولا تلك الأشياء.

إلى من أسرَاني بالفضل الدائم والحب غير المشروط "أبي وأمي"؛ أحبكما حتى وإن قصّرت في التعبير والإعلان.

إلى: ونس الحياة، شقيقتي "إيناس" ورفيقة رحلتي الأولى والتي بسببها أدمنت السفر، في انتظار أن تجمعنا رحلات أخرى عن قريب بإذن الله وبصحبتنا وجه الحياة الصبوح البشوش شقيقـتنا "نادين" ذات الاسم الذى اكتشفت أنه روسي الأصل.

إلى روح الرجل الفريد "عمو فؤاد جبر"، كم كنت أتمنى أن تشهد معي تحقق الحلم لأصبح كما وصفتني "ماجلان".

إلى العزيز "أحمد الشربيني" الذي علمني درسًا في الإنسانية لن أنساه ما حييت.

إلى رفقاء السفر الأخوين فوزي (أحمد ومحمود)، كالعادة دمتم إخوتي، دُمنا مسافرين بإذن الله؛ ومن المعروف ما يأسر.



وإلى بعض الأشياء إن جاز الإهداء:

إلى: نعمتي الله العظيمتين "الصحة والسّتر".

إلى: العشرينات من العمر "تمحيكًا فيها"، ربما لم أحياكِ كما رغبت.

إلى: صوت عجل حقيبة السفر على أرض المطار.

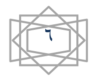
إلى: صوت وصورة ختم المغادرة على جواز السفر.

إلى: علامة الـ**Flight mode** في الهاتف أثناء الطيران.

إلى: مشهد السحاب الساحر والبديع من فوق.

إلى: السعادة التي يصنعها السفر.

إلى: التجربة والمُجربين في كل مكان.





قبل البداية:

تذكرتين سفر

تتذكر بالتأكيد ذلك "الإفيه" في المسرحية الرائعة "العيال كبرت" لـ "سُلطان" _سعيد صالح_ وهو يحاول قراءة وهجاء كلمة تذكرتين:

"لقد حجزت لك ذكركتن، كذ كرتن، كرذتاتنتن، ذكرتطنطنطين، هما اتنين، اتنين بلا قلبة دماغ، الجمع المؤنث السالم بتاع ذنكرة " وبعدما ساعده "كمال" _أحمد ذكي_ في قراءتها وأدرك أنها "تذكرتين" عاد لـيقول لقد "زجحت لك تذكرتين".

وأنا مثله الآن:قد زجحت، أقصد حجزتُ لك تذكرتين، الأولى لـ "روسيا"، والثانية لـ "جورجيا"، أو اقتسمتُ معك التذاكر، فـتذكرتي كانت بالكتابة، وتذكرتك ستكون بالقراءة.

على أمل أن تعجبك الرحلة التي لا حاجة فيها إلى ربط الأحزمة أو حزم الحقائب.

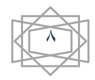
فـهَيّا بنا.





فهرس الموضوعات

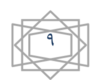
الجزء الأول: رحلة ابن حمودة السرية إلى "روسيا الاتحادية"





فهرس الموضوعات

الجزء الثاني: رحلة ابن حمودة السرية إلى "جورجيا الندية"





مقدمـــــــة

بالرغم من أن هذه ليست تجربتي الأولى في التدوين والكتابة عن الرحلات، فإنها تجربة مميزة وفريدة وصعبة في آن واحد؛ لأن الرحلة نفسها كانت فريدة ويجوز اعتبارها دُرّة تاج الرحلات التي قمت بها حتى الآن، فهذه الرحلة حققت لي معنى السفر والترحال، من رؤية أناس جُدد وثقافة جديدة ومجتمع كامل جديد كان يبدو بالنسبة لي غامضًا قبل هذه السفرة، بل أستطيع أن أقول أننا كنا مُضلَلين عن المجتمع الذي ذهبنا إليه في عُقر داره وشاهدناه عن قرب.

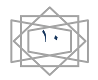
صحيح أن الفترة التي مكثناها هناك ليست بالطويلة، ولكنها كافية لتمنحنا رؤية عامة وانطباع عام لنعرف أنه "كان مضحوك علينا".

كما كانت هذه الرحلة معنى لاختبار الأصدقاء، فالعرب يقولون: "سُميَ السفر سفرًا لأنه يُسفر عن معادن الرفقاء في الطريق والرحلة"؛ وأسفرت هذه الرحلة عن المعدن الأَصيل لشريكّي فيها، وهما شركاء الرحلات السابقة، وسبق أن عرّفتكم بهما – في كتابي السابق سفرنامة - وهما الأخوين فوزي التوأم (أحمد ومحمود)، لكن عند الكتابة كانت الصعوبة، كيف سأكتب عن "روسيا" ولنا موقف ضد ما تفعله مع أشقائنا السوريين في محنتهم الآن، كيف سأستطيع أن أصف لك بلدًا وأشجعك على زيارته وهو يستخدم السلاح مع أهلٍ لنا ورَحم، وحسمت الأمر لـنفسي بـالآتي:

أولًا: تلك الكلمات التي غنّاها – منير القديم - للشاعر "عبد الرحيم منصور" في أغنيته (حدوتة مصرية): "لا يهمني اسمك، لا يهمني عنوانك، لا يهمني لونك ولا ميلادك مكانك.. يهمني الإنسان ولو مالوش عنوان".

ثانيًا: أن الأصل في الأمر أن الأرض كلها أرض الله، وأن مسألة الحدود والفواصل والجنسيات ربما ليست هي المقصد.

ثالثًا: أحيانًا كثيرة ما تكون الشعوب لا تنتمي إلى حكامها والعكس، ولنا في بلدان الوطن العربي خير دليل.





رابعًا: من المؤسف أن تجد أن أبناء بلد واحد يمارسون القهر والقتل بين بعضهم البعض، فكيف سنلقي باللوم على الغريب؟

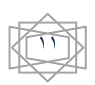
خامسًا: لنتعامل مع الأمر بالمنظور الإنساني، فمتى غلبت الإنسانية صار العالم أفضل بكثير.

لذا، بعيدًا عن أمور السياسة التي هي دومًا قذرة، في الصفحات القادمة سأطير بكم ومعكم إلى "روسيا الاتحادية" بعاصمتها (موسكو) ومدينتها الجميلة (سانت بطرسبرج)، وأتمنى لكم قضاء رحلة ممتعة.

وكما غنّى "عبد الحليم حافظ" كلمات الشاعر "صلاح أبو سالم" في أغنيته "على حسب وداد قلبي" وكلما استمعت إلى الأغنية و"حليم" يغني "الكوبليه" الذي يقول فيه "وتكون لي معاه تاني يا ابوي أيام حلوة وحكايات.. حكايات.. حكايات.. حكايات.. على حسب وداد قلبي يا ابوي" أبتسم وأقول: "يومًا ما سأروي الحكايات".

وها أنا ذا على حسب وداد قلبي، أروي لكم قبسًا من الحكايات والأيام الحلوة، أو حكايات الأيام الحلوة.

محمد حمودة





التذكرة الأولى

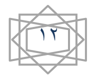
"روسيــا"

رحلة ابن حمودة السرية إلى روسيا الاتحادية

خلال هذه الرحلة أدركت معنى القول القرآني الكريم "سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ".

إلى الأخوين فوزي:

ببساطة شكرًا لكما، ودمتما سندًا لبعضكما البعض، ولي أيضًا.





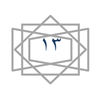
١- عواصف ما قبل السفر

جرت العادة معي أنه كلما نويت السفر للخارج تحدث بعض الأمور التي من الممكن أن أصنفها عوائق أو مشكلات صغيرة تؤرقني قبل السفر، وجرت العادة أيضًا أن تكون هذه العوائق صحيّة، وبفضل الله يتم تجاوزها، إلا أن ما حدث معي قبل السفر إلى "روسيا" كان يستحق لفظ (عاصفة)، عاصفة هددت بإلغاء الرحلة بأكملها، بل وخسارة كافة التكاليف التي تكبدتُ عناءها في سبيل إتمام هذه الرحلة؛ وإليكم التفاصيل:

كنا قد اخترنا (الأخوان فوزي وأنا) موعد الرحلة برغبة من ثلاثتنا أن نصنع شيئًا مختلفًا في الذاكرة، وهو أن نقضي عيد الأضحى للعام الميلادي ٢٠١٥ خارج مصر، وقد وقع الاختيار على "روسيا" وتحديدًا على مدينتين بها، العاصمتين الحالية (موسكو) والسابقة والتي ربما لا يسمع عنها الكثيرون ولكننا وجدنا أنها سياحية من الطراز الأول، وهي (سانت بطرسبرج)، وكنا ندرك أنه إن تحققت رغبتنا هذه فستصبح ذكرى غالية، كلما مر علينا عيد الأضحى في سنواته القادمة ونحن من أهل الأرض سنتذكر رحلتنا تلك؛ ولا أخفيكم قولًا أن الخيار وقع على "روسيا" لا لشيء إلا لأن تأشيرتها لم تكن معقدة كباقي تأشيرات بلدان أوروبا، وخصوصًا تلك التي تعمل بنظام الشنجن[١]، حيث فقط يتم التقديم للحصول على التأشيرة بجواز السفر وصورة شخصية مع دعوة من شركة أو جهة روسية[٢]، وهو ما تتكفل به شركة السياحة التي نتعامل معها دونما أيّة أوراق أخرى ككشف الحساب البنكي

[١] نظام الشنجن: هو نظام المنطقة التي تضم ٢٦ دولة أوروبية، والتي ألغت جواز السفر وضوابط الهجرة على الحدود المشتركة الداخلية بينهما. وهي بمثابة دولة واحدة لأغراض السفر الدولي، مع وجود سياسة تأشيرات مشتركة. والدول هي: ألمانيا، النمسا، بلجيكا، قبرص، الدنمارك، أسبانيا، استونيا، فنلندا، فرنسا، اليونان، هنغاريا، أيرلندا، إيطاليا، لاتفيا، ليتوانيا، لوكسمبورغ، مالطا ، هولندا ، بولندا ، البرتغال، الجمهورية التشيكية، سلوفاكيا، السويد، أيسلندا، ليختنشتاين، النرويج.

[٢] تغيرت شروط الحصول على تأشيرة روسيا حاليًا وأصبحت أكثر تعقيدًا وتقتضي عمل مقابلة شخصية.





(تلك الورقة اللعينة التي تخبرهم دومًا أنني شحات ومش معايا فلوس وبالتالي لا أستحق شرف زيارة بلدهم سائحًا)، ولا جواب من الشركة يسرد فيه كافة بياناتي ويجعل القاصي والداني من قسم الموارد البشرية يعلم أنني أخطط للسفر للخارج.

وقع الاختيار أيضًا على أن يكون تاريخ السفر هو السبت الموافق ١٩ سبتمبر ٢٠١٥ على أن تكون العودة بعد ثمانية أيام تمامًا؛ أي السبت ٢٦ من نفس الشهر، وكان هذا الخيار لصعوبة إيجاد طيران بسعر جيد إلا على خطوط مصر للطيران التي تجري رحلات منتظمة إلى "موسكو" أيام السبت والثلاثاء، وكانت رغبتنا - كما أسلفت - قضاء بعض الأيام بـ"موسكو" والأخرى بسانت بيتر، ولأسباب متعلقة بالنقود والتوفير أصبح ترتيب الرحلة كالتالي:

السفر من القاهرة إلى موسكو يوم ١٩ /٩ والبقاء هناك حتى ٩/٢١، ثم استقلال طائرة داخلية من موسكو إلى سانت بيتر والمكوث هناك حتى ٩/٢٥، ثم العودة بالطائرة مرة أخرى إلى موسكو والبقاء ليلة واحدة ثم المغادرة إلى القاهرة من جديد يوم ٩/٢٦.

وإذا كان السؤال الذى يطرح نفسه "ليه اللفة دي كلها" فالإجابة أننا لم نجد طيرانًا مباشرا من سانت بيتر إلى القاهرة خلال تلك الفترة، فأتممنا الحجوزات بناء على هذه الخطة.

أصبحنا نعد الأيام حتى موعد الرحلة وانطلاق إشارة البدء، وقبل موعد الرحلة كنت أقوم بمهمة عمل تتبع شركتي ولكن بمحافظة أخرى وهي محافظة بورسعيد، بقيت هناك عشرة أيام تقريبا، بل وسافرت من بورسعيد إلى الشرقية لحضور حفل زفاف أحد أصدقائي المقربين، وأمضيت ليلة هناك مع "شلة الجامعة"، ثم عدت مرة أخرى إلى بورسعيد وأتممت المهمة وسافرت عائدًا إلى محافظتي السويس.

وصلت إلى المنزل بحمد الله سالمًا، جلست مع أسرتي لوقت قليل، وتناولت الغداء على عجل، وقررت الخروج لإتمام بعض الأمور التي أحتاجها قبل السفر الذي كان قد بقي عليه أيام قلائل، حيث أننا نتحدث عن يوم الأحد الموافق ٩/١٣ والسفر - كما أسلفت - يوم ١٩، وبالفعل غادرت المنزل





وأنجزت الأمور التي رغبت في إنجازها، بل وقابلت أحد الأصدقاء الأعزاء الذي لم أرَه منذ مدة بسبب مكوثي في بورسعيد، ولكونه مجندًا يقضي فترة تجنيده الإلزامي بالجيش وكانت إجازته وقتها، ففضلت لقائه خاصة وأنني لا أعلم هل سيتاح لي لقاءه قبل سفري أو قبل انقضاء إجازته أم لا؟

وأثناء سيرنا سويًا وعبورنا الطريق، إذ بسيارة ميكروباص مسرعة وغير متوقعة – حيث أن الطريق كان قد أصبح مزدوجًا - رايح جاي يعني - أثناء فترة إقامتي ببورسعيد ولم أكن أعلم – لذا عندما كنت أعبر الطريق كنت أنظر في اتجاه السيارات الذى أعلمه " ومش مدي خوانة " إذ بهذه السيارة تصدمني لأطير في الهواء وأنزل مصطدمًا بالأرض.

إن صدمة السيارة المُسرعة وغير المتوقعة لها ما يُعرف بالعامية المصرية " خضَّة "، تلك الخضَّة هي التي تدفع الأدرينالين في جسدك إلى ذروته.

انتبهت للناس يجلسونني على الرصيف ويلتفون حولي، وصديقي "عبد الله" مصدوم مما حدث، وسيدة خمسينية تبكي وهي تنظر لي مما زاد من رعبي وخوفي، وظننت أنني تعرضت لتشوه ما، وناديت على "عبد الله" وأنا في حالة من الذهول التي لا أستطيع وصفها قائلًا له: "هو أنا وشي اتشوِّه يا عبد الله" آخذًا في مسح وجهي بيدي وتأملها لأرى هل من آثار دماء على وجهي، وهو ما لم يكن موجودًا الحمد لله.

طبعًا أثناء كل هذا لم ينتبه أحد إلى أن الميكروباص الذي توقف بعدما صدمني نزل منه الركاب، وبمجرد حدوث هذا غادر السائق فارًا من المسئولية غير عابئ بذلك الكائن البشري الذي صدمه ولا يعلم ماذا ستسفر عنه تلك الصدمة؛ حدث كل هذا وأنا على بُعد أمتار قليلة من مستشفى خاص تتعاقد معه شركتي سنويًا لعلاج موظفيها.

تطوع أحد الشباب بالبقاء معي أنا وعبد الله، وتحاملت عليهما وصعدت إلى حيث هذا المشفى، طلبنا طبيب طوارئ وأخبرناهم أن الأمر حادث سيارة – وفى هذه الأثناء لم أكن قادرًا على السير الطبيعي خاصة قدمي اليمنى التي أدركت أن بها خطب ما ورجوت الله أن يكون الأمر بسيطًا – أخبرنا موظف الاستقبال أن المشفى لا يوجد به طبيب طوارئ وأنه بإمكاننا الانتظار حتى وصول طبيب عظام سيأتي في التاسعة والنصف مساء، وكان هذا يعنى انتظارًا تتجاوز مدته الساعة



ونصف، ماذا إذا كان نتج عن الحادث نزيف داخلي أو كسر بأحد الأضلاع؟ كيف لي أن أنتظر متألمًا هكذا؟ فطلبت من صديقي إخراجي من هذا المستنقع الذى يتعامل وكأنه مشفى وأنا أشتمهم وألعن ذلك الوضع البائس والشاذ في منظومة الرعاية الصحية التي تجعل مشفى خاص لا يوجد به طبيب طوارئ.

نزلنا إلى الشارع وشكرت الشاب الشهم الذى تعطل معي كل هذا الوقت، وأخبرته أنى سأذهب إلى مشفى آخر متعاقد أيضًا مع الشركة التي أعمل بها، وأنني سأوقف تاكسي للذهاب إلى هناك، وهو بالفعل ما حدث.

في هذه الأثناء كنت أصبحت على يقين أن قدمي اليمنى بها خطب جلل لأنني عندما حاولت السير عليها آلمتني ألمًا عنيفًا، وفي هذه الأثناء أيضًا كنت قد نسيت أمر الرحلة وترتيباتها، بل لم تطرأ على بالي وقتها ولم يكن يشغلني سوى الاطمئنان على نفسي.

ذهبنا إلى المستشفى الآخر، ووجدنا لديهم طبيب طوارئ وغرفة لنفس الغرض، ذهبت للانتظار بها وتجاوز الانتظار العشرون دقيقة، أصبت بالضجر والغضب أيضًا وكذلك "عبد الله" الذى خرج مهللًا صائحًا ليسأل لماذا لم يباشر الحالة أحدٌ حتى الآن بالرغم من أنه أملى مكتب الاستقبال أن الحالة قادمة جراء حادث اصطدام بسيارة، ومن الطبيعي أن تسترعي حالة كتلك بعض الانتباه، طبعًا لا داعِ لـذكر السيناريوهات السوداء مثل ما إذا كان بالمريض نزيف بالمخ كان سَيسهُل علَى الطبيب المُبتدئ اكتشافه وعلاجه هذا إن كشف على المريض بالوقت المناسب!

المهم، أتت طبيبة شابة بعد إلحاح صديقي، وسألتني بماذا أشعر وأخبرتها أن شكوتي الأساسية هي قدمي اليمنى وكذلك اليسرى ولكنني لا أستطيع استخدام اليمنى إطلاقًا. سألتني بعض الأسئلة لتتأكد من سلامة وعيي وإدراكي، ثم طلبت أن أقوم بإجراء بعض الأشعة على القدمين بمركز أشعة قريب من المستشفى ثم عرض الأشعة عليها، في هذه الأثناء كان "عبد الله" قد اتصل بشقيقه "محمد" الذي هو صديقي أيضًا، كما أنه حينها كان طالبًا بالفرقة النهائية بكلية الطب. أتى الشاب مسرعًا بسيارته، واصطحبني إلى مركز الأشعة في الوقت الذي ذهب أخيه للشركة لإنهاء بعض المعاملات الورقية لتجنب دفع نقود لم تكن معنا حينها.



في تلك الأثناء كانت أمي تتصل بي طالبة مني العودة إلى البيت، مراعاة لأنني بالتأكيد مرهق من أثر السفر من بورسعيد، بالطبع لم أخبرها بأي شيء مما حدث، وأخبرتها أنني مع بعض الأصدقاء وسأعود بعد قليل.

أتممت إجراء الأشعة العادية وأخذتها وعدنا للطبيبة مرة أخرى، رأت الأشعة وقالت أنها قلقة من وجود كسر ما، ولم تُفصح أكثر من هذا، وأنه يجب أن يرى هذه الأشعة طبيب عظام، ولم يكن بالمستشفى طبيب عظام ولكنهم حجزوا كشفًا لي عند طبيب يبعد مسافة شارعين من المستشفى.

ومن سريالية الأمر وعبثيته، كان عليّ - أنا المصاب غير القادر على السير - أن أذهب للطبيب في عيادته، حيث رفض الطبيب أن يترك العيادة لدقائق ويأتي للمستشفى لمباشرة الحالة والتي قطعًا سترسل فاتورة بحسابه إلى شركتي، وسلم لي" على قَسَم أبقراط[٣].

تحاملت على "محمد" الذي أخذني بسيارته مسافة الشارعين وأنزلني ثم صعدنا إلى حيث العيادة، ووجدناها فارغة تمامًا تخلو من أي مريض، ولم يكن بها سوى الطبيب والمُمَرِض، ومع هذا رفض إغلاقها لدقائق أو حتى مغادرتها دون إغلاقها - حيث أن الممرض موجود بها- والقدوم إلى المستشفى!

المهم، دخلت للطبيب وشرحت له ما حدث، أخذ الأشعة وتفحّصها وقال أن الأمر عبارة عن شرخ بمفصل الركبة. أصابتني صدمة بالطبع من الوصف، فالركبة

---

[٣] [٣] قَسَم أبقراط: هو نص قديم عادة ما يقسمه الأطباء قبل مزاولتهم لمهنة الطب، و يعتبر أبقراط الملقب بـ "أبو الطب وأعظم أطباء عصره" صاحب فكرة هذا القسم الشهير؛ تجدر الإشارة أنه توجد على غرار هذا القسم نصوص أخرى تختلف حسب البلدان والمُعتقد الديني، وهذا هو نص القَسَم الطبي للمؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي: بسم الله الرحمن الرحيم؛ أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي، وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها، في كل الظروف والأحوال، باذلًا وسعي في استنقاذها من **الموت والمرض والألم والقلق**، وأن أحفظ للناس كرامتهم، وأستر عوراتهم، وأكتم سرّهم، وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله، باذلًا رعايتي الطبية للقريب والبعيد، الصالح والطالح، والصديق والعدو، وأن أثابر على طلب العلم، أسخِّره لنفع الإنسان لا لأذاه، وأن أوقر مَن علمني، وأعلّم من يصغرني، وأكون أخًا لكل زميل في المهنة الطبية في نطاق البر والتقوى، وأن تكون حياتي مصداق إيماني في سري وعلانيتي، نقيًا مما يشينني أمام الله ورسوله والمؤمنين، والله على ما أقول شهيد.





مفصل هام بالقطع، وشرخ به يعني أن الإصابة ليست سهلة، بالطبع حمدت الله أنه قال فقط شرخ ولم يقل كسر، وسألته عن خطة العلاج ومدته، فأخبرني أنه قد يصل إلى ستة أسابيع. هنا تذكرت أمر الرحلة التي كانت على وشك البداية بعد أيام، وأصابني حزن حقيقي، فالرحلة الآن باتت في حكم المُلغاة، صحيح أن هذا التهديد ليس نهائي، حيث أنني قررت حينها أن أعرض نفسي على طبيب آخر لأتأكد من دقة التشخيص، إلا أنه يبقى تهديدًا، حيث نعاني في الأقاليم من حالات الأخطاء الطبية.

غادرت العيادة واصطحبني صديقي ليوصلني إلى منزلي، وفي السيارة أخبرته بأمر الرحلة، وكان هذا هو أول وآخر صديق أخبره بأمر الرحلة، حيث اقتضت الأمور بعد ذلك السرية لأسباب سأوضحها لاحقًا. عندما علم صديقي بالأمر لم يدر بماذا يجيب، هل فعلًا سأتمكن من السفر أم لا؟ ولكنه طمأنني بعض الشيء، ولم أكن أعلم ما إن كان يطمئنني بصدق أم فقط بدافع إنساني؟

وصلنا إلى منزلي وعرفت أسرتي بالأمر، وبالطبع حزن الجميع، هدأت من روعهم وطمأنتهم أنني أمامهم بخير وواعٍ، وأن الأمر يتوجب فيه القول " قدّر ولطف".

أخبرني صديقي أنه إذا ما حدث قيء أكثر من مرة أو عدم إدراك فيتوجب عليّ الذهاب للمستشفى فورًا، وإن كان هو يستبعد حدوث هذه الأشياء، حيث أنه قد مرّت عدة ساعات على الحادث ولم يحدث أن تقيأت سوى مرة واحدة؛ كانت ليلة ليلاء واختتمت بالحذر من أن يحدث شيئًا من هذا القبيل.

مر يوم الأحد بخيره وشره، ويجوز القول أنه مرّ بسلام، أتى يوم الاثنين وقررت أنا ووالدي الذهاب إلى أحد أطباء العظام للتأكد أولًا من التشخيص ولإخباره بأمر الرحلة وسؤاله هل سأتمكن من السفر باستخدام عصا "عكاز" وبالقطع الركبة المفصلية أم لا؟

حينها كنت قد أخبرت أحمد - أحد الأخوين فوزي - بما حدث معي الليلة الماضية فأسرع بالحجز لي عند الطبيب لقربه من منزله، وكان في انتظاري أمام العيادة حيث اصطحبني أبي وأنزلني أمام العيادة متكئًا على عصا وذهب للبحث عن مكان لصف السيارة، صعدنا للعيادة ودخلنا للطبيب أحمد وأنا، وأخبرته ما حدث وعرضت الأشعة عليه، شاهدها وطلب توقيع الكشف عليّ



وبنهاية كشفه قال إنه لا يوجد شرخ وأنه يختلف مع تشخيص الطبيب الأول، وأن الأمر لا يعدو كونه كدمة ثقيلة خاصة وأنها أصابت المفصل.

سعدنا بهذا التشخيص جدًا وأخبرناه بأمر السفر والرحلة والموعد، فقال إنه بإمكاني السفر بالفعل، ونصحني بأن أحرص على عدم إجهاد قدمي وتدفئتها قدر جهدي مع استخدام بعض الأدوية من المراهم والمضادات الحيوية وبعض إبر الحقن التي وصفها لي لاستخدمها كل يوم حتى موعد السفر، كان والدي قد أتى في هذه الأثناء إلى العيادة واستمع إلى التشخيص مرة أخرى واطمئن لنصيحة الطبيب، إلى هنا والأمور جميعها عال العال.

تأتي الدراما في الحدث عندما أخبرت الطبيب أنني بالفعل كنت قد أجريت أشعة رنين مغناطيسي للمزيد من الاطمئنان، وأنني منتظر لنتيجتها، فطلب مني عرضها عليه عند استلامها للتأكد أن كل شيء بخير.

بدأت الأمور بـالهدوء النسبي، من حيث قوة ودرجة الألم من ناحية وفيما يخص أمر الرحلة والسفر من ناحية أخرى، كنت حزينًا بالقطع لأنني لن أكون " في الفورمة " أي في كامل لياقتي البدنية كما كل الرحلات السابقة، ولكن كنت سعيدًا لأنني بخير أولًا وأن ما حدث ليس بالأمر الجلل والحمد لله، وثانيا لأنني سأسافر.

مضى يوم الاثنين أيضًا بخيرٍ عن سابقه، وأتى الثلاثاء ولا جديد سوى أنني ما زلت لا أستطيع المشي مستخدمًا قدمي اليمنى، كما أن قدمي اليسرى كانت حقًا تؤلمني بسبب بعض التجمعات الدموية نتيجة الاحتكاك بالأسفلت أثناء الاصطدام، ثم أتى يوم الأربعاء وكان موعد استلام نتيجة الرنين المغناطيسي ولكن مركز الأشعة أخلف الموعد واعتذر عن تسليمها إلى اليوم التالي، وقتها أصبح ألم ساقي اليسرى قويًا، وأصبح يقلقني أكثر من أمر قدمي اليمنى.

وكان يوم الخميس الذى سأستلم فيه الأشعة كما أنني ارتبطت بموعد زيارة لي في منزلي من بعض زملاء وأصدقاء العمل الأفاضل، فـفضلت المكوث في المنزل واستقبال الزائرين على أن يذهب أبي لاستلام الأشعة وعرضها على الطبيب بعد ذلك، وهو بالفعل ما حدث.



وأثناء تواجد أصدقائي بالمنزل وصل أبي "مكفهراً" - إن جاز الوصف- شاحباً ويبدو عليه أثر الضيق، سألناه جميعًا عما حدث فأخبرنا أنه استلم التقرير والأشعة، وبعرضهما على الطبيب كان تشخيصه أنه يوجد كسر بمفصل الركبة ولم يكن ظاهراً في الأشعة العادية، وأنه يتعيّن عليّ الذهاب فوراً للمستشفى لعمل جبيرة جبس من أعلى الفخذ حتى القدم على أن تستمر لمدة ستة أسابيع تقريباً!

"وشِّي اصفَرّ" أو كما يقولون (جاب ألوان)، ما هذا التحول العجيب في الحالة، أصيب الضيوف بالإحباط، وأدلى كل منهم بدلوه في علاقتهم بالأطباء والتشخيصات الخاطئة، وهو الأمر المتعارف عليه في الأقاليم كما أسلفت، لذلك دائمًا ما تجد المستشفيات والعيادات الخارجية لها بالقاهرة ممتلئة يومياً بمرضى من محافظات وبقاع شتى، حيث أن الطب في القاهرة يمكن وصفه بأنه "أحسن الوحِش"[٤].

وبإعمال منطق من الدفاع النفسي بسبب ضجري من المعلومات التي تم إخباري بها توًا، قلت لنفسي أنني لم أكن واثقًا من صحة التشخيص مائة بالمائة، والشك عادة يمنحنا بعض الأمل، كما أن هذا الشك كان سببه المعلومات أو الموروثات الشعبية من ارتباط كلمة كسر بضرورة وجود ألم وأحيانًا بعض التورم، وحيث أن الطبيب يتحدث عن كسر وأن هذه الأعراض ليست موجودة فـالألم لا يُقارن باليوم الأول للحادث ولا أشعر به إلا إذا ما جربت استخدام قدمي، إذًا يبدو أن الطبيب هذا مخطئ!

بالطبع رفضت الذهاب للمستشفى وإجراء التجبيس وفضلت الانتظار، وهذه كانت نصيحة كل الضيوف الذين رشحوا ذلك مع العرض على طبيب عظام بارع بالقاهرة تعاملوا معه جميعًا قبل ذلك، كما أنه متعاقد مع شركتنا، طبعًا كل هذا جميل لكن ماذا عن عنصر الوقت؟

هنا بدأ يلوح في الأفق من جديد شبح عدم السفر والإلغاء، ولكنني فضَّلت ألا أستبق الأحداث، وأن أدع الأمور كما مقدر لها أن تسير.

---

[٤] لا يُقصد من هذا إهانة الأطباء أو الجور عليهم لكن الشأن الصحي في مصر بحاجة إلى الكثير والكثير حتى يتم إصلاحه.



أدرينالين السفر، أو هكذا أحب أن أصفه، وهو ذلك الشغف الذى يُحرِّك كل خلايا جسدك لتعمل في "Harmony" وتمكنك من السفر والاستمتاع أيضًا، أعتقد أن هذا النوع من الأدرينالين - وهو أمر غير طبي وإنما نفسي - جعلني في حالة إنكار Denial وهي حالة نفسية أيضًا ننكر فيها حقائق نعلم أن التسليم بها لن يكون على هوانا أو وفقًا لرغبتنا، وحالة الإنكار هذه جعلتني أعتقد اعتقادًا أشبه بالجزم "كده مني لنفسي" أنه لا يوجد كسر وأن التشخيص ليس سليمًا، وربما أن الأشعة قد تم تبديلها وأنها تخص شخصًا آخر غيري.

وأتى يوم الجمعة ولم يبق على موعد الطائرة سوى أربع وعشرون ساعة فقط والأمور ليست محسومة بعد على كل الأصعدة!

أولًا: ماذا سأفعل في أمر قدمي وهو الأمر الأهم بالطبع؟ وكيف سيكون العلاج؟ وهل تشخيص ذلك الطبيب سليم أم خاطئ؟

وثانيًا: هل عليّ أن أستسلم معتقدًا أن هذا هو القدر، وأن هذه الرحلة "مش مكتوبة لي" وبالتالي عليّ إلغاء كل شيء والمكوث في مصر ومتابعة علاجي.

وإمساكًا للعصا من المنتصف، قررت أن أسير في خطة السفر كما هو مقرر، وأن أعرض نفسي على طبيب ثالث اليوم، وإن قال بالفعل هناك كسر وأنه لا يتوجب عليّ السفر فلن أسافر.

فيما يخص الجزء الأول فقد تم بسهولة حيث عاونني إخوتي في تحضير حقيبتي بالرغم من رفض أمي التام لفكرة السفر على هذه الحالة مرددة المقولة الشهيرة "عقلك في راسك تعرف خلاصك" واتبعتها بـ " اللي يشيل قربة مخرومة بتخرّ على دماغه".

وفيما يخص الجزء الثاني كنت مستعدًا للعرض على طبيب آخر، لكن المشكلة أن اليوم هو الجمعة وأن الأطباء في العيادات الخاصة إجازة في هذا اليوم، وبالتالي لم يكن متاحًا سوى العرض على أحد أطباء العظام بالعيادات الخارجية للمستشفيات، وبالبحث وجدت بالفعل أحدهم يأتي من محافظة الإسماعيلية ويستقبل الحالات بعيادة خارجية لمستشفى بالسويس، ونظرًا لأن أبي كان حينها مرهقًا وبشدة من أمور عدة ومجتمعة، حيث ما حدث معي بالإضافة لإصابة والدتي بكسر في الذراع قبل حادثتي بأسبوع ونصف تقريبًا، وأيضًا كانت





مريضة محتملة لإجراء عملية جراحية ولكن أتى كسر ذراعها فأجلها، ولأن أبي كان - واخدها كعب داير على الدكاترة- فإشفاقًا عليه، تركته يستريح واتصلت بـ "أحمد" وطلبت منه أن يحجز لي عند هذا الطبيب الإسماعلاوي وأن يأتي ليأخذني إليه، وبالطبع هذا ما حدث، فقد كان الأخوان فوزي في قمة التعاون منذ الإصابة والحادث، حيث سبق وأن اصطحبني أحمد لإجراء أشعة الرنين، كما أتى يومها ومعه محمود ولم تكن المرة الأولى التي أرى فيها محمود منذ الحادث - حيث كان معي عند الطبيب الذى شخص أولًا بكدمة وأخيراً بكسر -

تحرك ثلاثتنا، ونحن في السيارة كنا نلقي الدعابات وكأننا نقتل توترنا مما يحدث، وأجمع ثلاثتنا أيضًا "كده مننا لنفسنا" وعلى الرغم من أن أحدنا لم يدرس الطب من قبل ولا من بعد أنه حتمًا لا توجد كسور وأن التشخيص غير سليم.

وصلنا إلى حيث الطبيب الشاب وانتظرنا دورنا، وما هي إلا نصف الساعة وكنا داخل حجرة الكشف، لم نمنحه ما عندنا من معلومات، أخبرته فقط بأمر الحادث ومنحته الأشعة ولم أذكر له تشخيصات الطبيبين الآخرين، وما هي إلا دقيقة أو اثنتان من الاطلاع حتى وجدناه يقول للأسف بالفعل هناك كسر في إحدى عظام مفصل الركبة وأن هذا الكسر يستدعي إجراء عملية جراحية وتركيب شريحة ومسامير!

"يا مصيبتي!"، صراحة لن أستطيع أن أصف وقع هذه اللحظة بالكلمات، أعلم أن الأمر قد يبدو بسيطًا لكثيرين فالطبيب لا يخبرني بكارثة طبية أو مرض عضال، كل الحكاية أنه كسر وأن الطريقة الأنجح في العلاج هي الجراحة، وهو أمر يحدث كل يوم لمئات وآلاف البشر ونسبة التعافي والشفاء كبيرة، كل هذا طبيعي وجميل لكن وقع كلمة عملية جراحية وشريحة ومسامير، للأمر رهبة ما لا ينكرها إنسان، كما أن هذه كانت أول مرة يخبرني فيها طبيب بضرورة إجراء جراحة، خوفي من العواقب أيضًا كان يؤخذ في الحسبان، هل سأستطيع أن أمارس حياتي بشكل عادي وطبيعي كما في السابق؟ أم أن الأمر سيترك أثرًا ما؟

وهذه النقطة حسمها الطبيب "بغلاسة " قائلًا إن قدمي ستعود بعد الجراحة تـ"Function" على حد وصفه بنسبة ٨٥%، إذًا هناك خسارة بنسبة ١٥ % من وظيفة وقدرة وكفاءة قدمي، حينها أصابني عطش شديد لم أختبره من



قبل، وشحب وجهي وامتقع، كما نظرت حينها للأخوين فوزي فوجدتهما في حالة من الذهول والصدمة. بدأت أناقش الطبيب الشاب فيما لدي من معلومات وضرورة الشعور بألم وفرضية وجود تورم ينتج عن ذلك الكسر المزعوم، وأخبرته بأمر العلاج الآخر وهو الاكتفاء بالتجبيس فقط، أجابني أنه ليس بالضرورة وجود ألم أو تورم بسبب الكسر لأن هذا يعتمد على مكان الكسر نفسه، أما فيما يخص العلاج بالجبس لا الجراحة فهو ليس الخيار الأفضل، وربما يضطرني إلى تغيير مفصل الركبة بالثلاثينات من العمر - إن كان ليّا عمر يعني - حيث أنني ما زلت متمسكًا بأهداب العشرينات التي على وشك أن تلفظني خارجها.

بدأ الطبيب بـتحديد التفاصيل اللوجستية للموضوع، اليوم هو الجمعة، عليّ أن آتي إلى ا لمستشفى غدًا السبت لإتمام الفحوصات الطبية الخاصة بإجراء العمليات الجراحية، ومن ثم يتم إجراء الجراحة صباح يوم الأحد، أي قبل عيد الأضحى بثلاثة أيام، هنا بدأنا نحن الثلاثة بـطرح كل الأوراق على الطاولة، أخبرناه بأمر السفر الذي هو بعد سويعات من حديثنا، وسألناه هل من الممكن تأجيل إجراء الجراحة وهل من الممكن السفر أصلًا أم أن هذا يستحيل؟

بعدما استمع إلينا وعرف كافة التفاصيل، وعرف أن الإلغاء الآن يعني الخسارة المادية المُحققة، وجدناه يقدم حلًا، هو أنه من الممكن السفر وتأجيل إجراء الجراحة لبعد العودة مباشرةِ على أن يتم عمل جبيرة لتثبيت وضع الركبة ومن ثم الكسر الذى بها، وأنه عليّ الانتظار خارج غرفة الكشف ريثما ينتهي هو من توقيع الكشف على باقي المرضى المنتظرين ثم يشرع في عمل الجبيرة لي، والتيِ لم تكن حلًا بأي حال من الأحوال بالنسبة لي، فالجبيرة تعني أنه لن يكون متاحا لي أن أثني قدمي اليمنى بأي درجة، وبالتالي يصبح السفر وصعود الطائرة شبه مستحيل، ثانيَا الجبيرة تعني أنه لن يكون بإمكاني ارتداء أي بنطال جينز، وأن الزي المناسب لحالة كهذه سيكون ارتداء الجلباب وهو ما لا أمتلكه لأنني لا أحب هيئتي به، كما أنه سيكون غير مُرَحّب به في روسيا فضلًا عن عدم ملائمته للطقس هناك.

غادرنا حجرة الكشف مصدومين، وما هي إلا دقائق في بهو الانتظار طلبت خلالها من محمود أن يحضر لي مياه، إذ أن عطشي حينها كان لا يُحتمل، وما إن أتى بها وشربت حتى طلبت منه وشقيقه أن نغادر المستشفى عائدين إلى منزلي، وأنني لن أقوم بعمل الجبيرة هذه، وبالأسف أخبرتهما أنني قررت أنني لن أسافر، والأمر حُسم، نحن نتحدث الآن عن جراحة ضرورية لأتمكن من استخدام قدمي باقي عمري، وبالتأكيد لن أضحي بقدمي من أجل رحلة لبضعة أيام، وحسمت الأمر بأن اتصلت أمامهما بوكيلنا السياحي أخبره طالبًا منه أن يقوم بإلغاء كل شيء يخصني ويحوِّل حجز غرفة الفندق من ثلاثية إلى ثنائية. سألني بالطبع عن السبب وأخبرته وتأسّف لما أنا مصاب به، وأخبرني ما كنت بالفعل أعلمه، أن الإلغاء في هذا التوقيت لا يعني شيئًا وأن كل التكلفة ستضيع وتتبخر في الهواء ولا أمل في استعادة جزء مما سبق ودفعته، استعضت الله في المال، وبقيت على قراري الذى لم يقتنع به الأخوان ولم يستجيبا لطلبي بالتحرك إلى المنزل إلا بعد وقت آثرا أن يقضياه في النقاش ومحاولة إقناعي بالعدول عن قراري والسفر معهما، خاصة وأن الطبيب أخبرنا أنه بالفعل من الممكن تأجيل إجراء الجراحة، إلا أن خوفي على قدمي جعلني لا أفضل المخاطرة وأن أبقى على رأيي، بالتأكيد لم يكن ذلك الطبيب الشاب هو من سيجري لي الجراحة عند الوصول إلى هذه المرحلة، خاصة وأن الشركة التي أعمل بها متعاقدة مع مستشفى أفضل وطبيب أمهر ومخضرم.

كررت على الأخوين رغبتي في العودة للمنزل وأن الأمر محسوم، فلما تأكدا من جدية قراري، أعلنا أنهما لن يسافرا هما أيضًا، بالطبع رفضت هذا التضامن المجنون غير المدروس أو اللاعقلاني، فما من سبب يجعلنا نضخم خسائرنا، كما أنني بالفعل لن أجري الجراحة قبل العيد، أي بعد عودتهما بالسلامة من روسيا، وبالتالي لن يمكنني القول أنهما تخليا عني وقت احتياجي لهما، فضلاً عن أنه لا يوجد احتياج فالمفترض أنها جراحة بسيطة وليست عملية قلب مفتوح مثلًا.

وبقينا في نزاع طوال الطريق، وعندما وصلنا إلى المنزل كان أبي في انتظارنا أسفل العمارة ليعاونني على صعود الدرج، وليوصي بي الشباب خيراً في ألا يرهقاني أثناء السفر وأن يعتنيا بي وما إلى ذلك من وصايا. نزلت من السيارة



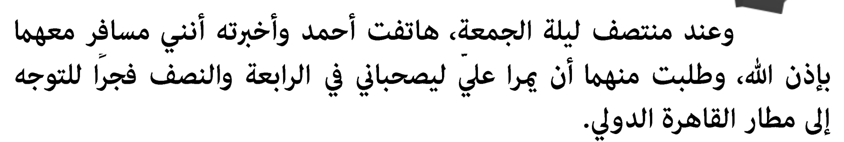
وجذبتهما بقوة واحتضنتهما مودعًا وطلبت منهما أن يلتقطا صورًا كثيرة قدر جهدهما وأن يخبراني هل تستحق روسيا الزيارة فأزورها لاحقًا أم "مقلب" ويجب أن أستبعدها من لائحتي.

كانت الأجواء ملبّدة بالحزن، ولكنني حاولت تخفيف حدة ذلك الحزن والتوتر بالدعابات والابتسام. كان أبي حتى ذلك الحين لا يعرف بتطورات الأمر، لا قراري ولا تشخيص الطبيب وأن الأمر تجاوز مرحلة التجبيس ووصل إلى الجراحة؛ أشرت لأبي أن هيا بنا ولا داع للوصايا العشر التي ينوي قولها، وأخبرته أنني لن أسافر، وسأخبره التفاصيل عند الصعود للمنزل، لكن الشابان استوقفا أبي وأبقياه للحديث معهما، لم أنتظر لأنني كنت قد حسمت الأمر، وصعدت السلم بمفردي متكئًا على عصاي، اجتمعت بوالدتي وإخوتي ولم أنتظر صعود أبي وأخبرتهم بالأمر.

كان الأمر بالقطع صدمة لهم جميعًا وتحولا دراميًا في الأحداث، حيث كانوا يتوقعون أو بانتظار أن تجري أمي عملية جراحية، أما أن أصبح أنا أيضًا بانتظار إجراء جراحة فهو أمر مرهق لهم، على الأقل على المستوى النفسي.

صعد أبي بعد ذلك وكان قد أصبح على علم بالأمر من الأخوين فوزي، ولكنهما تمكنا من إقناعه - ولا أعرف كيف - بالسفر معهما وأنني سأكون محل عنايتهما ورعايتهما، وأنهما لن يرهقاني إطلاقًا وأن التنزه سيكون بالمثل القائل "نص العمى ولا العمى كله"، وقد أبقى بعض المرّات بالفندق وأن تكون الرحلة - على سبيل المثال - بنسبة ٧٠ % راحة و ٣٠% حركة ومشاهدات وزيارات.

وجدت أن أبي على غرار "عبد المنعم رياض" بفيلم شارع الحب "انت اللي هتغنّي يا منعم " يخبرني أنه "لا انت هتسافر إن شاء الله". دخلنا في بعض الجدل ومحاولات الإقناع، عبّر الجميع عن قلقهم من السفر وخاصة أمي، ولكنني صراحة وجدت في تشجيع أبي لي دافعًا قويًا لأتمسك بالأمل في القيام بالرحلة من جديد.



وعند منتصف ليلة الجمعة، هاتفت أحمد وأخبرته أنني مسافر معهما بإذن الله، وطلبت منهما أن يمرا عليّ ليصحباني في الرابعة والنصف فجراً للتوجه إلى مطار القاهرة الدولي.

جدير بالذكر بعد كل هذا، أن أسرتي كان لها طلب له وقع الشرط، وهو أن أسافر هذه الرحلة تحديدًا دونما إعلان أو إخبار، حيث لا [٥] Set location on FB لا صور، ولا أي شيء، بل عدم الإعلان حتى لأصدقائي المقربين. كانت وجهة نظرهم كيف أنت مصاب وفي انتظار إجراء جراحة وكذلك أمي، وتترك كل هذا لتسافر و"تتفسح"؟!

ولأننا مجتمع يراقب الناس فيه بعضهم البعض ونضع في حساباتنا "كلام الناس"، احترمت رغبتهم أو شرطهم ووافقتهم عليه، ومن هنا كانت الرحلة إلى روسيا الاتحادية رحلة سرية.

---

[٥] Set Location on FB:هى خاصية تحديد موقع التواجد ومشاركته مع كل الأصدقاء عبر تطبيق الفيسبوك.



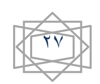
٢- اليوم الأول.. لا يوجد

طبعًا أصبت بالضجر صديقي القارئ، حيث أنك تقرأ هذا الكتاب الآن، إذًا أنت مُحب للسفر والرحلات وآدابها، وإذ بك حتى الآن لا سفر ولا رحلات، كلام عن حالة طبية، مرض وحوادث - ربنا يحفظك- أولًا أستميحك عذرًا في هذا وسبق وعرضت كتالوج الكتاب على غلافه، ثانيًا "صبرك بالله، أنا جايلك في الكلام أهو وهتشوف معانا روسيا ".

وعند الرابعة والنصف فجرًا كان الأخوان فوزي أسفل المنزل، وعاونا أبي على إنزال الحقيبة ونزولي الدرج، وتوجهنا إلى المطار، وفي الطريق أخبرتهم أولًا مدى سعادتي لأنني وبالرغم من كل ما حدث في الليلة السابقة ها أنا ذا مسافر معهما، كما أخبرتهما أيضًا أمر اتفاقي مع أسرتي ونيتي في عدم الإعلان عن سفري إطلاقًا وأنه سيبقى طي الكتمان، وبالطبع كان لهما مطلق الحرية في الإعلان والتصوير لكن دونما عمل "Mention –Tag." وهي خاصية الإشارة إلى شخص ما عبر تطبيق الفيس بوك"

وصلنا إلى مطار القاهرة في السادسة والنصف صباحًا، حيث أن موعد طائرتنا المتجهة مباشرة إلى موسكو كان في التاسعة صباحًا، ذهبنا أولًا إلى الكاونتر الخاص بالناقل وهو مصر للطيران لتسجيل التذاكر وتسليمهم الأمتعة، وطلبت من الموظف أنه لو بالإمكان أن أحصل على المقعد الذى يكون في أول الصف بحيث لا يكون أمامه صف آخر من المقاعد لأتمكن من مدّ قدمي خلال الرحلة، وكانت هذه هي الخطيئة التي ارتكبتها مع موظف "حافظ مش فاهم"، طلبي كان متعلق فقط بالإمكانية والتوافر، أي لو متاح فخير وبركة ولو غير متاح فلا مشكلة ويمكنني الجلوس على مقعد عادي، إلا أن الموظف الهُمام لم يفهم هذه النقطة، و"عمل من الحبة قبة"، أولًا أخبرني أن طلبي غير قابل للتنفيذ للأسف، وأنه إذا ما رغبت في هذا فإنه يتعيّن علي

حجز مقعدًا إضافيًا على الطائرة، وعليه هو أن يتصل بقسم الدعم الفني ليقوموا بفك كرسي من مكانه وهو المقعد الذى سأشتريه حسب اقتراحه، وعندما أخبرته أنني لست في حاجة لكل هذه الإجراءات وأنني فقط سألت عن إمكانية الجلوس على المقعد الذى رغبت، كما أنه ليس بإمكاني





من الناحية المادية أن أشتري مقعدًا "مش في الحسبان"، فإذ به يقول أنها مسئولية وأنني قد أطالب الشركة لاحقًا بالتعويض مدعيًا أن أضرارًا أصابتني، وعلى هذا كان لابد أن أتوجه بصحبه أحد ممثلي خدمة العملاء إلى طبيب المطار، ليفحصني ويتأكد من أنني "Fit to Fly" أو صالح للطيران.

وجدنا الموضوع "كبر فجأة " ويبدو أن هذه السفرة كانت سلسلة من التعقيدات المتتالية والتي انتهت والحمد لله بالاستمتاع وبرحلة حقًا لا تُنسى. أعلم أنه بإمكاني السفر وصعود الطائرة دون تجهيزات خاصة، كما يمكنني الجلوس العادي ولكنني فقط فضلت الوضع الذى طلبته من الموظف و "ياريتني ما طلبته ".

امتنع الأخوان فوزي عن تسجيل تذاكرهما إلى أن نعرف كيف سينتهي الأمر معي، انتظرنا بعض الوقت حتى أتت آنسة مهذبة من خدمة العملاء، اصطحبتني إلى حيث مكان الطبيب وهي تعتذر عن إصرار الموظف على هذا الطلب مادام صاحب الشأن "اللي هو أنا يعني" موافق ومستعد للسفر.

وصلنا جميعًا إلى حيث الطبيب، وتحفظت على ذكر ما أعانيه بدقة، فأنا أرغب في السفر والتصريح بصعود الطائرة، فأخبرته أنها مجرد كدمة بالركبة وأن طبيبي الخاص نصحني بعدم إجهادها والسير مستعينًا بالعكاز، وافق الطبيب على كلامي دونما توقيع الكشف عليّ وأصدر تقريرًا بأنني ملائم صحيًا للسفر، شكرناه وعُدنا إلى حيث الموظف الذى لم يقتنع بالتقرير وطالب الطبيب بكتابة "أن المسافر لائق طبيًا للسفر، والجلوس على المقعد بزاوية ٩٠ درجة، أدركت حينها أنني مع موظف "مكلكع" تلك الكلكعة المصرية الشهيرة بالبيروقراطية، عُدنا للطبيب مرة أخرى، الذى هو بالمناسبة في مبنى مجاور لصالة المغادرة؛ أي أننا نسير مسافة إلى هناك نوعًا ما.

اندهش الطبيب من عودتنا له مرة ثانية ومن طلب الموظف وهاتفه محاولًا إقناعه أن التقرير الطبي يُخلي مسئولية الشركة الناقلة عن أيّة أضرار، إلا أن الموظف أصرّ وكان له ما أراد.

وأخيراً، وبعودتنا للموظف إياه أصدر الثلاث بطاقات الخاصة بصعودنا الطائرة، واستلم أمتعتنا، وانتقلنا بعد ذلك إلى مرحلة الجوازات التي انتهت





والحمد لله في سهولة ويسر وسرعة، وأصبحنا في حكم المغادرين مصر بالفعل بموجب ختم المغادرة الذى أصبح على جواز السفر.

ذهبنا بعد ذلك إلى منطقة الانتظار، الساعة حينها كانت قد قاربت الثامنة والربع والمفترض أن يكون تم فتح الرحلة للمغادرة وبدأ اصطفاف المسافرين ليتم نقلهم بالباصات الصغيرة إلى حيث مكان الطائرة، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وما هي إلا دقائق وعرفنا أن طائرتنا وكذلك الطائرات المتجهة إلى كندا ومونتريال وثالثة لا أذكر "كانت رايحة فين" سيتأخر إقلاعهم حتى إشعار آخر، "هو اليوم باين من أوله، والرحلة باينة من أولها" هكذا قلنا بعضنا لبعض، إلى أن عرفنا بعد قليل أن سبب تأخر الإقلاع هو إغلاق المجال الجوي لوجود تدريبات عسكرية، إذًا متى سنطير؟ لا أحد يعرف.

بعد حوالي ساعة أخبرونا أننا سنطير في تمام الثانية ظهرًا، أصبنا بالضجر طبعًا وجميع الركاب أخذوا في الصياح وإعلان الاستياء، فالساعة لم تكن وصلت للعاشرة بعد وعلينا أن ننتظر حتى الثانية، في حين أنه كان من المفترض أن نكون بحلول الثانية في موسكو.

كنت على يقين أن الضيق والضجر في مثل هذه الحالات لا يفيد ولا يجدي ولن يُغيِّر من الأمر شيئًا، طبعًا كنا خلال هذا نستمع إلى قصص أناس تدعو حقًا إلى الغضب، حيث أن بعض المسافرين معنا لم تكن موسكو هي وجهتهم الأخيرة، وبالتالي كان لديهم حجوزات لطيران آخر إما داخلي أو لإحدى بلدان شرق أوروبا المجاورة لروسيا، وهذا التأخير يعني أن رحلاتهم الأخرى ستفوتهم وأن أحدًا لن يعوضهم عن هذه الخسائر، كما كان أحد المسافرين متوجهًا من موسكو إلى "طاجيستان" أو هكذا أذكر، وقال أنه على علم أنه لا توجد سوى رحلة واحدة يوميًا بين موسكو وطاجيستان هذه، وبالتالي سيقضي الرجل ليلة في موسكو دونما ترتيب مُسبق، وعليه أن يحجز لسفره اليوم التالي إلى حيث يريد، هذا إن وجد مقاعد شاغرة أصلًا.



حمدنا الله أن حالنا ليس كحالهم، وأننا في نهاية الأمر سنصل إلى موسكو ثم نتوجه إلى الفندق، وكل خسائرنا تكمن في ساعات الانتظار هذه حتى نصعد للطائرة ونتحرك، وكنا على وشك أن نتعرض لخسارة مرهقة ومؤسفة إن كانت قد حدثت، ولها تفصيل آخر لاحقًا.

أتى موظف لمصر للطيران ووزع كوبونات تُمكننا من تناول وجبة مجانًا خلال وقت الانتظار، توجهنا إلى حيث منطقة المطاعم واخترنا وجبة وجلسنا لتناولها، بعد ذلك نام الأخوان على المنضدة "وده يعجبني فيهم" حيث أننا تقريباَ لم ننم منذ الليلة الماضية، وبقيت يقظًا، وهنا خطرت ببالي فكرة، ماذا لو تمكنت من استئجار كرسي متحرك عند الوصول لموسكو؟ وبالتالي أستطيع أن أذهب مع الأخوين فوزي أينما توجها دون إجهاد لقدمي، "وده طبعًا من طمع ابن آدم" حيث أنه قبل قليل كنت مستعدًا للسفر والاستمتاع بالبلد ولو بنسبة ٣٠% فقط وأن أبقى ٧٠% من الوقت بالفندق، وها أنا ذا أخطط للحصول على كل شيء.

أعجبتني الفكرة وشرعت في البحث عبر الإنترنت عن أماكن لاستئجار المقعد المتحرك بموسكو، وجدت بعض المعلومات لكنها لم تكن كافية، ففضلت الانتظار "أسافر الأول" وحينها يمكنني الحصول بدقة على إجابة أكثر وضوحًا وتفصيلًا، وعلى الرغم من أنني قد أزعم أني قارئ جيد، فإنه للأسف لم يكن معي كتب حينها لأقرأها فيمر الوقت بشكل مفيد، وبالطبع مضى الوقت بطيئًا إلى أن أصبحت الساعة الواحدة والربع، أيقظت الأخوين فوزي وذهبنا إلى حيث مكان مغادرة الطائرة متوقعين أن الركاب قد بدأوا في الصعود للحافلات التي ستنقلهم حتى الطائرة، ولكننا عندما ذهبنا لم نجد شيئًا من هذا القبيل، بل وصلت الساعة إلى الثانية بالفعل وهو الوقت الذى كان من المفترض فيه أن نكون رابطين لأحزمة الأمان محلقين في الجو. زاد بالطبع غضب الركاب، فنحن لا نعلم متى سنطير، ولا توجد معلومات واضحة تقدم لنا، وإذا كان الحلم سيد الأخلاق فلك أن تعلم حينها أن "سيد قد مات" والكل ضَجِر يشتم ويلعن، مصالح الناس مُعطّلة ولا أحد مهتم، ودلالة عدم الاهتمام هذه تجدها بوضوح من عدم وجود اعتذار للسادة الركاب عن تأخر الإقلاع في الإذاعة الداخلية للمطار مثلما يحدث في مطارات دول العالم العادية ومنها الثالث أيضًا، والكل يصب جام غضبه على موظفين لا حول لهم ولا قوة، وسرعان ما علمنا أن كل الرحلات التي تأخر إقلاعها



معنا قد طارت بالفعل وأن غلق المجال الجوي قد انتهى منذ وقت، وأنه لم يتبق سوانا، وأن الأمر هذه المرة له علاقة بوجود عطل في الطائرة "الله أكبر"، "ما كل هذا النحس" وتسربت أقاويل أنه من المحتمل إلغاء الرحلة أو للدقة تأجيلها لليوم التالي.

وعندما تجاوزت الساعة الثالثة عصراَ صاح أحد الركاب غاضباَ موجهًا كلامه لأحد الموظفين يخبره أن جميع الركاب مضى على انتظارهم أكثر من ست ساعات وأنه طبقًا لبعض قواعد وضوابط المطارات التي يبدو أن هذا الرجل كان على علم ودراية بها يتعين على الشركة الناقلة استضافة ركاب الطائرة بفندق المطار[٦]، وما إن صاح الراكب بهذا الكلام، حتى اصطحبه الموظفون للخارج لتهدئته وربما لترضيته منفردًا بعيدًا عن باقي الركاب وظننا - وبعض الظن إثم طبعًا - أنه قد يكون شرب شاي بالياسمين[٧].

خلال هذه الأثناء طبعًا، كانت مكالمات أسرتي للاطمئنان عليّ خلال تلك المدة الطويلة لا تنقطع، ووصل الأمر إلى حد أن طالبتني أمي بأن أعود أدراجي ولا أسافر، وأن "السفرية دي فيها حاجة".

وصراحة مرّ على خاطري أنه ربما يكون هذا التأخير فرصة لي للتراجع ويكون السفر ضد مصلحتي، ولكنني حسمت الأمر بأنني من أنصار العمل بالآية الكريمة "فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ[٨]"، وما إن كانت الساعة الرابعة حتى بدأوا بالسماح لنا بالصعود إلى الطائرة التي تحركت إقلاعًا قرابة الخامسة إلا الربع مساءً.

---

[٦] فى أوروبا والدول المتقدمة هناك تعويض للركاب إذا ما تأخر الإقلاع عن ثلاث ساعات يصل أحيانًا إلى ٣٥٠ دولارًا للراكب الواحد، بل وتخيل فى السعودية أيضًا هناك تعويض عن كل ساعة تأخير ٣٠٠ رس إذا ما تجاوز التأخير الثلاث ساعات.

[٧] الشاي بالياسمين: أصبح إيفيه شهير بمصر للتدليل على قبول شخصٍ ما للرشوة أو للترضية بشكل غير سليم أو غير قانوني، وأعتقد أن هذا الإيفيه كان من أحد أفلام عادل إمام.

[٨] سورة آل عمران الآية ١٥٩.



وأخيراً، أصبحنا في الجو، وتحققت الأمنية بأن أسافر، وبعد أربع ساعات ونصف تقريباً كنا قد وصلنا إلى مطار (دومودیدوفو)[9] الدولي بموسكو، وكنا حينها لا ندري الساعة بموسكو حيث أن هواتفنا خدعتنا بشكل ما، المهم أنها كانت حينها تقريباً العاشرة مساء وهذا يعنى أنه لا وجود لليوم الأول، فاليوم الأول للرحلة قد ضاع ولن نتمكن من فعل أي شيء به، بالطبع لم تكن هذه هي الخطة، فالخطة كانت المغادرة في التاسعة صباحًا والوصول في الثانية ظهرا وبالتالي التوجه للفندق قرابة الثالثة أو الثالثة والنصف، مما يعني أن باقي اليوم معنا ونستطيع استكشاف المدينة يومها، ولكن طبعًا بسبب تأخر الإقلاع كل هذا الوقت، كما وأننا لم نكن حصلنا على قدر كاف من النوم، ومع ساعات الانتظار المرهقة في المطار، وقبل ذلك فنحن مستيقظون منذ الثالثة من فجر اليوم، فأقصى طموحنا كان الذهاب إلى الفندق والنوم، ولكن هذا بعد أن نعبر ونتخطى ال KGB[10] ولويزا .

---

[9] مطار دومودیدوفو : مطار دولي قرب العاصمة الروسية موسكو، و يعد مطار (دومودیدوفو) الدولي أكبر مطارات روسيا ويستقبل ٢٢ مليون مسافر سنويًا تقريبًا.

[10] ال KGB: هو جهاز المخابرات السوفيتي، ويُطلق عليه أيضًا لجنة أمن الدولة، تأسس فى 20 ديسمبر1917 ، يوصف بأنه "سيف ودرع " للثورة البلشفية والحزب الشيوعي وهو ذو تاريخ أسود فى قمع المعارضين للنظام ومن يطلق عليهم أصحاب الأفكار الهدامة كما أنه نجح فى تجنيد عدد ضخم من العملاء فى بلاد كثيرة أهما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وتم حلّه بنهاية الاتحاد السوفيتى نفسه عام ١٩٩١ وذكره جاء على سبيل الدعابة وتقريب الصورة الذهنية.

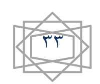


٣- آلة الزمن ولويزا

وصلنا إلى المطار وتوجهنا إلى حيث شبابيك الأمن للحصول على ختم الدخول. إن الانطباع الأول لك سيجعلك تشعر أنك عُدت إلى حال وزمن الاتحاد السوفيتي القديم قبل أن يطلق عليه "ميخائيل جورباتشوف" رصاصة الرحمة أو يسدل ستار النهاية، ستعود إلى زمن الشيوعية والشك والترقب، فالمكان مُقبِض، منخفض السقف، يغلب عليه اللون الرمادي الكئيب، لن تشعر أبداً أنك بمطار، بل ربما يراودك إحساس أنك بمكان احتجاز ما، ترك لدينا هذا الاستهلال انطباعًا غير جيد عن البلد، شعرنا أنها حقًا كما سمعنا عنها بلد خطرة وأناسها ضيقو الأفق والخُلق، غير مرحبين بالأجانب.

المهم، تركنا انطباعنا ذلك جانباً، وكان تركيزنا على أن ننتهي من مرحلة الجوازات هذه ويمر اليوم بسلام، ولكننا وجدنا أن صفوف المسافرين لا تتحرك، وأن كل ضابط - وكان عددهم لا يتجاوز الستة ضباط على ما أذكر وموزّعين على مكاتب متجاورة- أمامه طابور طويل، وأنه يدقق في جواز سفر كل مسافر ويفحصه أكثر من مرة، ويوجه أسئلة لبعض المسافرين، وتشعر أنهم يدخلون في نقاش ما، وهذه الأمور أصبحت غير معتادة في المطارات الآن بعد استخدام جواز السفر الإلكتروني، فهو يسهل إثبات تزويره إن حدث، كما يتم التأكد من سلامة تأشيرة الدخول بسهولة حيث أن قنصلية أو سفارة أي بلد ببلد آخر هي التي تمنح هذه التأشيرة.

كان الضباط يستغرقون تقريباً مع كل مسافر عشر دقائق في المتوسط، وأحيانًا أكثر وأحيانًا أقل، وتقريباً كل من كانت لهم ملامح أو حاملي جوازات سفر عربية وكذلك الفتيات أو السيدات المحجبات كان يتم استدعاء فتاة شرطية - شقراء طبعًا- حيث أن هذه هي الطبيعة في روسيا، جميلة طبعًا وقصيرة فتصطحب ذلك الذى كان أمام الضابط وتأخذه إلى مكان مجهول، وتوقعنا بعد ذلك أن يكون الـ " Investigation" أو التحريات، وهناك يتم طرح المزيد من الأسئلة على المسافر وغرضه من الزيارة وغير ذلك من الأمور.



كل بضع دقائق تأتي تلك الفتاة لتصطحب شخصًا ما، سيدات ورجال "مبتعتقش" تأخذه ثم تختفي ويختفي هو أو هي أيضًا. أصبح من المبهج بالنسبة لنا أن نجد شخصًا ما مرّ وحصل على ختم الدخول وفتح له الضابط البوابة الإلكترونية وعبر بسلام، وطبعًا مما يحدث هذا توقعنا أن الفتاة ستأتي لاصطحابنا للتحريات، ووضعنا كافة السيناريوهات السوداء منها والبيضاء، ماذا إذا لم نمر نحن الثلاثة معًا؟ وماذا إذا ما حصل على ختم الدخول أحدنا فقط، أو اثنان والثالث لا؟ وماذا إذا ما سألوني عما إن كنت أحمل تأمينًا طبيًا للدخول إلى البلد أم لا؟ خاصة وأنني أسير مستخدمًا عكازًا، والنظام في تأشيرة الشنجن لدول الاتحاد الأوروبي يقتضي أن يحمل المسافر تأمينًا طبيًا يغطي تكلفة مشكلاته الطبية إن حدثت خلال وقت إقامته.

بالطبع روسيا ليست ضمن دول الاتحاد الأوروبي، كما أن تأشيرتها لم يكن من متطلباتها وجود ذلك التأمين، ولكنني تخوفت إذا ما طالبوني به كي لا يتحملون تكلفة أي خدمات طبية قد أحتاجها أثناء إقامتي لديهم. كنا بالفعل نشعر بالتوتر، لقد نجح المكان في توصيل هذا الشعور حقًّا، لذلك حاولنا أن نهدئ أنفسنا ونأخذ الموضوع بشكل مرح بعض الشيء، لذلك أطلقت على الفتاة الشرطية إياها اسم (لويزا)، وكلما ظهرت لاصطحاب أحد المسافرين نضحك ونقول: "لويزا جت"، وتوقعنا أننا سننال شرف صحبة لويزا إلى قسم التحريات - تسألني لماذا أطلقت عليها اسم (لويزا) تحديدًا ووافق الأخوان فوزي على ذلك الاسم بالرغم من كونه ليس من الأسماء الروسية على حد سماعنا! أقول لك: لست أدري، ربما ملامحها الأوروبية ووجهها الملائكي جعلتها تشبه "نادية لطفي" في فيلم (الناصر صلاح الدين) وكانت تحمل ذلك الاسم بأحداث الفيلم؛ ربما.

بعد ساعة وربع من الانتظار والبقاء واقفًا على قدم واحدة متكئًا على العكاز كي لا أُحمّل جسدي على القدم المصابة، وصلنا أخيراً إلى شباك الضابط، بدأنا بـ"أحمد" الذى استجوبه الرجل قليلًا وتفحص جوازه لبعض الوقت ونظر بإمعان عندما وجد تأشيرة سنغافورة، وبادله النظر ليرى ثباته الانفعالي - هكذا أعتقد- ثم حدثت المعجزة ولم يستدع (لويزا) كي تأخذ أحمد وتختفي، بل وجدناه يمنحه ختم الدخول ويفتح له البوابة الإلكترونية ويعبر بسلام! إذن أحمد الآن رسميًا في روسيا الاتحادية؛ ماذا عنا، محمود وأنا؟



تبعنا أحمد على شباك مزدوج، فوقفنا أنا ومحمود سويًّا أمام ضابطين متجاورين. تفحص الضابط الجواز وسألني أين أنوي الإقامة؟ فـأجبته بمنتهى الثبات عن خطة الإقامة بموسكو وسانت بطرسبرج، ثم عاود تفحص الجواز مرة أخرى ووقف أمام تأشيرة سنغافورة أيضًا، وما هي إلا لحظات ووجدناه هو وزميله يختمان لنا بالدخول، ويفتحان لنا الحاجز الإلكتروني فنعبر بسلام إلى حيث يقف أحمد بترقب ينتظرنا.

بقي لدينا سؤال: لماذا "فلتنا إحنا الثلاثة" ولم يستدع لويزا لأي منا؟ هل ربما لأن الانتهاء من ركاب هذه الطائرة قد أخذ وقتاً أطول من اللازم وبالتالي كان قليلو الحظ هم من وقفوا في أول الطابور، والمحظوظون هم من تأخروا في الدور؟ أم لأن جوازات سفرنا ووجود بعض السفرات والتأشيرات عليها أختام خروجًا ودخولًا قد منحته بعض الاطمئنان؟ لسنا ندري، المهم أننا لم نرَ (لويزا) هذه ثانية والحمد لله.

ذهبنا بعد ذلك لاستلام الحقائب، وما لاحظناه بعد ذلك أننا بمجرد خروجنا من المنفذ الأمني هذا أصبحنا في مطار كباقي المطارات الطبيعية، مطار ينفى ذلك الانطباع السيئ الذي أخذناه عن البلد، متحضر متطور وجميل معماريًّا، ينتمي لعام ٢٠١٥ لا لستينات القرن الماضي كما اعتقدنا، وبالتأكيد أجمل من مطار ١ لدينا، أخذنا الحقائب وخرجنا لنبحث عن تاكسي لينقلنا إلى حيث الفندق.

دخلنا في عملية فصال كعادة أغلب سائقي التاكسي عند المطارات، ولكنها كانت أغرب عملية فصال حيث إن السائقين- خير اللهم اجعله خير - لا يعرفون الأرقام بالإنجليزية وبالتالي يتم التفاوض عبر هواتفهم المحمولة، حيث يشغّلون إما الآلة الحاسبة ويكتبون عليها الأرقام، أو لوحة طلب الأرقام وكأنهم سيجرون اتصالًا بشخص ما، كانت هذه إشارة لم نستوعبها ولها دلالة لم ندركها في حينها.

وأخيراً، تم الاتفاق على مبلغ ٢٥٠٠ روبل روسي - و"متتخضش من الرقم " وهو ما كان يقارب حينها الـ٢٨٠ جنيهًا مصريًّا، حيث أن ذلك المصري البائس "الجنيه" هذا كان حينها بقرابة التسعة روبلات، وبتقسيم المبلغ على ثلاثتنا، ولأنه عادة ما يكون المطار بعيدًا نوعًا ما عن البلد والعمار، نعلم أن التاكسي سيكون مكلفًا، و إن كان السعر أكثر قليلًا مما ذكره موقع taximeter لحساب المسافات والتكلفة عند التنقل بالتاكسي بالبلدان والمدن المختلفة.

سرنا في المدينة ليلًا، نستكشفها فقط عبر نافذة التاكسي، ومن الجدير بالذكر أن الطقس وقت وصولنا وخروجنا من المطار كان جيدًا، إنها تلك البرودة المنعشة التي تتكيف معها بمجرد ارتدائك لقطعة ملابس بأكمام وثقيلة نسبيًا - خريفية أقصد- استهلالية الطقس هذه أسعدتنا وأضجرتنا في آن واحد، الفرحة لأننا لن نضطر - على ما يبدو - لارتداء ملابس شتوية ثقيلة طوال الرحلة، وأن الجو لن يكون عائقًا عن الاستمتاع بها، أما الضجر فكان بسبب كمية الملابس الشتوية التي أتينا بها من مصر وعلى رأسها معاطف الشتاء الثقيلة - متأثرين بمشهد "محمد هنيدي" في ثليج روسيا في فيلمه (جاءنا البيان التالي) - ويبدو أن هذه الملابس الثقيلة لن تستخدم وأنها كانت مجرد "شيلة ووزن على الفاضي".

كانت المدينة مضاءة كلها، وكان من اللافت للنظر بشدة نظافة الشوارع المفرطة "شوارع فلة" لا خرابات ولا مقالب قمامة جماعية وسط أماكن السكن، وأيضًا روعة الأسفلت "مثل السجادة" وطبعًا لا مطبات، وهي كلها أشياء نفتقدها دومًا هنا في مصر للأسف.

وبعد قرابة الأربعين دقيقة كنا قد وصلنا إلى حيث الفندق الذى حجزنا مدة إقامتنا به، وهو فندق Holiday Inn Suschevsky Val "نطقه صعب أنا عارف" وهو أحد أفرع سلسلة الفنادق الشهيرة التي تحمل نفس الاسم والعلامة التجارية "اللوجو".

دخلنا إلى الفندق وقام أحمد بإتمام إجراءات الدخول، وصعدنا إلى غرفتنا التي كانت بالفعل جميلة ونظيفة وأنيقة وفسيحة أيضًا، حيث اتسعت لحقائبنا الكبيرة ولنا بالطبع، كما أنها كانت غرفة ثلاثية بالفعل، وليست كأغلب غرف الفنادق التي تدعى كذبًا أنها غرف ثلاثية "ولكنها بتستهبل" حيث يتم وضع سرير كبير لشخصين وكنبة يتم استخدامها كسرير للشخص الثالث، والتي



عادة ما تكون غير مريحة كما حال النوم على السرير الحقيقي، فكان هناك ثلاث أسرّة متساوية في الحجم وفي المسافات بين كل سرير وآخر، المختصر المفيد أن مكان الإقامة كان حقًا مريحا خاصة في ظل ظروف إصابتي وتحركي في الغرفة بالعكاز.

قمنا بتشغيل التلفاز وأول ما وجدناه على الشاشة، كان ترحيب بالسيد أحمد فوزي وتمنى إقامة طيبة له، كانت هذه هي أول مرة نرى تلك التكنولوجيا المتقدمة، وأعجبتنا هذه البادرة اللطيفة من الفندق، كما كانت هذه هي أول مرة يقوم أحمد بإتمام إجراءات تسجيل دخول الفندق، حيث جرت العادة "ويارب ما يقطعها لنا عادة" أنني من أقوم بذلك الدور، حيث أنني المسئول عن المراسلات الإلكترونية بيني وبين شركة السياحة، وبالتالي تكون كل المراسلات والحجوزات باسمي وأقوم أنا بإتمامها عند الوصول، وبالطبع سَعِد "انبسط يعني" أحمد بهذه البادرة الجميلة.

كان أول ما اهتممنا به هو فتح حقائبنا، حيث كان بها علب أجبان اشتريناها من مصر لنستخدمها في وجبتي الإفطار والعشاء توفيراً للنفقات، كما أننا سبق وتعلمنا الدرس – علبة الجبن الكيري الست قطع التي كانت في سنغافورة بثماني وأربعين جنيهًا- بالطبع لم يكن في الحسبان أن هذه الأجبان ستبقى في الحقائب كل هذا الوقت، كنا نخشى أنها فسدت وأتلفت ملابسنا بسبب رائحتها، فتحنا الحقائب مسرعين وأخرجناها والحمد لله لم تكن قد فسدت بعد، فتحنا الـ "minibar"أو الثلاجة الصغيرة التي تكون عادة موجودة في غرف الفنادق ولكنها لم تنفتح، حاولنا معها كثيراً دون جدوى "مش عيب فندق كبير زي ده تبقى الثلاجة فيه بايظة" هكذا ظننا.

نزل أحمد إلى مكتب الاستقبال لاستلام جوازات السفر بعدما انتهوا من تسجيل بياناتها، وسأل الموظفة لماذا الثلاجة الصغيرة غير قابلة للفتح، وصعد وأخبرنا أن هناك تكلفة لاستخدامها تبلغ خمسة آلاف روبل، كانت هذه هي أول مرة أسمع فيها عن شيء كهذا وكذلك محمود، اندهشنا من ذلك النظام العجيب، واعتبرناه سرقة بشكل أو بآخر، ورفضنا أن نستخدمها، ولكن ماذا سنفعل في هذه الأجبان التي تحتاج بالتأكيد إلى أن تُحفظ في ثلاجة، ليس لأهميتها بالنسبة لنا ولكن ع الأقل كي "متضربش وتقلب لنا ريحة الأوضة".



كان الحل أن ذهبنا بها ناحية النافذة الكبيرة الموجودة بالغرفة وفتحنا جزءاَ منها، ووجدنا أن الطقس قد اختلف تمامًا فالهواء أصبح باردًا حقًا، تركناها بجوار النافذة بعض الوقت وتناوبنا على الحمامِ لننعم بـ"دُش" ساخن، وعدنا لنستكشف التلفاز بعد ذلك، حيث أن اليوم فعليا انتهى ولا شيء نستطيع فعله الآن بعدما تجاوزت الساعة منتصف الليل، كان التلفاز روسياَ بامتياز، حيث كل القنوات ناطقة بالروسية باستثناء BBC الإنجليزية "كتر خيرهم"، وكان من اللافت للنظر بالنسبة لنا أمران: الأول أن القنوات تعرض أفلاماً أمريكية شهيرة ولكنها تُعرض مدبلجة إلى اللغة الروسية دون أن تترجم لأي لغة أخرى فوجدنا "نيكولاس كيدج" الممثل الشهير يتحدث الروسية بطلاقة "دوبلاج طبعًا" وكذلك باقي نجوم هوليوود. والأمر الثاني أننا لاحظنا أن السائقين عند المطار لا يعرفون الأرقام بالإنجليزية وأنهم فقط يكتبونها على شاشات هواتفهم المحمولة، فضلًا عن أن يتحدثونها، كان هذا يعني أن علاقة الروس بالإنجليزية ليست جيدة، وأننا سنعاني في التعامل بسبب غياب لغة وسيطة للتواصل، كان هذ الاستنتاج في محله تماما فما اكتشفناه لاحقًا ودعني "أحرقهولك من دلوقتي" أن علاقة الروس بالإنجليزية ربما تكون مثل علاقتنا نحن المصريون باللغة الإسبانية أو الفرنسية مثلًا، حيث نادرًا ما تجد أحدًا يستطيع أن يتحدث معك في شوارع مصر بهذه اللغات، كذلك من النادر هناك أن تجد روسياَ يستطيع التواصل معك بالإنجليزية، ويبدو أن الصراع الروسي الأمريكي لعب دوراً كبيراً في إهمالهم للغة الإنجليزية واعتبارها لغة العدو "وده جه على دماغنا".

لم يمض الكثير من الوقت حتى شعرنا أن الغرفة أصبحت مثل الثلاجة، بسبب ذلك الجزء المفتوح من النافذة حيث الأجبان بجواره، فأغلقناها طبعًا وتركناها لمصيرها "مش هنتلج عشان علبتين جبنة يعني". بعد كل هذه الأحداث، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة من صباح يوم الأحد، وهكذا ضاع اليوم الأول دونما شيء يُذكر باستثناء أننا بالفعل وبحمد الله وأخيراً وصلنا موسكو.



٤- اليوم الأول فعلًا...الانبهار

نلنا قسطًا جيدًا من النوم، واستيقظنا تقريباً في العاشرة صباحًا تدفعنا الرغبة في تعويض خسارة الأمس برؤية البلد واستكشافها، وعدم إضاعة المزيد من الوقت. تناولنا إفطارنا من الأجبان إياها والتي والحمد لله كانت ما تزال صالحة للاستخدام الآدمي والخبز الذى كان معنا أيضًا، وكان محمود قد اشترى في الليلة الماضية علبة سجائر وزجاجات مياه من سوبر ماركت بجوار الفندق مباشرة، ولكنه لا يبدو عليه أنه سوبر ماركت أصلًا، بالرغم من أنه متسع من الداخل ومتنوع البضائع، ولا أعلم إن كانت هذه سمة المتاجر عندهم أم أنها مجرد صدفة، حيث أن نفس الهيئة وجدتها في سوبر ماركت آخر قرابة الفندق الذى أقمنا به في سانت بطرسبرج، وبالطبع بسبب الإصابة لم أكن أُصاحب الأخوين فوزي أثناء التبضع حفاظًا على الطاقة وإحسانًا لاستغلالها.

بعدما أنهينا الإفطار كانت خطتنا الذهاب إلى الساحة الحمراء أو منطقة الكرملين الشهيرة، استعددنا للخروج بملابس ليست صيفية وليست شتوية "بين البينين"، وذهبنا إلى مكتب الاستقبال لنسأل عن كيفية الذهاب، وهل توجد محطات مترو قريبة من الفندق أم لا. بالفعل كانت هناك محطة قريبة نسبياً، وفي الحالات العادية – صحياً أقصد- كنا سنستخدمها بالفعل أولًا توفيراً للنفقات حيث أن المواصلات العامة تعتبر إحدى وسائل السياحة الاقتصادية، وثانياً لأن الانتقال كما المحليون هو من ثراء تجربة السفر، ولكن نظراً للإصابة فضلنا أن نأخذ تاكسياً إلى هناك.

هنا يجدر بي ذكر الموقف الشهم للأخوين فوزي، حيث أننا - كما سبق وأوضحت - عادةً في الرحلات السياحية ما نتحرك بالمواصلات العامة ونستخدم التاكسي بشكل قليل قدر المستطاع، وعند إغلاق المواصلات العامة عندما نعود متأخرين، وحيث أن الظروف اقتضت هذه المرة التحرك بالتاكسي أغلب الأوقات ومعظمها، كانت تقتضى العدالة أن أتحمل أنا نصف التكلفة وهما النصف الآخر، أو أتحمل أنا ثلاثة أرباع التكلفة وهما الربع الآخر، إلا أنهما أصرا على أن هذا لن يحدث وأننا سنتعامل كما كل مرة في الظروف العادية، وهو أن تُقسّم التكلفة





على الثلاثة، وبالتالي تحملا هما ثلثي تكلفة الانتقالات بالتاكسي على مدار الرحلة وتحمّلت أنا الثلث فقط.

أثناء الاستفسار من موظفة الفندق عن كيفية الذهاب سألتها عن تلك الفكرة التي خطرت ببالي بالأمس، وهو استئجار مقعد متحرك. عرض الموظف أن آخذ المقعد المتحرك الخاص بالفندق وليس استئجارًا وإنما فقط بدفع مبلغ تأمين، وعند إعادة المقعد سليمًا أسترد مبلغ التأمين هذا، بالطبع وافقت وشكرته على عرضه الجيد، وشرعنا في إتمام الإجراءات المطلوبة، ولكنه عندما أحضر الكرسي وجدنا أنه ليس جيدًا بالشكل الكافي ولن يصمد للاستخدام في الطرقات، فشكرناه واعتذرنا عن قبوله، وسألته عما إن كانت هناك جهات يمكنني من خلالها تأجير مقعد وإعادته لاحقًا، أخبرنا أنه سيبحث الأمر ويخبرنا بالنتيجة عند عودتنا.

خرجنا بعد ذلك من الفندق، واستقللنا تاكسي ولم نكن بحاجة إلى لغة تُذكر، لأننا فقط قلنا "To the Kremlin" وهو معروف باسمه هذا حيث أن الاسم نفسه روسيَا، اصطحبنا الرجل بعدما اتفقنا على الأجرة وكانت ٥٠٠ روبل.

كانت هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها المدينة نهارًا، تعطيك انطباعًا أنها فعلًا جميلة، منظمة، مهندمة، تسير كالساعة، والكثير من طرق موسكو عبارة عن شارع مفتوح متعدد الحارات المرورية، وبشكل عكسي دون وجود فاصل من رصيف أو ما شابه، والكل يسير بانتظام دونما أخطاء أو حوادث.

الطابع المعماري للمدينة متحضر، بأبراج لطيفة الشكل ومتعددة الطوابق، هذا جنبًا إلى جنب من مبانٍ ذات طابع تاريخي في معمارها. بالطبع حاولنا التواصل مع السائق ومعرفة أي شيء عن هذه المباني التي لفتت انتباهنا، إلا أننا لم نصل إلى شيء باستثناء مبنى ظنناه وزارة الدفاع حيث قال السائق كلمة تشبه كلمة "Military"والتي تعنى جيشًا أو عسكريًا - الذي هو تحفة معمارية معبرة عن جوهر المكان فعلًا وعن كونه قلعة مُهابة. كان هذا الإعجاب مجرد إعجاب بالمبنى وليس بسياساته القذرة والتي نرى أثرها الموحش والغاشم في سوريا الجريحة.

سرنا في طريقنا إلى أن أوصلنا السائق إلى مكان وأخبرنا أن هذه هي النهاية وأننا وصلنا، نظرنا حولنا ولم نجد أثرًا للكرملين ذلك الذى نراه في التلفاز!

أين هو؟ أين نحن؟





ظل الرجل يقول جملًا روسية لم نفهمها، ولكننا فقط فهمنا من لغة الجسد والإشارة أنه علينا السير بعض الشيء لأن الطريق مغلق اليوم، "من أولها كده مشي! طيب وإحنا واخدين تاكسي ليه حضرتك؟" هذا ما دار بعقلي.

نزلنا من التاكسي وبدأنا السير في الاتجاه الذي وصفه السائق لنا، بعد قليل من السير أدركنا بالفعل أن الطريق مغلق لوجود مارثون للجري، حيث كان هناك مشتركون من كافة الأعمار والفئات وهناك مشجعون في أجواء احتفالية مبهجة بالفعل. بسبب هذا المارثون الجذاب والآمن كان انطباعنا عن المكان والمدينة جميل للغاية، يبدو أننا في بلد مُحبّة للرياضة والجمال ومبتهجة دومًا تعقيدات أو تلك الصورة النمطية أو ال Stereotype التي نراها دومًا عن الروس في الأفلام الأمريكية، والتي تصورهم في شكل تجار المخدرات والمافيا وحاملي السلاح.

الشرطة بالطبع في كل مكان، أفراد مترجلون لا يحملون سلاحًا، فقط عصا وصاعق كهربي، ويبدو أن السلاح يتواجد فقط في سيارات الشرطة وليس مع الأفراد. تواجدهم مكثف، كل ثلاثة أمتار تقريبًا بطول طريق المارثون، الذى كان بالفعل طويلًا والذى سرناه وكأننا مشاركين فيه ولكن على الرصيف. عند منتصف الطريق كانت يدي في حالة يُرثى لها، وكانت تؤلمني أشد الألم، تسألني يدك وليست قدمك؟ أجيبك نعم يدي، حيث أنني أستخدم العكاز متكئًا بيدي على مقبضه بدلًا من السير بقدمي المصابة، وبالتالي كان جزء من وزني "الخفيف بالمناسبة والحمد لله" تحمله يدي، والتي أصبحت في ألم رهيب. بالطبع جلسنا كل بضع دقائق من السير على أحد المقاعد العامة المخصصة في الطريق لذلك، أو بعض الأجزاء الإسمنتية من الأحواض الزراعية المنتشرة بطول الطريق.

بعد قرابة الساعة إلا الربع من السير أصبحنا على مشارف الساحة الحمراء أو الميدان الأحمر [١١] والذي اعتقدنا جهلًا أنه الكرملين، وهنا سجلنا أول

---

[١١] الساحة الحمراء: هي الساحة الأكثر شهرة في موسكو، وهي على شكل مربع يفصل الكرملين، القلعة الملكيّة السّابقة والمقر الرسمي لرئيس روسيا حاليًا. الميدان الأحمر يُعْتَبَر في كثير من الأحيان الميدان المركزي لموسكو وكل روسيا؛ اسم الميدان الأحمر لم يشتق لا من لون الطوب حوله ولا من الرابطة بين اللون الأحمر والشيوعية، يعتقد أن التسمية تعود إلى كون الكلمة الروسية كراسنيا يمكن أن تعنى إما أحمر أو جميل، أو لأن ايفان الرابع أقام فيها مذبحة عظيمة بسبب وفاة زوجته، ولذلك سُمِّيت الميدان الأحمر؛ ووفقًا لويكيبيديا



مقطع فيديو لنا خلال هذه الرحلة وهو مقطع لن يُنسى بالنسبة لنا، حيث حمل من خفة الدم من الأخوين فوزي وكذلك العرفان مني للأصدقاء، حيث أن جزءاً كبيراً من الفضل في سفري معهما ووجودي في هذه اللحظة بموسكو بجوار الساحة الحمراء يعود إليهما بعد التوفيق والكرم من الله عز وجل.

ثم أكملنا المسير، حيث تجد بعض الباعة بأكشاك صغيرة أنيقة مختلفة جذرياً عن مفهومنا عن الأكشاك في مصر، يعرضون منتجات يُقبل عليها السياح القادمون إلى روسيا، مثل قبعات الفراء الشهيرة والتي هي مُصنّعة خصيصًا لشتاء روسيا القارس، وكذلك الكابات العسكرية المتنوعة من أول باريه الجنود أثناء الحرب العالمية الثانية إلى كابات الضباط في تلك الحقبة والتي يبدو أنها تستهوى الروس بشكل عام والسياح بموسكو بشكل خاص وتجد إقبالًا كبيراً على شرائها.

ثم أكملنا المسير واكتشفنا أننا عبرنا من بوابة كبيرة، أصبحنا بالفعل حينها داخل الساحة الحمراء، حيث على يسارنا كنيسة (كازان) وعلى يميننا المتحف التاريخي الوطني، وعلى امتداد جهة اليمين يوجد سور طويل وكبير آخره إحدى بوابات قصر وساحة الكرملين، يقف عليها حارسان متأنقان في ملابسهما العسكرية وانضباطهما أمام جمع غفير من الناس، وأمامنا مباشرة ذلك المبنى الذى ضللتنا به قنوات التلفزيون لسنوات وسنوات في نشرات الأخبار على أنه الكرملين، ولكنه لم يكن "الكرملين ولا حاجة " وإنما كنيسة أو كاتدرائية (سانت باسيل) ذات القباب التسعة الملونة بألوان زاهية، أما الكرملين فهو على يمين تلك الكنيسة من جهة البوابة التي عبرناها.

نأتي هنا للوصف الخاص بحالتنا نحن، منبهرون وسعداء فهذه هي أول مرة لنا في ميدان ذو طابع أوروبي، حيث كانت كل الجولات السابقة آسيوية الطابع، ضخامة الميدان ونظافته، عدد السياح الموجودين وكثرتهم، وكثرة وتعدد الأماكن التي من الممكن أن تقضى أوقاتك بها في هذه الساحة المبهرة، حيث أنك في كل الأحوال لن تستطيع أن تنتهي من زيارة الكرملين والساحة الحمراء في يوم

الميدان نفسه حوالي ٣٣٠ مترًا (١١٠٠ قدمًا) للطول و ٧٠ مترًا (٢٣٠ قدمًا) للعرض.



واحد، كل هذا جعلنا بالفعل منبهرين، إنها أوروبا يا سادة، ولأوروبا سحرها حتى وإن كانت الشرقية، وحتى وإن كانت البلد آسيوأوروبية، صحيح روسيا قد يُصنفها البعض على أنها المنطقة غير المتحضرة بأوروبا، أو كما يقولون "غجر أوروبا"، ولكن لأن بيننا وبينهم سنوات ضوئية فكانت هذه التي "يستعر" منها مواطنو أوروبا الغربية هي قمة الرقي والجمال.

بدأنا بمتحف الدولة التاريخي، وهو عن تاريخ روسيا القديم، الملابس ونمط الحياة ذاك الوقت وغير ذلك من الأمور التي تعطيك صورة مقاربة لعصر لم تشهده في مكان لا تعيش به.

الدخول إلى حيث الساحة الحمراء نفسها مجاني دون تذاكر، بالرغم من أنه صراحة يستحق أن يكون هناك تذاكر للدخول، أما دخول المتحف فكان بتذكرة بالطبع ولم تكن بمبلغ كبير، استمتعنا بالوقت الذي قضيناه في المتحف والذي حرص الأخوان فوزي على ألا يكون طويلًا حتى أستطيع الجلوس والراحة.

أنهينا تلك الزيارةِ ثم دخلنا إلى الكنيسة المقابلة، وتُدعى كنيسة كازان المنتعشة، وهي صغيرةٍ حجمًا، ذات قبة صغيرة الحجم ذهبية اللون يعلوها ساري يعلوه صليب، وتقريباَ كل السائرين بميدان الساحة الحمراء يدخلونها، المسيحيون منهم - وهم الأغلبية - للصلاة والتبرك، وغير المسيحيين يدخلونها للمشاهدة والاطلاع. وحدث أن دخلناها ثلاثتنا وقت قداس للصلاة أوشك على الانتهاء، حينها قام القس بالطواف في أرجاء الكنيسة الصغيرة على جموع المصليين المتواجدين – ونحن بينهم – حاملا مبخرة مرتلاً بعض الصلوات. حينها حاولنا التراجع والخروج، ولكن لضيق الكنيسة وتواجد المصليين لم نتمكن من المغادرة إلا بعدما بخرنا القس بالفعل!

غادرناها وسرنا باتجاه "سانت باسيل" والكرملين الذى وجدنا ساعته تعلن عكس ما تقوله ساعتنا، حيث إن ساعة الكرملين كانت تعلن أنها الواحدة والربع، في حين أن ساعتنا – التي ضبطناها مستخدمين الهواتف الذكية التي لم تكن ذكية كفاية حينها - كانت تقول أنها الثانية والربع، لم نعلم سبب هذه "اللخبطة" ولكننا سعدنا بها حيث يعني هذا أننا ربحنا ساعة إضافية من الاستمتاع بتواجدنا في موسكو والساحة الحمراء والكرملين.



أثناء السير باتجاه "سانت باسيل"، وجدنا على يميننا مبنى ضخم مختلف معماريًا، ساحر، ويوحي بالغموض، ولم نكن نعلم ما هو، ولكن ما هي إلا لحظات وصحت فيهما قائلًا: "ده "Gum![١٢]، و (جوم) هذا هو أهم وأكبر وأعرق مجمع تجاري - مول- بروسيا، في الليل له إضاءات أخاذة، وكنت قد قرأت عنه أثناء البحث عن الأماكن التي يجب على السائح زيارتها.

سبق لنا زيارة "دبي" وهي مدينة تشتهر بمجمعاتها التجارية المبهرة، وهي حقًا كذلك، فالتنافس المعماري في "دبي" في مجال المجمعات التجارية هذه على أشدّه، باختصار "كل مول أنقح من الثاني"؛ وحقيقة أصبح الانبهار بأي مول بعد زيارة "دبي" أمرًا ليس هينًا أو سهلًا، ولكنه حدث مع (جوم) حيث أعجبنا إلى حد الانبهار، فهو مجمع تجاري ذو طابع مختلف وفريد عن غيره. المجمع طابقان بالإضافة إلى الطابق الأرضي، سقفه شبه بانورامي، وبالتالي يسمح بدخول ضوء النهار، توجد بالطابق الأرضي منه جداريات موزعة على مساحته، متاحة للجمهور أن يضع بصمة ما عليها، كأن يكتب أو يرسم أو يلون، وهي فكرة جيدة تجعل السياح سعداء من ناحية، وتحافظ على الأماكن العامة من العبث، حيث هذا المكان مصرح لك أن تكتب "أحمد بيحب منى" أو "فرحة توتة ومادو" وما إلى ذلك من الأشياء التي نراها أحيانًا مكتوبة على أعمدة أثرية للأسف، وبالفعل وضعنا بصمتنا نحن الثلاثة على إحداها، وبالتالي أصبحت لنا ذكرى بـ(جوم) الشهير الجميل بميدان الساحة الحمراء.

قضينا بعض الوقت بالمجمع التجاري، وتناولنا أول وجبة لنا في شوارع موسكو. عادة ما كان الطعام يشكل لي أزمة خارج مصر، حيث لا أجد نفسي منفتحًا على تذوق وتجربة المطعم الخاص بكل البلدان التي أزورها، لكن صراحة روسيا كسرت لدي هذه القاعدة، فكان أول مطعم وجدناه في جوم يعرض أصنافًا من الطعام المختلفة والمتنوعة، والأمر أشبه بال "Open Buffet"حيث تختار الطعام الذى لفت انتباهك، إما لسابق معرفتك به أو بمكوناته وطريقه إعداده،

---

[١٢] Gum: يمتد بواجهته الجذابة على مسافة ٢٤٢ م طولًا على طول الجانب الشرقي للميدان الأحمر.كان جوم مركز التسوق الرسمي في موسكو أثناء الحقبة السوفيتية، لذلك يعتبر من أكثر المراكز التجارية شهرة فيها .اكتمل بناء هذا المجمع والذي يتكون من عدة أروقة أسفل سقف زجاجي في عام ١٨٩٣ ويقع في ثلاثة طوابق، ضم أكثر من ١٢٠٠ متجرٍ وكشك، يعتبر التصميم الرائع للمجمع وطرازه المعماري الفريد عنصر الجذب الرئيسي للزوار.



أو لأنه جذبك حيث أن العين تأكل قبل الفم أحيانًا - كما يقولون-، تضع الكمية التي ترغبها، وتشكل أطباقًا صغيرة من أصناف متعددة، وتذهب إلى حيث الكاشير حيث يتم وزن هذه الأطعمة ومحاسبتك طبقًا للميزان.

اخترنا مكرونة تبدو أنها بالطريقة الإيطالية، وكذلك قطع من البطاطس، وهي قطع على هيئة مكعبات من البطاطس المشوية بقشرها مضاف إليها الملح وبعض البهارات والتوابل الأخرى التي تمنحها مذاقًا شهياً، وأعتقد أن هذه الأكلة عنصر هام على المائدة الروسية، حيث وجدناها في كل المطاعم، وتقريباً لم تخل وجباتنا منها معظم الوقت. تناولنا الطعام الذى كان بتكلفة مقبولة جدًا، والتقطنا بعض الصور هناك، وغادرنا إلى حيث كاتدرائية "سانت باسيل" [١٣]، التي يظنها الكثيرون خطئًا – وكنا منهم- أنها هي قصر الكرملين.

ذهب محمود ووقف بالطابور لشراء ثلاثة تذاكر لدخول الكاتدرائية، وهو أمر عجيب وغير معتاد أن يكون دخول دار عبادة حتى وإن كانت معلماً سياحياً برسوم زيارة، ربما يكون الحال كذلك مع كاتدرائيات أوروبا مثل كنيسة "نوتردام" الشهيرة بفرنسا، لا نعلم حتى الآن حيث لم نخطو لأوروبا الغربية بعد.

حصل محمود على تذكرة واحدة مدون عليها أنها لثلاثة أشخاص، لم أسعد بهذا حيث أرغب في الاحتفاظ بتذاكر الأماكن السياحية التي أقوم بزيارتها، ولكن لأن محمود هو من وقف في الطابور كما أنه هو وشقيقه في نفس ذات التذكرة أصبح من الموضوعي والعادل أن يحتفظا هما بهذه التذكرة، ولذلك عزمت فيما هو قادم أن أقف لأحصل على تذكرة منفصلة ما إن كان الطابور قصيراً ويسهُل احتمال الوقوف انتظارًا.

---

[١٣] كاتدرائية سانت باسيل: هي كاتدرائية تقع في الميدان الأحمر من موسكو، بالقرب من الكرملين، تميزها قباب بصلية الشكل ذات ألوان مبهجة، وتعتبر أشهر المباني في روسيا، وهى رمز دولي لمدينة موسكو، وسميت بهذا الاسم لأن الشعب الروسي والقيصر كانا يحبان القديس باسيل، بدأ العمل في الكاتدرائية بتكليف من إيفان الرابع المعروف بإيفان الرهيب للمهندس المعماري بوستنك ياكفلوف واستمر العمل بها من1555 وحتى 1561 م وتقول بعض الروايات أن الإمبراطور إيفان فقأ عين المهندس ياكفلوف كي لا يبنى مثل هذه الكاتدرائية مرة أخرى .

لمدخل الكاتدرائية درج مرتفع ومرهق حتى للأصحاء، استندت على محمود وعكازي وصعدته ببطء، ودخلنا إلى حيث الكنيسة من الداخل، والتي أعتقد أن وصف كنيسة ربما يكون أنسب حيث أن اعتقادي أن الكاتدرائيات متسعة وكبيرة وضخمة مثل الكاتدرائية المرقسية بالعباسية هنا في مصر، أو كاتدرائية مارجرجس المارونية ببيروت، لكن سانت باسيل لم تكن ضخمة كما هؤلاء وغيرهم، صحيح هي نسبياً متسعة، لكنه اتساع عادي نراه في كثير من الكنائس ولا يجعل منها كاتدرائية [١٤] من وجهة نظري.

وجدنا هناك مجموعة من السياح ومعهم مرشدة سياحية تطوف بهم أرجاء المكان، فسرنا خلفهم لنستمع إلى ما تذكره من معلومات خاصة وأن هذا يحدث بالإنجليزية وبالتالي الأمر فرصة.

بعد التجول بالكنيسة وطوابقها، سمعنا أصواتًا أخّاذة وعالية وكأنها تستخدم نظام هندسة صوتية ما، تتبعنا مصدر الصوت ووجدنا أنهم مجموعة من المرنّمين داخل غرفة بها تجاويف في بنائها وسقفها مرتفع تماماً إلى حيث القباب التسعة للكنيسة، وهذا ما يجعل صوتهم "مجلجل" وكأنهم يستخدمون ميكروفونات وأدوات هندسة صوتية.

داخل هذه الغرفة توجد مقاعد خشبية يجلس عليها الناس للاستماع إلى الترانيم ومشاهدة الأداء الجميل، دخلنا وجلسنا واستمعنا حتى انتهوا من أداء إحدى الترانيم، وحاول محمود التقاط مقطع فيديو لهذا المشهد ونجح بالرغم من أن التصوير كان ممنوعًا، وبانتهاء أدائهم وجدنا أن المجموعة السياحية التي كنا نتبعها في البداية، واقفين خارج الغرفة لامتلائها بالحضور، وأن المرشدة تخبرهم وتخبر من بالغرفة أيضًا أن هذه الترانيم متاحة على أسطوانات CD وأخبرتهم بالسعر فإن أرادوا اشتروها، وصراحة هي للمسيحيين تستحق الشراء، فأصوات المرنمين جميلة جدًا والصوت واضح، وإن كنت لا أعلم هل تم تسجيل هذه الأسطوانات بهذه الحجرة المجوفة؟ أم باستديو خاص بالصوتيات.

---

[١٤] بالبحث عرفنا أن الكاتدرائية هي كنيسة مسيحية تستخدم كمقر لمطران الإبراشية، وهي كلمة يونانية مشتقة من (كاثيذرا) والذي يترجم إلى "كرسي" ويشير إلى وجود كرسي أو عرش المطران وبالتالي لا ترتبط بالحجم.



أكملنا بعد ذلك جولتنا بالكنيسة، وكنا في الطابق الثاني، وكنا نقف ناحية النوافذ التي تمنحك صورة واضحة للساحة الحمراء وإطلالة فريدة على سور الكرملين [15] بساعته الشهيرة والحرس أسفل منه، ذلك السور وهؤلاء الحرس الذين رغبنا في أن نشاهد نوباتجية تغيّرهم عن قرب، وهو ما كنا نعلم أنه يحدث كل نصف ساعة، وأنه بمثابة العرض العسكري المصغر للغاية والذى يجذب السائحين لمشاهدته وتصويره. ولما كانت الساعة حينها قد أصبحت الرابعة والربع آثرنا مغادرة "سانت باسيل" والسير في اتجاه سور الكرملين وساعته، وصلنا قبل انتصاف الساعة الرابعة، حينها وجدنا اثنين من الحراس بمظهر عسكري منضبط، وقفازات بيضاء ناصعة، يمسكون بنادق وفى وضع ثبات صارم غير مكترثين بذلك الكم من البشر الواقف أمامهم يصورهم ويلوح لهم بالتحية.

وما إن دقت الساعة الرابعة والنصف حتى كانت أجراس الكرملين تعلن عن موعد تغير الحرس، فنجد ذلك العرض العسكري المصغر قوامه ستة أفراد اثنان هما الحرس الذي أنهى وقت خدمته بالفعل، واثنان آخران يتسلمان منهما النوباتجية، واثنان أعلى رتبة للتتميم على مراسم التسليم والتسلم، يتحركون بخطوات عسكرية جميلة وباستعراض لمهارتهم في تحريك السلاح باليد، ثم يقف كلًا منهما في المكان المخصص له ويذهب باقي الحرس للاستراحة، وهكذا دواليك كل نصف ساعة.

جلسنا بعد ذلك لبعض الوقت على أحد الأرصفة بالساحة الحمراء نتحدث عن أمور كثيرة، كيف هو رائع ذلك الطابع الأوروبي للميدان، وكم نحن سعداء، وقارنّا سعادتنا لوجودنا بذلك الميدان الفسيح الكبير وبين شيء لم نره لأننا لم نزره بعد وهو ساحة برج إيفيل الشهير بباريس، هل سيكون انبهارنا بها وسعادتنا وقتها بذلك الحد؟ هل سيترك برج إيفيل لدينا نفس الانطباع الذى تركته ساحة الكرملين أم أروع من ذلك أم أقل روعة؟

---

[١٥] الكرملين: كلمة روسية معناها القلعة أو الحصن، وتطلق هذه الكلمة اليوم على مركز موسكو القديم بمبانيه وهو محاط بجدار ضخم طوله ميلان ونصف وارتفاعه ٦٥٥ قدمًا، ويضم الكرملين عدة قصور فاخرة كانت قديمًا ملكًا للقيصر ورجاله قبل أن تتحول إلى متاحف.





كل هذه الأسئلة ستبقى بلا إجابة حتى يتحقق لنا زيارة مدن أوروبا الغربية وعلى رأسها باريس بعون الله.

سرنا بعد ذلك خارجين من الساحة الحمراء، حيث تُقابلنا بوابة كبيرة وهي التي عبرنا منها عند دخولنا الساحة أول اليوم، وهناك يتداول الروس أسطورة مفادها أن الأمنيات تتحقق إذا ما وقف المرء هناك وأعطى ظهره للكنيسة الصّغيرة إيفيرسكيا - وهي أقرب ما تكون لغرفة كبيرة من كونها كنيسة- وتمتم بأمنية وألقى بالعملة المعدنية وراء ظهره فتقع على الأرض ويسمع صوتها بنفسه.

وبمجرد أن يفعل السائح أو الشخص الروسي هذا الأمر سرعان ما يلتقط بعض العجائز الفقراء - وغالبيتهم من النساء - هذه العملات التي تقع أرضًا ويظللن يجمعنها هكذا إلى أن يغادروا بقوت يومهم، وهي حصيلة جيدة مع مرور الوقت، شاهدنا ذلك الأمر ولم نشارك فيه، حيث أن قناعتنا أن الأمنيات يحققها الاجتهاد والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

تقع الساحة الحمراء بجوار إحدى محطات المترو، وكنا نسمع الكثير والكثير عن مترو موسكو، وأنه أيّة في الفن والروعة والجمال، وأنك خاسر بالقطع إذا ما زرت موسكو ولم تستخدم المترو بها. بالتأكيد كنا نرغب في خوض التجربة ولو لمرة، فنحن نتحدث عن مترو عريق يربط بين قرابة المائتي محطة بمسافة طريق ضخمة تصل إلى ثلاثمائة ثلاثة وثلاثين كيلومتراَ تحت الأرض، وهو أول نظام سكة حديد تحت الأرض بالاتحاد السوفيتي.

ولكن كانت القضية في أننا لا نعلم أي محطة علينا أن ننزل فيها، وأي خط نستقل أصلًا، ومع هذا قررنا خوض التجربة عملاً بالمثل القائل "اللي يسأل مايتهش" بالرغم من أن هذا المثل في مصر ضال ومُضلل حيث كثيراَ ما نسأل ونتوه.

دخلنا إلى المحطة مستندًا على محمود كالعادة في نزول وصعود الدرج، وذهبنا إلى شباك الاستعلامات وشراء التذاكر، وأخرجت كارت الفندق الذى كان معي ومدون به العنوان لعل الموظفة عندما تراه تستدل أي محطة يتوجب علينا النزول بها وأي خط نستقل، ولكن للأسف كان العنوان المدون على كارت الفندق بالإنجليزية فقط ولم يكن مدونًا بالروسية، وقفت أمام الموظفة وببعض الإشارات وبمد يدي من الشباك الذى يفصل بيني وبينها مانحًا إياها كارت الفندق مشيراَ



إلى عنوانه مكرراً في إنجليزية ببلاهة "أنني أريد أن أنزل في المحطة التي تقع بالقرب من هذا الفندق"، وهي بالطبع لا تفهمني، وعندما فشلنا في التواصل ووجدت نفسى معطلًا الطابور، خرجت من الصف وذهبنا بجوار الخريطة وحاولنا فك طلاسمها عبثًا، ولمّا لم نتمكن من الوصول إلى أي معلومة ذهبنا وسألنا إحدى السيدات التي كانت على وشك شراء تذكرة، وتحدثت معها بالإنجليزية التي لا تفهمها للأسف ممسكًا بكارت الفندق مشيراً إلى العنوان بيد وبالأخرى إلى خريطة المترو لنعلم أي محطة يتوجب علينا النزول.

لم تستسلم السيدة وتعلن عدم معرفتها الإنجليزية ومن ثم تذهب إلى حال سبيلها، بل أمسكت بهاتفها واستخدمت الإنترنت ثم انضمت لها سيدة أخرى لا تعرفها ولا تعرفنا بالقطع وشكلّا سوياً لجنة بحث إلى أن اتفقتا على خط بعينه ومحطة بعينها، "للأسف لم أدونهم" فذهبنا إلى مكتب التذاكر مرة أخرى، وحجزنا ثلاثة تذاكر ونحن نعلم هذه المرة وجهتنا، وجدير بالذكر أن المترو يُعد وسيلة مواصلات موفرة هناك وبالتأكيد أرخص من استخدام التاكسي، حصلنا على تذاكرنا واستخدمنا السلم الإلكتروني للنزول إلى الرصيف، ولفت انتباهنا عمق المترو تحت الأرض، حيث أعتقد أن هذا السلم الإلكتروني هو الأطول من نوعه سبق وأن شاهدنا مثله، والملفت أيضًا أنه قديم بعض الشيء، وأن الحوائط عادية وملونة باللون الأبيض ولا رسوم أو نقوش أو ديكورات فنية مثل مترو دبي - ذلك التحفة المعمارية الحديثة والتي هي بالمناسبة أجمل من مطارنا القديم المعروف باسم مطار ١- .

عند أرصفة قطارات المترو تجد ذلك الطابع المختلف والذي يميز المترو الروسي ويجعله حكاية بين الناس، حيث بعض الثريا "النجف" المعلق بالسقف والممرات التي تعطيك انطباعًا أنك داخل قصر تاريخي قديم وليس محطة مترو، أما المترو نفسه فتقريباَ هو لا يختلف عن مترو مصر في شيء، فلا يوجد بوابات أمان تمنع حوادث السقوط أو الانتحار أو حتى "هزار الأصدقاء بالتدافع" على رصيف المترو، القطارات نفسها قديمة وبالطبع العربات أيضًا، وبعضها يعطيك انطباعًا أنه متهالك، ويبدو أننا لم نكن بوقت الذروة فتمكنا من الجلوس وتفقد الوجوه الروسية من حولنا، كنا في قمة الانتباه حتى لا نغفل المحطة التي يتوجب

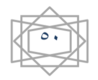


علينا النزول بها، حيث لا يوجد نظام صوتي للإعلان عن المحطات القادمة كما المترو في سنغافورة وتركيا و دبي.

وبالفعل وصلنا إلى المحطة التي أخبرتنا بها السيدتان المتعاونتان، وسرنا في طريق الخروج وأثناء هذا وجدت لوحة بها أزرار أو للدقة اثنين أحدهما مكتوب عليه بالإنجليزية والروسية كلمة "Information" أي معلومات، والآخر كلمة "Help" أي مساعدة فرغبت أن أتأكد من أي بوابة يتوجب علينا الخروج حتى نكون على مقربة من الفندق ولا نضطر للسير كثيراً حيث إن طاقتي كانت قد أوشكت على النفاذ، فضغطت على زر مساعدة، فأتانا صوت عبر سماعة لسيدة تبدو أنها ترانا من حيث لا نراها "جالسة بغرفة تحكم يعني" بدأت أتحدث سائلًا عن الاتجاه ولم تصبر حتى أنهي كلامي بل قاطعتني على الفور مكررة "No English،No English" شكرتها وانصرفت ونحن نتساءل " لمّا هو نو إنجليش يا شيخة كاتبين كلمة مساعدة بالإنجليزية ليه؟" وظل سؤالًا دونما جواب.

بعد الصعود بالسلم الإلكتروني والسير، وصلنا إلى خارج المترو وانتهت تجربتنا معه بسلام، عبرنا الطريق وسرنا قليلًا إلى أن وصلنا إلى الفندق وقد عزمنا على ألا نعود لمثلها "أي لاستخدام المترو" مجددًا، أولًا حتى لا أضطر للسير كثيراً، وثانياً لأننا لم نكن على استعداد لخوض المزيد من تجارب الضياع والتيه وسؤال المارة الذين لا يتحدثون الإنجليزية، كان بالطبع من الممكن التغلب على هذه النقطة من الفندق قبل المغادرة بأخذ خريطة المترو وأسماء المحطات التي ينبغي لنا التوقف بها خلال زيارتنا للأماكن التي نرغب أن نذهب إليها، أو حتى باستخدام تطبيقات التكنولوجيا الحديثة مثل تطبيقات الترجمة الصوتية من الإنجليزية إلى الروسية مثل Google translator، ولكننا وخاصة الأخوين فوزي فضلنا استخدام التاكسي بحثًا عن راحتي.

صعدنا إلى الغرفة وتناوبنا على الاستحمام، وقبل ذلك سألت موظفة الاستقبال عن أمر الثلاجة التي استخدامها مقابل مال هذه، فأوضحت أنه ليس مقابل مال ولكنه بدفع مبلغ تأمين وهو خمسة آلاف روبل وإذا انتهت إقامتنا ولم نستخدم أيًا من المنتجات الموجودة داخلها من مياه معدنية ومشروبات غازية وكحولية وشوكولاتة وغير ذلك يتم استرداد المبلغ كاملًا، وبالطبع إن





استهلكنا أيًا من هذه المنتجات يتم خصم سعره- وهو عادة ما يكون "سعر سياحي" بالمناسبة أي أضعاف السعر الأصلي لنفس المنتج بالأسواق – من مبلغ التأمين، هكذا اتضحت الرؤية، وطبعًا دفعنا المبلغ المطلوب وتم فتح الثلاجة وأصبح بإمكاننا استخدامها، فوضعنا بها الأجبان التي كانت ما تزال معنا رفيقة للدرب والعصائر والمنتجات التي تسوقها الأخوان فوزي من السوبر ماركت المجاور للفندق.

لم ننم، جلسنا نتحدث قليلًا محاولين وضع خطة حتى لا تضيع منا أوقات كما حدث في بعض الرحلات السابقة، ورغبنا في أن نشاهد فيلم سينما كما هي عادتنا في السياحة الليلية، فالنهار للتاريخ وعبقه، والليل للمتنزهات والمجمعات التجارية والسينما، أي للمدنية الحديثة.

ارتدينا ملابسنا وكان الجو قد أصبح باردًا بعض الشيء ويبدو أنها عادة الطقس بموسكو أنه بالنهار شيء وبالليل شيء آخر تقريباَ كما الطقس في صعيد مصر "على حد سمعي لا تجربتي". أخذنا الجواكت معنا وسألنا في الفندق عن مكان أقرب سينما لنا تقدم أفلامًا أمريكية، فكانت المفاجأة أن كل دور العرض تقدم وتعرض أفلامًا أمريكية بالفعل، ولكن كما هو الحال في التلفزيون الذى وجدناه بغرفتنا تكون هذه الأفلام مدبلجة للغة الروسية ودون ترجمة مكتوبة حتى للغة الإنجليزية الأصلية للفيلم، وبسؤال الموظف ألا توجد استثناءات من هذا الوضع العجيب؟ فأخبرنا أنه بالفعل توجد بموسكو دار عرض واحدة وحيدة هي التي تعرض الأفلام الأمريكية كما هي بلغتها وهى دارPioneer ومنحنا عنوانها مدونًا بالروسية على قصاصة ورق، فخرجنا واستوقفنا تاكسي ومنحناه العنوان وسرعان ما انطلق إلى هناك. كانت الساعة تقريباَ الثامنة عندما غادرنا الفندق والثامنة والثلث عندما وصلنا للسينما حيث أقلنا السائق إلى حيث مبنى لا يبدو عليه إطلاقًا أنه سينما وقال إن هذا هو العنوان، سألناه بإنجليزية - تنسى أو تتناسى حقيقة أنهم لا يعرفونها ولا يتحدثون بها - هل هذه سينما وأفلام على اعتبار أن الكلمتان عالميتان ومتداولتان في لغات شتى Cinema & Film Movie فأجاب محركًا رأسه أنها "kino" وهذه الكلمة باللغة الألمانية تعني سينما بالفعل وربما هي كذلك بالروسية، فتركنا التاكسي نصف مطمئنين، ودخلنا إلى حيث المكان وسألت الفتاة بمكتب الاستقبال "هل هنا سينما" ففهمت السؤال وأشارت إلى



شاشة عليها الأفلام المتاحة للعرض ومواعيد عرضها، ووجدنا أن هناك فيلمًا سيتم عرضه في التاسعة مساءً، أي بعد فترة قليلة من الانتظار، كما أنه من بطولة سلمى حايك "وماتفهمنينش غلط" فـلـسلمى أفلامًا جيدة بعيدًا عن تلك الأفلام "اللي بالي بالك" فاخترناه وكان بعنوان Tale of Tales.

وفي تمام التاسعة كنا بالفعل داخل قاعة العرض أو هكذا تبدو- ولكن المكان إجمالًا أشبه بمركز ثقافي كما المركز الثقافي الإيطالي بالزمالك لدينا بالقاهرة أو المركز الثقافي الألماني جوته - يعرض شيئًا غير مألوف لا دار عرض سينمائي.

بدأ العرض "ويا ريته ما بدأ" واستمر ساعتين حيث وجدنا أنفسنا أمام الفيلم الأكثر سوءًا ومللًا سبق وأن شاهدناه في حياتنا وأجمعنا على هذا، وبقى هذا الفيلم بين ثلاثتنا معيارًا كلما شاهدنا فيلمًا سويًا ولم ينل رضانا بالشكل الكافي نجد أنفسنا نقول "أهو أحسن من Tale of Tales" "وعلى فكرة "لم يكن لسلمى حايك أية مشاهد ساخنة أو غير محتشمة بالفيلم على الإطلاق، بل ستندهش عندما تعلم أنها ظهرت حرفيًا بالوجه والكفين فقط لا غير، وكانت المشاهد إياها من نصيب ممثلات أخريات؛ الخلاصة أن الفيلم لم يكن لا قصة ولا حتى "مناظر" بل كان شيئًا ثالثًا لا علاقة له بالسينما التي نحب، ولا ندري ماذا كان غرض ذلك المبدع كاتب السيناريو من القصة أو لماذا هذا أصلًا فيلم.

انتهى العرض وغادرنا القاعة، وشرعنا في الخروج للشارع تاركين ذلك الـpioneer، ولكننا فوجئنا أن السماء تمطر بالخارج، فبقيت أنا وأحمد بالداخل ننعم بالدفء بنظام التدفئة الموجود بالمكان عبر مواسير الغاز الطبيعي وأجهزة التدفئة القديمة، وخرج محمود ليستوقف لنا تاكسي ويقربه من باب السينما وهو ما تمكن من فعله بعد وقت قليل. استقللنا التاكسي الذى سار بنا وسط أجواء مطيرة باردة ولكنها جميلة، ولاحظنا هنا للمرة الأولى أن المحال عندما تُغلق أبوابها، تترك الإضاءات تعمل فتشعر وكأنك في مدينة لا تنام "يبدو أنهم لا يعانون من أزمة طاقة"، هذا وقد كانت المحال قد أغلقت والساعة لم تتجاوز الثانية عشر من منتصف الليل، كما لاحظنا تلك السيارات الضخمة الأنيقة التي تجمع القمامة في المساء وهي ذات أنوار قوية خاطفة للعين، وهي تعمل في صمت.

وصلنا الفندق بعد ذلك، وتناولنا وجبة عشاء سريعة من الأجبان إياها منهيين بها يومنا الثاني بحساب التاريخ والأول فعليًا لنا بموسكو الجميلة.



٥- يوم حلو.. "ناس طيبين أوي يا خال"

استيقظنا في صباح اليوم التالي الاثنين ونحن عازمون على حسن استغلال الوقت ومن ثم اليوم بأكمله. تناولنا إفطارًا سريعًا من الأجبان التي ما تزال معنا محققة القاعدة الفيزيائية "المادة لا تفنى ولا تُستحدث من العدم" والخبز الذي اشتراه الأخوان فوزي من السوبر ماركت الليلة الماضية، ثم جهزنا أنفسنا وغادرنا الغرفة عازمين على إكمال زيارة الساحة الحمراء والتجول ومشاهدة ما لم نتمكن من مشاهدته بالأمس، حيث أننا تقريباً لم نشاهد سوى نصف منطقة الكرملين والساحة الحمراء حتى الآن. ونظراً لاضطرارنا للسير لبعض المسافات ولكون العكاز بطبيعة الحال غير مريح، فكانت فكرة استئجار مقعد متحرك ما تزال في عقلي، نزلنا إلى مكتب الاستقبال بالفندق وأعدت السؤال أو بالأحرى المتابعة، فوجدت فتاة روسية عملية للغاية ومتعاونة جدًا، صحيح أنها لم تكن ودودة كما تتطلب تلك المهن التي تجعلك في مواجهة البشر، إلا أنها وبعمليتها كانت مفيدة للغاية، وهذا هو المهم وهذا هو المطلوب.

أجرت الفتاة بعض الاتصالات الهاتفية باللغة الروسية ثم أخبرتني أنه بالفعل بإمكاني استخدام مقعد ولم تقل استئجار مقعد، حيث يوجد مكان أو هيئة ما تقدم هذه الخدمة وهي منح مقعد واحد يستخدمه مجانًا من يحتاج، ولكن فقط يتوجب عليّ دفع مبلغ تأمين يعادل تقريباً الثمانون دولارًا أمريكيا، ولي أن أستخدم المقعد كما شئت بعد ذلك لمدة شهر بأكمله وإن رغبته لفترة أطول من هذا عليّ إعادته لتلك الهيئة ثم استعارته من جديد لشهر آخر وهكذا دواليك، وأيضًا يحق لي الانتقال به في ربوع روسيا طولًا وعرضًا وبالتالي سيصبح بإمكاني أخذ المقعد معي عند مغادرتنا لموسكو والذهاب إلى سانت بطرسبرج.

صراحة سعدت بهذه المعلومة الجيدة، فهي تعني أن ميزانيتي لن يؤثر فيها استخدام المقعد حيث أن مبلغ التأمين سيتم استرداده كاملًا، كما أنه سينهي معاناتي في التحرك مستخدمًا العكاز، وبالتالي سيزيد من فرصتي ألا أتخلف عن تحركات الأخوين فوزي، وكان ما يزال في جعبة المفاجآت أمرا آخر، وهو أنه بإمكاني استلام المقعد من الفندق حيث سيأتون هم لتسليمه لي "ناس ذوق والله وطيبين أوي يا خال" هكذا قلت لنفسي.



ولكن بعد اتصال آخر بين الفتاة الروسية وتلك الهيئة أخبرتني باعتذار وأسف أنه ليس بإمكانهم توصيل المقعد إلى الفندق قبل السادسة مساء، ولكن إن أردت أنا فيمكنني الذهاب إليهم واستلامه من هناك. فضلت طبعًا ذلك الخيار حتى أتمكن من استخدامه خلال هذا اليوم، دونت الموظفة النشيطة بعض البيانات بالروسية في ورقة ومنحتها لي ومعها ورقة أخرى بها عنوان ذلك المكان بالروسية أيضًا كي أمنحها لسائق التاكسي، وأخبرتني أنه كل ما علي فعله هو أن أعطي هذه الورقة لأي شخص يقابلني هناك وسأستلم المقعد فور دفعي مبلغ التأمين وحصولي على إيصال بذلك، وأنه لن يكون هناك داع لأي تواصل من أي نوع خاصة وأنني لن أجد من يفهم الإنجليزية هناك، شكرت لها حسن صنيعها معي وتعاونها -وبالأحرى عطلتها حيث لأن كل هذا استغرق بعض الوقت، وكان نزلاء آخرون يأتون طلباَ للمساعدة أو الاستفسار عن أشياء وكانت تحيلهم للانتظار إلى أن يفرغ أحد الموظفين ويتمكن من مساعدتهم أو تنتهى هي مما تفعله معي.

ولأن هذا الأمر استغرق وقتًا كما أسلفت فكنت أخشى أن يصاب الأخوان بالضجر، وخشيت أكثر من هذا عندما أصبح من المنطقي الآن أن نذهب أولًا إلى حيث مكان استلام المقعد، كانت الساعة تقترب من الظهيرة، ونعتبر حتى الآن لم نبدأ يومنا بعد ولكن هذا لم يحدث "أي لم يبد عليهما الضيق".

غادرنا الفندق الكائن بشارع "شوشفسكى فال" واستوقفنا تاكسي ومنحناه ورقة العنوان، كان السائق على دراية من مظهرنا العربي أننا سياح، وكان يحاول التواصل معنا ولو بالإشارات ولغة الجسد والابتسامة التي لم تفارقه تقريباَ؛ بعد حوالي عشرين دقيقة وصلنا إلى المكان المنشود الذي لم يكن مشفى خاص أو عام، بل كان مؤسسة أشبه بال Nursery أو الحضانة، حيث يوجد بها بعض الأطفال وتوجد أيضًا عاملات شبيهات بالممرضات يرتدين معاطف ناصعة البياض، ذلك البياض الذى ينافس بياضهن شخصياَ وتوجد بعض المستلزمات الطبية، دخلنا وحييناهم بالإنجليزية ومنحت إحدى السيدات الورقة التي معي، والتي يبدو أن فيها تذكير من موظفة الفندق بما دار بينهما من حديث حول المقعد المتحرك الذي أريد، فوجدتها قد تركتني للحظات وذهبت وسرعان ما أتت بمقعد متحرك مغلف أنيق للغاية "لا جعلكم الله من مستخدميه"، ويبدو أنه



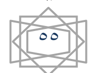
جديد تمامًا وليس مقعدًا يتم استخدامه المجاني من أناس مختلفين، أزالت الغلاف وطلبت مني بإشارة من يدها تدل على مال التأمين المطلوب، وكان خمسة آلاف وخمسمائة روبل، منحتها إياه ومنحتني إيصالًا بالروسية ولكنها أشارت إلى التواريخ موضحة أنه صالح حتى شهر من تاريخه ثم شرحت لي كيفية استخدامه، هنا جلست عليه وبدأ محمود بـدفعي للأمام.

جدير بالذكر هنا عدة أمور، أولًا شعوري عندما وجدتني على مقعد متحرك وأحتاج إلى المساعدة وكيف أننا نتعامل مع نعم الله علينا باستهتار وقلة تقدير وأنها من المُسَلَمَات "For Granted"، وتمنيت حينها أن أعود لمصر سالمًا وأقوم بإجراء الجراحة وأن تعود الأمور إلى ما كانت عليه حيث السير دون عكاز ودون مساعدة من أحد. الأمر الثاني، هو اهتمام الروس بالإنسان سواء كان مواطنًا أم لا؟ وكيف وفروا لي مقعدًا أكاد أجزم أنه بالفعل جديد تمامًا ولم يسبق استعماله من قبل دون مقابل سوى مبلغ ليس ضخمًا للضمان ليس أكثر، خاصة وأنني لم أكن أملك تأمينًا طبيًا، فعادةً ما يتم طلبه من بعض السفارات خاصة سفارات دول الاتحاد الأوروبي ليضمنوا لك أي خدمات طبية تحتاجها أثناء السفر، ولكن ليس على حساب دافع الضرائب لديهم، بل على حساب شركات التأمين.

وثالث ما كان جديراً بالذكر، أن سائق التاكسي اللطيف، وكنا قد عرضنا عليه أن ينتظرنا عندما أوصلنا ووافق دون أن يستخدم هاتفه المحمول في كتابة رقم جديد كأجر أو سعر لهذه الخدمة الإضافية وكنا قد اتفقنا على ٦٠٠ روبل تقريبًا.

غادرنا المكان ووجدنا السائق بانتظارنا، وساعد الأخوين فوزي في طي المقعد وإدخاله في حقيبة السيارة الخلفية، وهو الأمر الذي اكتشفنا معه أن الكرسي هذا أحيانًا سيكون عائقًا للحركة وليس معينًا عليها، حيث إنه ليست كل السيارات ستكون مثالية في حجم حقيبتها الخلفية وتتسع للكرسي.

ركبنا التاكسي من جديد وأوضحنا له أننا نرغب في أن نقوم بجولة نهرية حتى الكرملين، وكان معنا من الفندق ما يعزز الشرح، تحركنا بالسيارة بالفعل، حتى وجدناه يوقف السيارة بعد مسافة قطعها غير مسرع وكأنه يمنحنا فرصة لمشاهدة معالم المدينة، ثم نزل من السيارة وطلب منا النزول، لم نفهم ما الأمر





أو لماذا يفعل هذا، وماذا يريد، ظل يحاول جعلنا نسير للأمام حتى سور، لم نكن نعلم علام يطل، حاول الرجل مجتهدًا أن يفهمنا، ونحن لا نفهم، وبعد محاولات من التواصل وتشغيل الفهلوة المعروف أن المصريين "يلقطوها وهي طايرة" ولا أعلم لماذا لم نتمكن من لقطها؛ إذن وبعدما استخدم هو الإشارات ولغة الجسد فهمنا أنه يرشدنا سياحيًا إلى مكان يجب علينا كسائحين أن نزوره ونشاهده، فسرنا حتى وصلنا إلى ذلك السور فأصبح من خلفنا مبنى ضخم تاريخي مهيب يشبه القلعة، وعرفنا أن هذا المكان هو الجامعة بموسكو، وهي واحدة من أهم إن لم تكن هي فعلاً أهم الجامعات الروسية، وأمامنا تلال سبارو [١٦]، وسبق وكنت قد وجدت عنه بعض المعلومات أثناء البحث الذي أجريه عادةً قبل السفر إلى أي بلد ومنها أنه يستحق الزيارة لإطلالته الفريدة المرتفعة على موسكو والنهر.

وقفنا هناك سعداء ومنبهرين بسحر المنظر، حيث عادةً ما تمنحنا المناظر البانورامية تلك على مدينة أو مكان ما إحساسًا عجيبًا بالإحاطة بتلابيب المكان، ها هي نزهة كانت ضمن ما نعلم أنه يجب أن نفعله خلال إقامتنا بموسكو، وها هي تحدث بالصدفة البحتة. استمتعنا بالمشهد الجميل والتقطنا بعض الصور ومنها صورة للأخوين فوزي ومعهما هذا السائق النبيل ثم عدنا للتاكسي مرة أخرى الذي أوصلنا إلى بداية النهر، حيث توجد المراكب الصغيرة والعبّارات التي تطوف بالسائحين والروس - على حد سواء - بالنهر موصلة إياهم وإيانا لاحقًا إلى الكرملين ومحطة أخرى تليه إذا أرادوا.

أخذنا هاتف محمود ومنحناه للسائق ليكتب كم يريد الآن حيث أن اتفاق الصباح كان أجرة لمشوار واحد فقط من الفندق إلى المكان الذى استلمت منه المقعد، أما الآن وبعدما انتظرنا الرجل هناك ثم صحبنا إلى حيث التلال وبعدها إلى محطة ركوب العبّارات بالطبع سيختلف الاتفاق، ولكننا وجدناه يكتب نفس الرقم الذى سبق واتفقنا عليه ولم يضف أي زيادة، حاولنا أن نوصل له فكرة، أنك تستحق أكثر، ولكنه أصر على نفس المبلغ، منحناه إياه وحييناه باليد

---

[١٦] تلال سبارو: المعروفة أيضًا باسم تلال لينين، هي تلة على الضفة اليمنى لنهر موسكو وواحدة من أعلى نقطة في موسكو، حيث يصل ارتفاعها إلى ٢٢٠ م، من أهم المعالم الرئيسية التي تطل عليها التلال هي جامعة موسكو الحكومية (ويُقال أنها أطول مبنى في أوروبا) وكنيسة الثالوث.



بابتسامة صادقة منه ومنا، وغادرنا الرجل وانصرف إلى حال سبيله وقد ترك لدينا أطيب الأثر عن الشعب الروسيٍ، فالرجل كان حقًا سفيراً لقومه لم يكن استغلاليَا أو سيئًا بل على العكس تماما كان متعاونًا حتى مع غياب التواصل باللغة والكلمات. أضف إلى ذلك تعاون الموظفة في الفندق ومحاولتها مساعدتي وكان بإمكانها أن تجيب بسهولة أنها لا تعرف جهات تؤجر مقاعد متحركة باستسهال نعرفه نحن المصريون للأسف في التعامل مع المواقف المشابهة، هذا بالإضافة إلى عرض موظف الفندق الليلة السابقة من أن آخذ المقعد المتحرك الخاص بالفندق نفسه، كل هذه الأمور أعطتنا انطباع أن الشعب الروسي مضياف ومتعاون عكس ما كنا قد سمعنا عنهم قبل السفر حيث الكثير من المعلومات غير الدقيقة والمغلوطة من عينة أنهم أشبه بالمافيا الإيطالية، وعادة ما يسيرون والسلاح يزين خاصرتهم، وعصبيون "روحهم في مناخيرهم" كما يقولون.

صحيح أن أخذ انطباع عام عن شعب أو ناس أو بلد من مجرد موقف أو اثنين ليس بالشيء السليم في معايير تكوين حكم ما، كما أنه يؤخذ في الاعتبار بالقطع أن بعض المواقف سالفة الذكر كانت من مجرد أناس يؤدونِ عملهم بإتقان ومهارة وجدية لا أكثر، عامةً لندع الانطباعات والأحكام الآن جانباَ ونرجئها إلى فصل آخر عَلَّ التجربة تكون قد اكتملت وشاهدنا ناس كُثُر وتعاملنا مع روس أكثر ولنحكم في نهاية الرحلة.

خلاصة القول أن موقف سائق التاكسي هذا جعلني أدرك حينها حقًا - وهو معنى متكرر دومًا ما أدركه كلما أنعم الله علينا بالسفر والاستكشاف والترحال، أن الله خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف، وأن هذا التعارف لا يقف أمامه حائل حتى اللغة، وأن الإنسانية وحدها هي التي تحرك البشر ذوي الفطرة السليمة.

ذهبنا بعد ذلك إلى حيث شباك حجز تذاكر الرحلة النهرية، ووجدنا لافتة مكتوبة بالروسية توضح خط سير الرحلة وتكلفتها، وبالتالي أصبح وجودها هي والعدم سواء، حاولنا التواصل مع الموظفة الموجودة وكانت امرأة أربعينية تستعيض عن سن مكسور لديها بسن ذهبية - وهو ما وجدناه شائعًا لديهم - بالرغم من أن منظره عادة ما يكون غير مريح أن تجد أن سنًا يضوّي هكذا من فم أحدهم. خرجت لنا تلك المرأة من الغرفة التي تجلس بها لتحاول أن تشرح





لنا خط السير، وكانت كلمة السر هي كرملين، فأدركت أننا نرغب في الذهاب إلى هناك فمنحتنا ثلاثة تذاكر بعد أن دفع محمود قيمتها؛ ومحمود هو وزير الشئون المالية، حيث جرت العادة أن أترك معه مبلغًا من المال ليقوم هو بالإنفاق وأقوم أنا بالحساب والخصم من ذلك المبلغ الذى معه كرصيد لي إلى أن ينتهى فأمنحه مبلغًا آخر وهكذا دواليك.

ذهبنا لركوب السفينة أو المركب بعد ذلك، وأعتقد أن الوصف أو التسمية الأكثر دقة هي مركب صغيرة، لأنه ربما يكون أدق لغوياً تسمية السفن بذلك الاسم إذا ما كانت كبيرة الحجم، أما هذه التي كنا على متنها فـهي صغيرة من طابقين: الطابق السفلي مغلق بسقف ونوافذ من الزجاج على جانبيه، وبه جهاز تدفئة إذا اقتضى الأمر، والطابق الثاني مكشوف "منك للسما على طول" ولأن الجو كان صحواً ومشمسًا فضلنا الاستمتاع بتلك الرحلة الفريدة من الطابق العلوى، وتركنا المقعد المتحرك مطوياً بالطابق السفلي.

بدأ المركب بـالتحرك، وكان على متنه بعض الأجانب الذين تبدو عليهم أمارات السياحة من اهتمام بالتصوير عند كل الأماكن، وتسجيل مقاطع الفيديو لتوثيق رحلاتهم، وكذلك تلك السعادة التي تبدو عادةً على وجه السائح لمجرد أنه خارج دائرة روتين يومه المعهود.

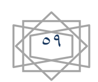
نزل بعد قليل الأخوان للطابق السفلي حيث يوجد مقصفًا ليروا ماذا يمكن أن نأكل ولو على سبيل "التصبيرة"، بالطبع بقيت أنا جالسًا أتأمل ذلك المنظر الخلاب يمينًا ويسارًا حيث على يميني حدائق متعددة وارفة الخضرة، وأناس جالسون بهذه الحدائق في سلام يشاهدون منظر النهر والمراكب العابرة أمامهم، ومنهم من يقود دراجات هوائية، ومنهم من يمارس رياضة الجري. تدرك من هذا أن موسكو وعلى حداثتها وعصريتها هي أيضًا مدينة تهتم بالطبيعة وبتوفير مساحات خضراء مجانية بالطبع للناس لممارسة بعض الأنشطة والرياضات أو حتى الاستجمام والهدوء بعيدًا عن صخب المدينة، ولن تحتاج إلى أن تكون ثرياً حد الملايين لتستطيع أن تحيا في مكان يوفر خدمات كتلك التي يوفرها لك **I City** من **Mountain View**.



عاد الأخوان بما طلبت منهما وهي قطع من الكيك الإنجليزي الذى أدمنه وأدمن مذاقه، وكان بموسكو أيضًا شهياً ولذيذًا، وتناولا هما بعض السندويشات، ثم سجلنا مقطع فيديو أوضحنا فيه مدى سعادتنا بهذه الجولة وأنها أول جولة نهرية لنا في نهر أوروبي ولو نسبياً، وتمنينا أن تكون لنا جولة في نهر السين بباريس، كما سخرنا من ذلك الذى سميناه "مقلب" من الطقس حيث إن الجو مشمس وصحو ولا يحتاج إلى ملابس شتوية كتلك التي أتينا بها من مصر، فملابس خريفية خفيفة كانت ستفي بالغرض، وسخرنا من اصطحابنا للمعاطف الثقيلة معنا، وكنا قد جلبنا ثلاثة معاطف شتوية ثقيلة بسبب ما سمعناه عن الطقس وبرودته وبعد ما شاهدنا الطقس بموسكو قلنا لبعضنا البعض: "جبنا هدوم مالهاش لازمة.. شيلة ووزن ع الفاضي" ولم نكن نعرف ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة.

بعد رحلة نهرية جميلة وممتعة استغرقت نحو الأربعين دقيقة، كنا قد وصلنا إلى حيث محطتنا المنشودة وهي الكرملين، غادرنا المركب وعدت لاستخدام المقعد من جديد - حيث كان الأمر عند الجلوس على المقعد أن أمسك بالعكاز بعد تصغير حجمه طياً - وبدأ محمود يدفعني، وكنت أشعر أن الأمر ليس سهلًا أو يسيراً كما كنت أتصور، فالشخص الذي يتحمل عبء دفع شخصًا آخراً جالسًا على مقعد متحرك يبذل مجهودًا ليس بالقليل، فبالإضافة إلى اعتماده على عضلات الساعد "الباي تقريباً" يجد نفسه منحنياً بجذعه بعض الشيء حتى يصل إلى فرق طول مناسب بينه وبين الجالس على المقعد، أو للدقة بينه وبين مقابض المقعد نفسه التي يمسكها أثناء تحريك ودفع المقعد. أشفقت على محمود وأحمد من تحمل هذا العبء باقي مدة الرحلة، حيث قام أحمد أيضًا بالتناوب مع شقيقه بعض الوقت ولكنني لم أكن سعيدًا وأنا أشعر أنِّي عبء على أصدقائي "وبقطع نفسهم".

عبرنا الطريق وسرنا بمحاذاة السور الخارجي للكرملين والذى يفصل بين منطقة الكرملين وما دونها من طرق أخرى، هذه المرة ولأننا وصلنا هناك عبر النهر كان المدخل بالنسبة لنا مختلفًا، حيث دخلنا بالقرب من كنيسة سانت باسيل، وسور الكرملين ذاته، وهنا واجهتنا مشكلة لم نلقِ لها بالًا عندما كنا في نفس المكان بالأمس، وهي أن أرضية الساحة الحمراء كانت من الطوب البازلت





القديم، وهي أرضية غير مناسبة على الإطلاق لأن يسير عليها كرسي متحرك، فـهي تهدد بسلامة المقعد نفسه حيث يصبح معرضًا للكسر أو حدوث تلفيات به، وإن تذاكى أحدًا وتجاهل أن الأرضية لا تمكنه من السير عليها ربما وجد نفسه مقلوبًا من فوق الكرسي عند اصطدام عجلاته بإحدى الأحجار، بالطبع لم ننتبه لهذا الليلة الماضية حيث كنا نسير على أقدامنا، اضطررنا للانتقال للسير على الرصيف الموازي للمجمع التجاري الجميل (جوم)، إلى أن أصبحنا على مقربة من سور الكرملين وأحد حراسه، وهو حارس غير أولئك الذين نسميهم حرس الشرف، حيث يقفون منتبهين دون أية التفاتة أو حديث مع أحد، أما هذا الحارس فكان حارسًا عمليًا للمكان يُجيب الناس عن استفساراتهم إذا ما فهمها ويحافظ على النظام العام؛ هنا كان لابد من أن أنهض عن المقعد والذي أصبح كما حمار جُحا [١٧] الشهير نسير وندفعه أمامنا.

وصلنا إلى حيث الحارس وسألناه عن مدخل منطقة الكرملين حيث أن السور الذى يقف عنده حرس الشرف ليس مدخلاً للزائرين، فأشار أنه علينا الخروج من حيز الساحة الحمراء والاتجاه يسارًا، فأكملنا السير إلى أن وجدنا أن هذا اليسار الذى دلنا عليه الحارس هو مدخل لحديقة كبيرة، سألنا المارة ما إن كان هذا يعتبر مدخلًا للكرملين! فأجابوا أن نعم، فدخلنا إلى حيث حديقة

[١٧] جُحا والحمار: هي أقصوصة طريفة تقول في يوم من الأيام كان جحا وابنه يحزمون أمتعتهم استعدادًا للسفر إلى المدينة المجاورة، فـركبا على ظهر الحمار لكي يبدأوا رحلتهم، وفي الطريق مروا على قريةٍ صغيرة، فأخذ الناس ينظرون إليهم بنظراتٍ غريبة ويقولون "انظروا إلى هؤلاء القساة يركبان كليهما على ظهر الحمار ولا يرأفان به"، وعندما أوشكوا على الوصول إلى القرية الثانية نزل الابن من فوق الحمار وسار على قدميه لكى لا يقول عنهم أهل هذه القرية كما قيل لهم في القرية التي قبلها، فلما دخلوا القرية رآهم الناس فقالوا "انظروا إلى هذا الأب الظالم يدع ابنه يسير على قدميه وهو يرتاح فوق حماره"، وعندما أوشكوا على الوصول إلى القرية التي بعدها نزل جحا من الحمار وقال لابنه اركب أنت فوق الحمار، وعندما دخلوا إلى القرية رآهم الناس فقالوا "انظروا إلى هذا الابن العاق يترك أباه يمشي على الأرض وهو يرتاح فوق الحمار"، فغضب جحا من هذه المسألة وقرر أن ينزل هو ابنه من فوق الحمار حتى لا يكون للناس سلطة عليهما، وعندما دخلوا إلى المدينة ورآهم أهلها قالوا "انظروا إلى هؤلاء الحمقى يسيرون على أقدامهم ويتعبون أنفسهم ويتركون الحمار خلفهم يسير وحده"، فلما وصلوا باعوا الحمار.



ألكسندر[١٨] الشهيرة بموسكو، وهي حديقة كبيرة وجميلة للغاية أيضًا، وبها عند مدخلها قبر الجندي المجهول لتخليد ذكرى الحرب العالمية الثانية. التقطنا بعض الصور هناك ثم أكملنا المسير، كنت حينها قد عدت للجلوس على المقعد مرة أخرى بعدما عادت الأرضية قابلة للاستخدام؛ الحديقة غنّاء بالفعل وجميلة حقيقة، ومع الطقس الصحو والمشمس كانت قطعة من الجنة، ظللنا نسير ونحن تقريباَ تائهون ولم نعرف بعد أين سيكون المدخل إلى الكرملين، حتى وجدنا على يسارنا مكتباَ لحجز التذاكر، ذهب محمود ليسأل وعاد بالمعلومات، وهي أن المكتب يقوم بحجز تذاكر زيارة الكرملين فعلًا، ولكن المكان يغلق في السادسة مساءَ وكانت الساعة حينها قد تجاوزت الرابعة، معنى هذا أنه لن يكون متاح لنا متسع من الوقت لزيارة المكان وتفقده.

ناقشنا الأمر لدقائق معدودة هل نحجز التذاكر ونبدأ في الزيارة؟ أم نؤجلها ونأتي هنا لمرة ثالثة؟ ولكن عقب عودتنا من سانت بطرسبرج حيث أننا كنا سنغادر موسكو في صباح اليوم التالي، ولكننا سرعان ما حسمنا الأمر بمنطق أن ما لا يُدرك كله لا يُترك جله، وبالتالي حجزنا ثلاثة تذاكر لزيارة الكرملين أخيراَ.

كان علينا أن نعود إلى حيث أقرب مدخل لحديقة ألكسندر، ثم صعود جسر ما وهو يعتبر بوابة منطقة الكرملين. فعلنا ذلك عائدين لوضعية حمار جحا مع الكرسي المتحرك، وأخيراَ وبعدما اطّلع الحارس على التذاكر الثلاث أصبحنا بالفعل داخل منطقة الكرملين، ويحيطنا سوره المعروف الذى تعلوه الساعة والنجمة الروسية الشهيرة، ولكن هذه المرة من الداخل لا الخارج.

المنطقة تشمل ذلك القصر الكبير حيث تُدار الدولة الروسية، وكذلك عددًا من الكنائس والكاتدرائيات حيث المسافة الفاصلة بين كل كنيسة وأخرى لا تتجاوز الثلاثمائة متر. كان الأمر أشبه بمسألة كثرة ما يُعرف بالزوايا "مساجد صغيرة أسفل العمارات السكنية بمصر"، ولم يكن مفهومًا لماذا كل هذا الحشد من الكنائس الكبيرة في هذا الحيز الضيق والمتجاور.

---

[١٨] حديقة ألكسندر: أنشئت عام ١٨٢٣ لتعد بذلك واحدة من أقدم الحدائق العامة في المناطق الحضرية في موسكو، استمدت اسمها من إمبراطور روسيا في ذلك الوقت، تمتد على طول الجدار الغربي لمبنى الكرملين حوالي ٨٦٥ متر تقسم إلى ثلاثة حدائق منفصلة.

كان من اللافت لانتباهنا هو كثرة الكنائس الموجودة بموسكو بشكل عام، وطابعها المعماري المختلف عن طابع كنائس أوروبا الغربية، ربما كان السبب في هذا هو أن المسيحيين الروس أرثوذكس[١٩] في حين أن مسيحيي أوروبا الغربية كاثوليك.

كان من اللافت للنظر أيضًا أن كثرة هذه الكنائس تعطيك انطباعًا أن البلد صارت على قطيعة مع الشيوعية [٢٠] بشكل تام، حيث أن الكنائس وكثرتها تشير بالتأكيد إلى الإيمان العميق بالمسيحية وكذلك شدة التدين الذى صار علامة واضحة عند الروس.

وكان من ضمن هذه الكنائس أو الكاتدرائيات الموجودة بساحة الكرملين، كاتدرائية أوسبينسكى [٢١] والتي تم اعتبارها الكنيسة الرئيسية للمكان،

---

[١٩] الأرثوذكسية: هي مذهب من المسيحية يُرجع جذوره بحسب أتباعه إلى المسيح والخلافة الرسولية والكهنوتية، وكانت المسيحية كنيسة واحدة حتى الانشقاق الذي حصل بين الكنيسة الغربية (الرومانية الكاثوليكية) والشرقية (الرومية الأرثوذكسية) وهي كلمة مشتقة جزئها الأول من كلمة (أرثو) وأصلها من اللغة اليونانية وتعني ("الصواب" أو "الصحيح" أو "قويم") وجزؤها الثاني من كلمة دوكسا (doxa) التي تعني الرأي أو الاعتقاد.

[٢٠] الشيوعية: هي مَذْهب كارل ماركس، وهو نِظام اجتماعي وسياسي واقتصادي يقوم على الإنتاج الجماعي وإشاعة الملكيّة وإزالة الطّبقات الاجتماعيَّة وأن يعمل الفَرد على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته، وتعتبر الاشتراكية جزءًا منها وعلاقة الشيوعية أو الماركسية بالأديان هي علاقة سلبية حيث أنها لا تؤمن بأيَّة قوة خارجة عن الطبيعة تسيطر على حركة الطبيعة أو تسيرها وفقا لهواها بل تعتبر الطبيعة، الكون، مادة في حركة تسير وتتطور وفقًا لقوانين معينة توصل الانسان إلى اكتشاف بعضها وما زال يجهل الكثير منها وأن الانسان يكتشف خلال تطوره المزيد من القوانين التي تسير الطبيعة وتحدد شكلها في حركتها وتطورها وتغيرها؛ وسبب دهشة الكاتب هو أنه تحت الحكم السوفييتي كانت الكنيسة محرومة من حقوقها القانونية وتعرضت لعملية قمع واضطهاد وخسرت الكثير من أتباعها نتيجة سيادة الفكر الإلحادي في الاتحاد السوفييتي، حيث مورست في ثلاثينات القرن الماضي حملة دعائية موجهة ضد الدين أسفرت عن إغلاق عدد كبير من الأديرة والكنائس وفي عام 1925 سجن البطريرك تيخون وقُتل بأمر السلطات.

[٢١] كنيسة أوسبينسكي: ويُطلق عليها لقب الكنيسة الذهبية، حيث لها ستة قباب ذهبية تعلو كل واحدة منها صليب أنشأها المعماري الإيطالي أرسطو فيوروفانتي بين أعوام ١٤٧٥ ـ ١٤٧٩ (كاتدرائية الصعود أي صعود العذراء) بوصفها الكنيسة الرئيسية لدولة روسيا.



حيث أنها تتصدر منطقة الكنائس هذه، كما أنها الأكبر حجمًا؛ وللأسف كانت مغلقة لكونها تحت الترميم، وبالتالي لم نتمكن من زيارتها واكتفينا فقط بالتقاط بعض الصور أمامها من الخارج بمنظرها الجذاب والمختلف عن شكل الكنائس كما نراها هنا في مصر، حيث أن الكنائس الكبيرة تشبه القلاع كما بعض الكنائس الموجودة بمحافظة بورسعيد والكنائس العادية المتواجدة في المدن والمحافظات التي لا تتميز بطابع معماري خاص بها.

أكملنا بعد ذلك المسير بضعة أمتار حتى كاتدرائية أرخا نجلسكى "رئيس الملائكة ميكائيل" والتي تمكنّا من زيارتها وقضاء بعض الوقت بها، وجدير بالذكر أننا كنا ننتقل من كنيسة لأخرى أو من كاتدرائية لأخرى تاركين المقعد المتحرك - الجديد الأنيق هذا - خارج كل واحدة منهن في الساحة العامة، حيث أن لكل كاتدرائية درج حتى الوصول إلى بوابتها ودخولها، وبالتالي كان استخدام أو اصطحاب الكرسي أمرًا عائقًا أكثر منه مفيدًا، ولم يكن هناك داع لأن يتكبد الأخوان فوزي مشقة وعناء حمل الكرسي صعودًا وهبوطًا كل مرة، وكان الأفضل أن يكتفيا بمعاونتي أنا في الصعود والهبوط، وبالطبع كنا نخرج من كل كنيسة ونجد الكرسي في مكانه تمامًا كما تركناه، لم يطمع فيه أو يسرقه أحد أو حتى يشتبه فيه أحد الحراس بشكل أمني كأن يكون "الكرسي مفخخ ولّا حاجة".

بعدما انتهينا من زيارة كاتدرائية أرخانجلسكي[٢٢] توجهنا إلى واحدة أخرى وهي كاتدرائية بلاغوفيشكنسكي[٢٣] "الأسماء صعبة؛ مش كده؟" جنوب غرب ساحة

---

[٢٢] كاتدرائية أرخانجلسكي: أنشأها المعماري الإيطالي اليفيز نوفي في أعوام ١٥٠٥-١٥٠٨ كاتدرائية "ارخانجلسكي" (كبير الملائكة ميكائيل) باعتبارها مدفنًا للأمراء المعظمين في موسكو، وتوجد بداخلها وفي صحنها التوابيت الخاصة ببعض الأمراء والقديسين.

[٢٣] كنيسة البشارة: ترجع فكرة بناء الكنيسة حيث كانت زوجة حاجب الملك (آنّا ديميترفنا) تسكن بجانب الحديقة وحين توفت حفيدتها في عام ١٨٤١ وقبلها ابنتها، قررت أن تقوم ببناء كنسية لتخليد ذكراهن في نفس مكان وفاتهن، كان من المُفترض أن يتم تشييدها على يد المهندس المعماري (يفيجراف ديميتريفيتش تيورين) إلا أن التصميم الذي ابتكره قوبل بالرفض من قبل السلطات نظرًا لتشابهه المطلق بالقصر الإمبراطوري، وبذلك يُصبح نسخة مُصغرة من القصر ليتم بعدها الاستعانة بالمهندس المعماري (فيودر فيودرفيش ريختر) والذي شيدها بالطراز الحالي. تعرض المبنى الرئيسي للكنيسة للهدم في الأعوام ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠ وتم هدم الصلبان والتماثيل بداخله إلى جانب جميع مباني الكنيسة الخشبية وشُيد مكانها مبني لشرطة المرور، بعد كثير من



الكرملين، وهذه الكاتدرائيات تقريبًا تلي الواحدة منها الأخرى، فنحن نتحدث عن فخامة في البناء وكذلك ضخامة ظاهرة للعيان، أيقونات مسيحية تغطي كافة الجدران وبالكاد ترى حائطًا عارِيًا يخلو من رسوم أو أيقونات، اللون الذهبي كما يكسو القباب المختلفة لأغلب هذه الكاتدرائيات - وهو أمر ستجده بكثرة في الكنائس المسيحية الشرقية "الأرثوذكسية " ونادرًا ما تجده في كنائس الكاثوليك – يكسو أيضًا المذبح أحيانًا بالكامل لدرجة تجعلك مندهشًا من عدة أشياء، أولها ستسأل نفسك هل ما تراه هذا ذهبًا خالصًا أم مجرد طلاء ولون فقط؟ لم نحصل على إجابة لهذا السؤال وإن كان أغلب الظن أنه من الذهب لأن بريق اللون بهذه الطريقة التي شاهدناها من الصعب أن يكون لمجرد طلاء هذا، وستتابع الأسئلة في ذهنك إن كان هذا من الذهب كيف خرج سليمًا من ويلات الحرب العالمية الثانية؟ كيف لم تتم سرقته وتفكيكه أو تقسيمه وصهره وإعادة بيعه؟

وسؤال آخر، وهو كانت روسيا إحدى بقاع الشيوعية "القُحة" - كما يقولون عندما يصفون شيئًا بأنه أصلي حتى النخاع - فكيف ببلد كانت شيوعية عندما تتحول "بقدرة قادر" إلى المسيحية أن تصرف بكل هذا البذخ على بناء الكنائس ودور العبادة؟ والعجيب أن كلًا من تعاليم الأديان السماوية سواء كانت المسيحية أو غيرها، وكذلك مبادئ الشيوعية نفسها لا تتفق مع هذا البذخ الضخم الظاهر في بناء وتشييد هذه الكاتدرائيات.

ومن الطريف والمحزن معًا - وستعلم وحدك دون إشارة مني لما هو محزن - أنه لما أدركنا أن منطقة الكرملين كل أرضها من البازلت لا الأسفلت، وأن الكرسي سيكون غير مفيد معنا بالداخل، حاول محمود أن يطلب من الحارس أو ضابط الشرطة الذي فحص تذاكرنا ومرّرنا عبر جهاز الفحص الإلكتروني أن يترك الكرسي لديه، لكنه لم يفهمنا إطلاقًا أو يفهم لغة جسدنا وماذا نطلب منه، وكنا نضحك على عدم فهمه لنا ومع ذلك لم تتغير ملامح الرجل أو يعبس بوجهه ويقطب مظهرًا تلك الـ ١١١- علامة غضب وضيق تبدو على الوجه بين منطقة

المفاوضات تم إعادة فتح الكنيسة في عام ١٩٩١ أي بعد حل الاتحاد السوفيتي، وتوجد بالكنيسة أربعة مذابح على جوانبها الأربعة.



الحاجبين- كما هو متوقع في حالات مماثلة إذا ما قادك حظك السيئ في أن تتعامل مع ضابط شرطة ظن أنك تسخر منه في بلاد نعرفها.

باختصار الشرطة هناك مصدر للطمأنينة في الشارع، على الأقل كانت لنا ونحن سائحين كذلك، وفي أغلب ظني أنها ليست كذلك للمواطن الروسي، ربما سبب ظني هذا هو انتهاكات سبق وشاهدتها بفيلم وثائقي تحدث في سجون روسيا، وربما معرفتي أن روسيا دولة ليست ديمقراطية بالشكل الكافي.

بعدما انتهينا من زيارة هذه الكاتدرائيات والتي راعينا أن تكون هذه الزيارات بإيقاع سريع لعدة أسباب، أهمها أن نحافظ على الوقت المتبقي الذى نعلم أنه ليس بالكثير على موعد الإغلاق، وأيضًا لأننا أولاً وأخيراً نزور هذه الكاتدرائيات للاطلاع العام فقط على أماكن تاريخية وعلى طبيعة معمارها وشكلها من الداخل ولا ناقة لنا ولا جمل في التواجد داخل كنيسة بغرض ديني، كما أن غياب المعلومات باللغة الإنجليزية عن تاريخ كل واحدة منهم أيضًا كان عاملًا في هذا الإيقاع السريع، حيث أنه لا مصدر متاح للمعلومات سواء بالإرشاد السياحي باللغة الإنجليزية أو حتى بالكتيبات، فكانت هذه الزيارات تقتصر على مشاهدة الكنيسة ومعمارها والمذبح الخاص بكل واحدة والافتتان بالفن الساحر في تصميم هذه المذابح ومن ثم المغادرة بعد التقاط عده صور فوتوغرافية أحيانًا "في الخباثة"؛ أي بشكل متخف، حيث أ ن بعض هذه الأماكن لم يكن مسموحًا بالتصوير فيها. أعلم بالطبع أنَ مخالفة تلك القاعدة ليس بالأمر الصواب، ولكننا كنا نخالفها رغبة منا في الاحتفاظ ببعض الصور التي توثق زياراتنا للمكان.

أكملنا المسير بعد ذلك إلى أن وجدنا أنفسنا أمام برج الأجراس لإيفان الأكبر، وهو مَعلم سياحي داخل منطقة الكرملين سبق وشاهدت صوراً له قبل السفر، وهو عبارة عن برج مكون من ٣ طوابق متألفة من طبقات مثمنة الزوايا، وفي كل طبقة شرفة ورواق مفتوحان تنصب فيهما الأجراس، وعددها ٢١ جرسًا وأسفلها مجسم لجرس ضخم يزن ١٦ طنًا.

هنا عُدت من جديد لاستخدام الكرسي، حيث أن الطريق أصبح عاديًا من الأسفلت، عند تلك المرحلة كانت الساعة قد بلغت السادسة مساءً ووجدنا أن الحرس يسير حاثًا الناس على المغادرة بلطف، سرنا باتجاه باب الخروج ووجدنا نماذج المدافع القديمة وكذلك باقي الأسلحة التي كانت تستخدم في غابر الزمان





ربما أثناء الحرب العالمية الثانية وربما قبل ذلك أيضًا. أصبحنا على مقربة من ذلك الجسر الذي كنا قد صعدناه وعبرناه عند دخولنا للكرملين، وهو الفاصل بينه وبين حديقة ألكسندر، حيث على يميننا متحف الأسلحة القديمة الذي لم نتمكن من زيارته بسبب الوقت - وصراحة لم أندم على ذلك، فالسلاح يعني القتل والموت والدم وهي أشياء لن يستريح العالم إلا إذا تخلص منها، وبالتالي لم أكن مقتنعًا بضرورة عمل متحف لها فضلًا عن زيارته.

أما على يسارنا كان هناك مبنى كبير ذو طابع حديث لا نعرف كنهه، ووجدنا كثيراً من الناس تسير قادمة في اتجاهه، حيث كان المشهد كالتالي، يسير الناس خارجين من الكرملين بطلب لطيف من الحرس وفي نفس الوقت مجموعة أخرى من الناس قادمة ولكنها لا تتعمق بالسير للدخول إلى منطقة الكاتدرائيات والجرس، بل وجهتهم هو ذلك المبنى الحديث الأنيق وكانوا هم أيضًا كذلك، أقصد متأنقون بعضهم أو قُل غالبيتهم بملابس سهرة خاصة الفتيات والسيدات، وكثير من الرجال والشباب كانوا في حلل كاملة "لابسين بدل يعني". أصبح السؤال الذى يطرح نفسه الآن ما هذا المبنى؟ ولماذا هذا الحشد من الناس؟ سألنا وعرفنا أن هذا المكان مسرح متعدد القاعات، وأن عروضًا فنية تقام على خشبات مسارح هذا المبنى، كما عرفنا أيضًا أن عرض بحيرة البجع الشهير سيتم عرضه بعد قليل ولهذا كل هؤلاء الناس آتون متأنقون للمشاهدة.

كان من الجميل أننا عرفنا أنه ما تزال هناك أماكن متاحة، والأجمل أن الحضور لا يُشترط الملابس الرسمية أو ملابس السهرة كما هو متعارف في المسارح الكبرى ودور الأوبرا المختلفة.

كانت فرصتنا لمشاهدة العرض، حيث كنا بالفعل نرغب في مشاهدة هذا العرض الشهير بمسرح البولشوي الأشهر ولكننا لم نتمكن من حجز تذاكره - ولهذا قصة تروى لاحقًا، وها هو التعويض بالإمكان، أن نحضر العرض .

والآن سألنا عن شباك التذاكر فوجدنا أنه هو نفس المكتب الذى حجزنا منه تذاكر الكرملين، وبالتالي كان على الأخوين فوزِي أن يذهبا مسرعين حيث حديقة ألكسندر ليشتريا التذاكر. تركاني بمفردي جالسا على المقعد المتحرك بعدما جمعنا ما معنا من نقود روسية - وهو ما لم يكن كثيراً - ولم نكن ندرك أننا بحاجة إلى استبدال المزيد من الدولارات الأمريكية.





انطلق الأخوان لشراء التذاكر واستغرقا نصف ساعة كاملة إلى أن عادا لي مرة أخرى، صراحة خلال فترة الانتظار تلك أصبت بالضجر لعدة أسباب، منها أنها مدة طويلة خاصة إذا ما لم يكن معك هاتف متصل بالإنترنت كما اعتاد أغلبنا الآن، وبالتالي يمضى الوقت بطيئًا ما دمنا لسنا على الفيس بوك أو نتبادل الكلام عبر تطبيق الواتس آب مع أحدهم، وثانياَ أن السيناريوهات السوداء كانت تلعب بعقلي، حيث أنني لا أدري سر تأخرهم هكذا على الرغم أن المكان ليس بعيدًا، هل هناك طابور و زحام على تذاكر العرض الآن؟ أم سبب آخر؟ ماذا إذا لم نستطع التواصل عبر الهاتف، ماذا إذا تأخر مجيئهما أكثر من اللازم ونفذت قدرتي على الانتظار والصبر وأنا على المقعد الآن؟ صحيح أني أستطيع السير مستخدما العكاز ولكن ماذا سأفعل بالكرسي إن أردت مغادرة المكان والعودة للفندق؟ أضف إلى هذه الأسباب والخواطر، قلقي على الأخوين فهل اشتبه بهما مخبر روسي "بالطبع" مثلًا وسألهما عن هويّاتهما فلم يجد فجرّهما إلى قسم الشرطة؟ كما أنني لم أكن مفضلًا لمنظري هكذا بجوار باب الدخول والغادي والقادم يشاهدني جالسًا على المقعد، صحيح أمور الصحة والمرض ليست بيدنا ولا حيلة لنا بها إلا أن البعد النفسي للأمر كان موترًا.

ظل الوقت يمشى بطيئًا وأنا جالس أشاهد البشر القادمين لحضور العرض وهم يدخلون إلى حيث المسرح، إلى أن أتى الأخوان أخيراً والحمد لله أنهما لم يأتيا بعد كل ذلك بخفي حنين[٢٤]، بل أتيا بثلاثة تذاكر لمشاهدة باليه بحيرة البجعة، وأخبرا ني أن سبب التأخير أن ما معهما من روبلات لم يكن كافيًا لشراء التذاكر وبالتالي اضطرا إلى الخروج إلى الساحة الحمراء حيث إن أقرب مكتب صرافة كان يوجد بمحطة المترو والذي وجداه مغلقًا للأسف "مكتب الصرافة طبعًا لا المترو"، فما كان منهما إلا أن عادا مرة أخرى لموظفة حجز التذاكر وحاولا

---

٢٤ خُفّى حنين: أصله أن حُنَيناً كان إسكافيا من أهل الحِيرة، فأراد أعرابي أن يشتري منه خُفّين، وساومه فاختلفا حتى غضب حنين، فأراد أن يغيظ الأعرابي، فلما ارتَحَل الأعرابي أخذ حنين أحدَ خفيه وطرَحه في الطريق ثم ألقى الآخر في موضع آخر فلما مرّ الأعرابي بأحدهما قال: "ما أشبه هذا الخفّ بخف حنين! ولو كان معه الآخر لأخذته"، ومضى؛ فلما انتهى إلى الآخر نَدِمَ على تركه الأول، وقد كَمنَ له حنينٌ يراقبه، فلما رجع الأعرابي ليأخذ الأول، سرق حنين راحلته وما عليها وذهب بها! وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخُفّين، فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك ؟ فقال: "جئتكم بخُفّ حُنَين" . فذهبت مثلًا يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة.



التفاهم معها وأن تقبل الحجز بالدولارات الأمريكية، وأن تسوي هي الأمر لاحقًا، ويبدو أن هذا ما حدث فقامت هي بدور مكتب الصرافة، وقبلت من محمود مبلغ خمسين دولارًا حجزت منها التذاكر الثلاث وأعادت له القليل من الباقي بالروبلات.

أخيراً، تم الأمر وأصبحنا نحمل تذاكر لمشاهدة العرض الذي لم يكن قد تبقى على موعد بدايته سوى ربع الساعة، دخلنا وتركنا المقعد المتحرك عند حارس الأمن المبتسم، وأصبحنا داخل واحد من أمتع المسارح التي سبق ودخلناها في حياتنا، كان أكبرها على الإطلاق حتى ذلك الحين. وجدت أن الأخوين قد حجزا مقاعد ذات موقع جيد داخل المسرح سيتيح لنا الرؤية والمشاهدة الجيدة، وبعد قليل بدأ العرض الذي استمر ساعتين ونصف الساعة بعدما رحب بنا صوت لفتاة روسية تخبرنا أنه ليس مسموحًا باستخدام الهواتف المحمولة خلال العرض سواء للحديث فيها أو التصوير.

شاهدنا العرض [٢٥] ونحن "طايرين" أقصد كالمحلقين في الفضاء، فالعرض كان حقًا ساحرًا ومبهرًا وجميلًا، ويستحق معاناة الحصول على تذاكر لمشاهدته، وبعدما شاهدناه أدركنا لماذا يتهافت الروسيون على حجزه ومشاهدته بهذه الدرجة التي جعلت لا أماكن متاحة إطلاقًا بمسرح البولشوي.

ضع في اعتبارك أن هذا الانبهار الذى أحدثك عنه آت من شباب ليسوا من هواة فن الباليه أو اللاهثين خلف عروضه في دور الأوبرا المختلفة، وتقريبًا كانت هذه هي المرة الأولى للأخوين فوزي لمشاهدة عرض من هذا النوع، ولي كانت الثانية ولكنها كانت أمتع بكثير من مرتي الأولى.

أعلم أن حديثي عن العرض قد يكون قد طال بعض الشيء "استحملني" فنحن كنا أمام عرض خلاب بكل عناصره بدءًا من الديكور الساحر

[٢٥] عرض بحيرة البجع: إحدى روائع الموسيقي الروسي تشايكوفسكي الموسيقية التي ألفها عام 1887 والتي تضاف إلى تراثه الموسيقي العالمي في الجمال النائم، كسارة البندق والأميرة النائمة، تتضمن بحيرة البجع أربعة فصول استعراضية موسيقية راقصة في باليه درامي، وعرضت لأول مرة على مسرح البولشوي بموسكو في 4 مارس1887.



والملابس وبراعة الراقصين والموسيقى، الإضاءة الموظفة بدقة وعناية، باختصار كافة التفاصيل كانت تعمل في انسجام وروعة ليخرج العرض إلى النور كما شاهدناه.

أثناء فترة الاستراحة بين فصول العرض المختلفة كنا نتحدث عن هذه الأمسية الرائعة وغير المرتبة وغير المتوقعة أيضًا على الإطلاق، حيث أن سبب اهتمامنا بحضور عرض بحيرة البجع في الأساس كان مجرد مشاهدة عرض نسمع عنه كثيراً في مسرح كبير وتاريخي فقط لا غير، ولم نكن نتوقع أن يكون بمثل ذلك الإبهار الذي شاهدناه، "جدير بالذكر أن الفنون أمزجة وأنه لولا اختلاف الأذواقٍ لبارت السلع، وبالتالي إن شجعك كلامي السابق على مشاهدته ولم تجده ممتعًا ففضلًا ماتدعيش عليا ". [٢٦]

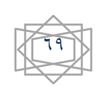
بعد انتهاء العرض غادرنا ذلك المسرح الذي عرفنا أنه مركز المؤتمرات الذي تم تشييده عام ١٩٦١ والذى يُعرف اصطلاحًا بمسرح الكرملين، والذي به عدد من القاعات وصالات العرض بأحجام مختلفة وعروض فنية متعددة.

غادرنا بعد ذلك إلى حيث حديقة ألكسندر لنخرج منها إلى الطريق العام، كانت الحديقة ليلًا وبالإضاءات المصممة بهندسة وفن تكاد تكون أحلى منها نهارًا، وهو أمر ليس معتادًا حيث أنه من الطبيعي أن الحدائق أو اللون الأخضر عمومًا يكون أخَّاذا للبصر جذابًا بالنهار عنه بالليل، إلا أن حديقة ألكسندر قد خالفت ناموس الكون في هذا للدرجة التي جعلت محمود - وهو المهووس بالتصوير- يعترف أن عينيه ترى جمال الحديقة أفضل مما تراه وتسجله الكاميرا فتوقف عن التصوير، واستمتعنا لدقائق معدودات بمشاهدة الحديقة بعيوننا المجردة فقط لا غير.

بمغادرتنا للشارع الخارجي للساحة الحمراء التقينا بأول مجموعة من العرب منذ قدومنا إلى روسيا، وكانوا شابين عراقيين مبتَعثين من الحكومة العراقية

---

[26] هناك مقولة وردت بفيلم Pretty Woman تقول: عن الأوبرا أعجبتني People's reactions to opera the first time they see it is very dramatic, they either love it or they hate it. If they love it, they will always love it. If they don't, they may learn to appreciate it, but it will never become part of their soul.





لاستكمال الدراسات العليا بجامعة موسكو. تحدثنا لبعض الوقت عن الحياة في روسيا ودراستهما ثم دلانا على منطقة المطاعم الأمريكية الشهيرة للوجبات السريعة، التي كنا نجهل وجودها في محيط الساحة الحمراء، ويبدو أن هذه الساحة مثل كنز "علي بابا" لا ينتهي اكتشافه، حيث أننا عندما ذهبنا إلى منطقة المطاعم تفاجئنا أن المنطقة ليست مطاعم موجودة بشكل عشوائي، وإنما تم تنسيق المنطقة المجاورة لها وإطلالتها على المدخل الجانبي للساحة الحمراء وعلى مقربة من ضريح لينين [٢٧] .

ومن الجدير بالذكر أننا اكتشفنا هنا بعدًا آخر لكراهية الروس للغة الإنجليزية، أو على الأقل عدم ترحيبهم بها، حيث أنه في كل البلدان التي سبق وزرناها كانت أسماء المطاعم الأمريكية الشهيرة تُكتب كما هي بالأحرف اللاتينية الإنجليزية مثل KFCأو Burger kingأو Subwayأو MacDonald's إلا أنه في روسيا كُسرت هذه القاعدة، حيث وجدنا أن هذه المطاعم تكتب أسماؤها بالأحرف الروسية والتي تختلف جذرياً بالطبع عن الأحرف اللاتينية الشهيرة، وأن سبيلك للاستدلال على هذه المطاعم هو من الشعار الخاص بكل مطعم "اللوجو" وهيئته المميزة والموحدة في كل مدن العالم.

دخل الأخوان فوزي إلى صديقنا الدائم في الغربة والترحال (ماكدونالدز)، وبقيت أنا منتظرا لهما على المنضدة التي سنتناول عليها طعامنا في الخارج في جو منعش وجميل، لا هو بالبرد ولا هو بالحر. تأخر الأخوان واتضح أن السبب في أن الطلب كان يتم بطرق التواصل الجسدية والإشارات لا عبر اللغات، حيث أن العاملين بالمطعم لا يتحدثون الإنجليزية، فضلًا على أن اللوحات المعلقة فوقهم "أي العاملون" كما كل هذه المطاعم بكل المدن المختلفة والتي تعرض بشكل دعائي ترويجي صورًا للوجبات المختلفة والسعر الخاص بكل وجبة، "والصور عادة بتكون مخادعة وبتعرض شكل الوجبة بأضعاف حجمها الحقيقي،

---

[٢٧] ضريح لينين: وهو ضريح فلاديمير لينين ولد في ٢٢ ابريل عام ١٨٧٠ وتوفي في ٢١ يناير عام ١٩٢٤، كان ثوريًا روسيًا ماركسيًا وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعًا شعاره "الأرض والخبز والسلام" .





وعندما يدبس الزبون ويشتري يكتشف أنه اشترى وجبة لا تمت للمُعلن عنها بصلة من ناحية الحجم".

وبالتالي كانت مفاوضات ومباحثات قمة لاختيار هل يتم إضافة البطاطس المقلية للوجبة أم لا داع؟ وما هو حجم المشروب الغازي؟ وأين نجد الكاتشب "صلصة الطماطم الحلوة"؟.

وعندما تم كل ذلك بسلام بعدما كان الجوع قد فعل بنا الأفاعيل وأتى محمود أولًا حاملًا صينية بلاستيكية عليها جزء من الوجبات على أن يأتي أحمد حاملًا الصينية الأخرى، وعند محاولة أحمد الخروج من الباب وقعت إحدى علب المشروبات الغازية فأفسدت جزءاَ مما كان على الصينية وما كان من بد من طلب غيرها "قال يعنى هي كانت ناقصة".

من اللافت للنظر حينها هو حالة الطقس غير المستقرة في موسكو، فمَرّة ليلًا هو طقس بارد يستدعي الملابس الثقيلة، وتارة أخرى بارد وممطر أيضًا، ومرة ثالثة صحو نهاراً للغاية بارد ليلًا، ومرة رابعة معتدل نهاراً ومنعش ليلًا.

تناولنا الطعام وسط أجواء روسية جميلة، حيث الكثير من الشباب الروس والسائحون أيضًا يجلسون مستمتعين بالطقس والحديث بعضهم إلى بعض دون ضجيج وصخب - وهو ما يخبرني دومًا أننا شعب (صوته عالٍ) حيث لا نجلس في مكان إلا وترتفع أصواتنا في أحاديث عادية وليست شجارات. وأخيراً عدنا إلى الفندق واتخذنا بعض القرارات التي أثرت على ما بقي من الرحلة، وأصبحنا جاهزين للذهاب إلى سانت بطرسبرج في الصباح الباكر.



٦- إلى سانت بطرسبرج هيا يا رجال

بعدما أنهينا ليلتنا الساحرة وعدنا إلى الفندق اتخذنا بعض القرارات كان أهمها أنني سأترك المقعد المتحرك بأمانات الفندق حتى العودة مرة أخرى، حيث اكتشفنا بالتجربة العملية أنه سيكون مصدر إرهاق أكثر منه مصدرًا للراحة، أولًا لمعرفتي أنه يحتاج إلى مجهود لدفعه، يتكبد ذلك عادة محمود، ثانيًا لأنني إذا ما قررت استخدامه أثناء السفر إلى سانت بطرسبرج هذا يعني أن نذهب إلى المطار صباحًا مستخدمين سيارتين أجرة لا واحدة، حيث لن يتسع تاكسي واحد لحقائبنا والمقعد وثلاثة ركاب والسائق بالطبع، كما أنِّي لم أكن واثقًا إذا ما كان شحنه على الطائرة سيكون أمرًا ميسرًا أم لا، فضلًا عن التخوف من صعوبة إجراءات المطارات والتي رأينا "بشائرها" فور وصولنا، ولكل هذه الأسباب اتفقنا على ترك المقعد.

أما ثاني قراراتنا كان أن نخفف من أحمالنا وعدد حقائبنا، حيث أن الوزن المسموح لنا في السفر الدولي من القاهرة إلى موسكو يختلف كثيرًا عن الوزن المتاح لنا أثناء الطيران الداخلي، وهو أمر متعارف عليه عند السفر، وبناء عليه قررنا إعادة ترتيب حقائبنا واصطحاب حقيبتين فقط لثلاثتنا وترك الحقيبة الثالثة وبها بعض متعلقاتنا لدى أمانات الفندق كما المقعد، فتركنا في تلك الحقيبة ما نعلم أننا لن نحتاجه بسانت بيتر، أولًا البدلات الثلاثة والأحذية الـClassic حيث كنا قد سافرنا بملابس سهرة وأحذية مناسبة لها وذلك لارتدائها أثناء حضور العرض المسرحي الذى حجزناه في البولشوي وله قصة سأرويها لاحقًا، كما تركنا أيضًا المعاطف الثلاثة "البالطوهات"، حيث أننا كنا قد أخذنا معنا معاطف ثقيلة تحسبًا للبرد القارس، تقريبًا يزن كل واحد منهم أكثر من خمسة كيلوجرامات "تقدر تقول بطانية صغيرة" وبالتالي ترك هذه الأشياء بموسكو يعني أنه سيخفف الوزن بشكل كبير.



انتهينا من إعداد الحقائب وخلدنا إلى النومٍ استعدادًا للاستيقاظ المبكر للغاية، حيث أن موعد الطائرة كان في الثامنة صباحًا، مما يعني أن نكون بالمطار بحلول السادسة والنصف على أقصى تقدير، وبالتالي يلزم الاستيقاظ ومغادرة الفندق مع الفجر تقريباَ.

وقبل شروق الشمس كنا قد غادرنا الفندق مودعين لديهم أماناتنا وأخذنا تاكسي حتى مطار فونكوفو[٢٨] وهو مطار آخر غير الذيِ وصلنا فيه.

لم يكن المطار بعيدًا عن الفندق، كما لم يكن هناك زحام مروري من الأساس، وصلنا وأجرة التاكسي المستحقة ألفان روبل ومنحناه خمسة آلاف على أن يعطينا الباقي ولكن الرجل كان في أول اليوم "اصطباحة" وبالتالي لا توجد معه نقود كافية، فانتظرناه وهو يحاول أن يعثر على فكة الخمسة آلاف ويسأل الجميع، أصحاب السيارات الملاكي وسيارات التاكسي الأخرى ولكن الجميع يعتذر، وطال انتظارنا ونحن نريد الدخول للمطار لمتابعة إجراءات التسجيل وللاحتماء من برد الصباح، وبالتأكيد لم نكن على استعداد لترك الثلاثة آلاف روبل أو منحها بقشيشًا، فـأي بقشيش هذا الذى تتجاوز قيمته قيمة المنتج أو الخدمة ذاتها التي حصلنا عليها!

وبعدما أظهرنا بعض الضجر على ملامحنا أتى الفرج ووجد السائق شخصًا يحمل فكة، فمنحنا الثلاثة آلاف وهو يعتذر ويكرر الاعتذار بالروسية والإنجليزية "باعتبار الكلمة معروفة" وبلغة جسده أيضًا، عزّز هذا الموقف أيضًا الانطباع الذي أخذناه عن البلد وناسها.

دخلنا إلى المطار، جميل وأنيق وصغير بعض الشيء، وكنا نسمع في ردهات المطار النداء الصوتي للمسافرين المغادرين إلى شرم الشيخ، وقد اكتشفنا أن مطار فونكوفو هو الأول بروسيا في عدد الرحلات التي تُقلع منه إلى شرم الشيخ والعكس.

---

[٢٨] مطار فونكوفو: يقع على بعد ٢٨ كيلومتر جنوب غرب مركز موسكو، روسيا، وهو واحد من المطارات الثلاثة الرئيسية التي تخدم موسكو، بالإضافة إلى مطار دوموديدوفو الدولي ومطار شيريميتييفو الدولي.





وقفنا في الطابور منتظرين دورنا لتسجيل تذاكرنا وتسليم الحقائب، ولكننا وجدنا بجوارنا سيدة تحمل وزنًا زائدًا وطالبتها الموظفة الروسية الحسناء - بطبيعة الحال - بتخفيف ذلك الوزن أو شراء كيلو جرامات إضافية، فما كان من السيدة إلا أن خرجت من الصف هي وفتاة أخرى كانت معها، وظلتا تنقلا بعض محتويات حقيبتها إلى حقيبة بلاستيكية كبيرة يمكن أن تصعد بها على متن الطائرة، خشينا أن نتعرض لمصير مشابه ولكن الأمور مرت بسلام.

بعد قليل، أصبحنا على متن الطائرة وكانت بالطبع طائرة صغيرة للغاية مناسبة لرحلة داخلية قصيرة المدة لا تتجاوز الساعة والربع، كنا بالطبع نرغب في النوم وبشدة حيث أننا لم نحصل على كفايتنا من النوم في الليلة الماضية، فما إن تم الإقلاع حتى ذهب ثلاثتنا في سبات عميق، وأعتقد أن هذه هي أول مرة أستطيع أن أنام فيها بعمق في طائرة، ولكن الأخوان فوزي معتادان على ذلك. كان حظنا رحلة مليئة بالمطبات الجوية، ومن جراء أحد هذه المطبات الملعونة استيقظنا مفزوعين، وظننا أن الأمر به سوء وأننا على وشك السقوط أو ما شابه، إلا أن الله سلّم وسارت الرحلة على ما يرام، وهبطنا إلى مطار سانت بطرسبرج بسلام.

عند السفر الداخلي لا توجد إجراءات دخول من الأساس، فأنت تهبط وتصل إلى صالة المطار ومنها إلى سير الحقائب لاستلام أمتعتك، ولا تتعرض لا لتفتيش ولا "للويزا" ولا أيّة أسئلة.

خرجنا بعد ذلك لاستقلال تاكسي ووجدنا مجموعة من السائقين وكل واحد منهم عرض سعراً مختلفًا، وفي نهاية الأمر اتفقنا مع سائق شاب "حلنجي [٢٩]" إذا ما أردنا وصفه، حيث اتفق معنا في بادئ الأمر على مبلغ ألف روبل، ولكنه كان

[٢٩] الحلنجي: يأتي معنى وأصل هذه الكلمة من الحلج، والحلج هو ضرب القطن بشدة مما يساعد على تخلل كمية كبيرة من الهواء بين شعيرات القطن فيبدو أكبر من حجمه الطبيعي، ولذا يُسمى الكاذب المبالغ في وصف الأشياء بحجم أكبر منها، أما الحلنجي وهي كلمة بها مقطع أعجمي (جي) تعطي معنى اسم الفاعل والنون للتخفيف، والحلنجي هو الذي يعمل من البحر طحينة كما تقول العامية المصرية وربما أعطت الكلمة معنى أشمل عن الخداع.





يتحدث عن الزحام المروري ببعض المفردات الإنجليزية المتكسرة "غير السليمة أو الواضحة"؛ ركبنا معه ولأنه كان لديه القليل من المعرفة بالإنجليزية تمكنا من إجراء شبه محادثة عرفنا من خلالها أن زوجته وحماته وطفله في الغردقة في نفس الوقت يستمتعون بالشمس الدافئة في مصر، حينها كان الطقس فعلًا باردًا عكس الطقس نهارًا بموسكو. سألناه عن تكلفة سفرهم واكتشفنا أنها ليست ضخمة على الإطلاق، حيث أن الإقامة لمدة عشرة أيام بفندق أربعة نجوم وإقامة All inclusive"؛ أي تشمل وجبات الإفطار والغذاء والعشاء والمشروبات الكحولية أيضًا "وتقريبًا كانت تكلفة رحلة الأشخاص الثلاثة شاملة الطيران بالطبع تكلفة لا تتجاوز الألف دولار "قبل التعويم طبعًا".

بالطبع طوال هذه المحادثة كان الرجل ينطق بصعوبة ويستغرق وقتًا ليفكر في كلمة مناسبة، وينطق بشكل خاطئ في كثير من الأحيان فلا نفهمه نحن بسهولة، خاصة الكلمات التي بها حرف الـ H حيث ينطقه على إنه خاء.

خلال هذه الأحاديث كنا نشاهد من نافذة السيارة سانت بطرسبرج من حولنا، حتمًا ستقع في غرام تلك المدينة الساحرة، باختصار ستدرك أنك في متحف مفتوح، المدينة بأكملها يمكن تصنيفها هكذا "متحف مفتوح" رائع وساحر، ستشعر أنك وسط مدينة حديثة وعريقة في وقت واحد، لك أن تعرف أن المدينة بأكملها كل مبانيها الحكومية والخاصة لا تتجاوز الستة طوابق، فلا أبراج ولا ناطحات سحاب ولا مبانٍ طويلة وأخرى قصيرة بجوارها كما اعتدنا أن نرى خاصة هنا بمصر، وحدة في البناء وبالتالي وحدة في المتعة البصرية، كما أن غالبية المباني تقع على ضفاف نهر (فونتكا)، حيث أن النهر والجسور التي تصل منطقة بأخرى تقريبًا ستجدها في أرجاء المدينة حيثما ذهبت، هذا فضلًا عن كون جميع الأبنية ذات طابع عريق وأثري حتى وإن كان تم بنائها حديثًا. باختصار هي كما وُصفت فينيسيا أوروبا الشرقية وبجدارة.

وصلنا إلى الفندقAsteria Hotel وطلب ذلك السائق الحلنجي ألف وأربعمائة روبل كأجرة، متعللًا بالزحام وطول الطريق، فاصلناه ودفعنا فقط ألف ومائتان. أنزل محمود الحقائب من السيارة ودخل أحمد إلى الفندق ليقوم بتسجيل إجراءات الوصول واستلام الغرفة. كان الفندق يقع على إطلالة رائعة ومباشرة على النهر، تمنينا الحصول على غرفة تحمل نفس الإطلالة وهو ما حدث





بالفعل، بعدما وجدنا أحمد يخرج من الفندق مبتسمًا ليعاون شقيقه في جر الحقائب، سألناه عن سبب الابتسامة هذه فأجابنا أن موظفة الاستقبال لا تتحدث الإنجليزية فحسب بل "دي بتتكلم عربي ومتجوزة أشرف من بنى سويف"، وسعدت السيدة عند معرفتها أننا مصريون "بلديات" زوجها، ونحن أيضًا سعدنا بهذه المعلومة وعلقنا بمزاح "المصري طول عمره معروف بقوته وبجبروته، يا بختك يا أشرف ياللي من بني سويف".

دخلنا إلى الفندق الذي يغلب عليه الأصالة والعراقة في الشكل وكأنه يحاكي بعض فنادق العاصمة البريطانية لندن - تسألني وهل ذهبت إلى لندن؟ أخبرك أنه حتى الآن لا لم أذهب بعد، ولكن شاهدت بعض البرامج عن فنادق تحمل طابعًا عريقًا كهذا "ع التلفزيون".

رحبت بنا "مدام أشرف"، حيث هكذا توافقنا على تسميتها كما أن ذاكرتي لم تحتفظ باسمها، وهي سيدة رقيقة في أوائل الثلاثينات من العمر، متعاونة، لم تتأخر عندما طلبنا منها غرفة مطلة على النهر.

صعدنا بعد ذلك إلى الغرفة التي كانت فسيحة بأثاث كلاسيكي، كان المنظر أخاذًا بمجرد أن أزحنا الستائر عن النافذة، نحن فعلًا أمام النهر مباشرة، وتلك المراكب الصغيرة التي تقوم بالجولات السياحية في النهر تعبر أمامنا جيئة وذهابًا، ربما عيب الغرفة الوحيد أنها لم تكن بثلاثة أسرّة مستقلة وإنما بسرير كبير لشخصين وكنبة صغيرة العرض "أقل من ١٠٠ سم" تستخدم كسرير للشخص الثالث بالطبع، وكالعادة أصر محمود بشهامته أن ينام هو عليها وهو إصرار حقيقي يعنيه الرجل وليست "عزومة مراكبية" كما يقولون، كما أصر أحمد على أن نتقاسم السرير سويًا، ولكنني رفضت ذلك تمامًا. أولًا: لأني بالفعل قد ضقت ذرعًا من شهامتهما المفرطة كل مرة فيما يتعلق بأمر النوم والأسرّة، ثانيًا: لأنني فضلت النوم منفردًا لدواع السلامة، فربما إذا ما نمت بجوار أحمد أن يتحرك أثناء نومه دافعًا إياي عن دون قصد، وربما تأتي هذه الضربة أو الدفعة في قدمي فتزيد الطين بلة، ومع إصراري وتوضيحي لهما وجهة نظري هذه وافقا في نهاية الأمر على تركي أنام على الكنبة.

ومن الطريف أن الثلاجة في هذه الغرفة كانت مغلقة كما كانت سالفتها بفندق موسكو، وكأن الروس لا يعطون الأمان لأحد، وأنه عندما يتعلق الأمر





بالأموال يصبح التشكيك سيد الموقف. سألت الاستعلامات هاتفيّا عن مبلغ التأمين المطلوب لنتمكن من استخدام الثلاجة ولكن أجابتني "مدام أشرف" أن التأمين هذا سيتم دفعه إذا ما رغبنا بفتح الثلاجة والاحتفاظ بالمنتجات الموجودة بها، أما إذا ما رغبنا في فتحها والتخلص من محتوياتها فلن ندفع تأمينًا، وبالطبع اخترنا الحل الثاني وهو إفراغ الثلاجة من محتوياتها بمعرفة الفندق ونستخدمها نحن كيفما نشاء.

وما هي إلا بضع دقائق ودق باب الغرفة بإحدى العاملات وفى يدها مفتاح الثلاجة و"كيس" كبير حيث أفرغت ما كان داخلها من زجاجات خمر متعددة الأنواع والماركات "حيث الويسكي والفودكا والنبيذ، وذلك الذي طالما سمعت عنه في الأفلام القديمة ولم أره الكونياك "صحيح سبق ورأيت زجاجات خمور بفنادق مدن مختلفة لكن عادة ما تكون هذه الزجاجات عنصرًا مكملًا للثلاجة بجوار عناصر أخرى من الأطعمة والمشروبات الغازية، لكن ما أثار دهشتي هذه المرة هو كمية الزجاجات التي طغت على أنواع البضائع والمنتجات الأخرى، صراحة التمست العذر للفندق في أن يطلب تأمينًا مقابل استخدام الثلاجة وهي تحتوى كل هذه الكمية من الخمور، حيث أنه من الممكن أن "تشرب وتنسى، أو تشرب وتقول ماشربتش".

وبعيدًا عن الثلاجة التي طال الكلام عنها، حينها كنا جائعين وبالطبع فضلت الانتظار في الفندق إلى أن يذهب الأخوان فوزي لشراء الطعام واستكشاف المدينة لبعض الوقت. وبعد قرابة الساعة والنصف - والتي أمضيتها في حالة من الصفاء لا مثيل لها جالسًا ومستمتعًا بإطلالة الغرفة على النهر معانقًا سحاب السماء في منظر يحتاج إلى فنان حقيقي وموهوب لرسمه لا مجرد وصفه بالكلمات- عادا ومعهما وجبة لي من ماكدونالدز، تناولتها في نهم حيث أن "الجوع كافر" وسمعت حديثهما عن المدينة التي سحرتهما وسحرتني منذ اللحظات الأولى.

كنا في حاجة إلى النوم، فخلدنا إلى النوم لثلاث ساعات، ثم استيقظنا ليكون سؤالنا هو سؤال القناة الأولى المصرية قبل نشرة السادسة مساء في سالف العصر والأوان "أين نذهب هذا المساء؟" ارتدينا ملابس شتوية هذه المرة، فعندما فتحنا النافذة استرقاقًا لحالة الطقس بالخارج، عرفنا توًا أن الجو بالخارج "تلج، صواريخ هوا" كما يحلو لنا أن نصف شتاءنا بمصر بهذه الأوصاف والتي قطعًا هي



تحمل مبالغة كبيرة هنا في مصر لكنها في محلها تمامًا هناك بروسيا. جدير بالذكر أننا "محمود وأنا" كنا قد ارتكبنا حماقة لا تُغتفر أثناء استعدادنا للنزول وارتداء ملابسنا سأوضحها عما قريب.

سألنا "مدام أشرف" ما الأماكن التي تقترحها علينا لزيارتها في أول ليلة لنا بالمدينة، وخلصنا منها إلى إجابة عامة غير دقيقة، وهي أن نستكشف المدينة ليلًا بالسير في شوارعها المختلفة حتى نصل إلى جسر القصر[٣٠] وهو جسر يتم فتحه وإغلاقه بفصله إلى نصفين يرتفعان عند غلقه "أي عدم السماح للسيارات باستخدامه والمرور عليه "ليصبحا بوضع "رأسي" متقابلين ينظران إلى السماء، وهذا الانقسام يحدث بمواعيد متعددة على مدار اليوم وهو مشهد يحرص الزائرون لهذه المدينة على مشاهدته، خاصة عندما تجد أن أعمدة الإنارة على جانبي الجسر والتي تكون بوضعها السليم والطبيعي في حال استخدامه قد أصبحت منقلبة بزاوية حادة "متشقلبة" عند غلقه.

راجعنا الأوقات التي يمكننا فيها أن نشاهد هذا الجسر وهو ينفتح وينغلق، وكان أقرب موعد لهذا هو بعد منتصف الليل.

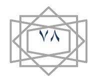
وبمجرد خروجنا من باب الفندق "اتصدمنا" في الطقس، حيث إن استرقاق وضعية الجو عبر النافذة "كوم" والحقيقة العارية في الشارع "كوم تاني خالص".. ما هذا "الفريزر"؟ حيث كانت درجة الحرارة مساء يوم الثلاثاء الموافق ٩/٢٢ درجتان لا غير، صحيح ليست صفرية أو دون الصفر، ولكنها درجة ليست معتادة لدينا في شتائنا المصري حيث "حلاوة شمسنا، وخفة ضلنا".

واسمح لي أن أصف لك ما كنت أرتديه حينها، فضلًا طبعًا عن الفانلة الداخلية الحمالات، أخرى نصف كم ثم بلوفر صوف يتبعه جاكت تلحقه كوفية ومع ذلك كنت أشعر بالبرد يدغدغ جسدي، وبالطبع كان الأخوان فوزي يرتديان ملابس مماثلة.

---

[٣٠] رابط لمشاهدة جسر القصر كما وصفته:

https://www.youtube.com/watch?v=esb9G5HN6_A



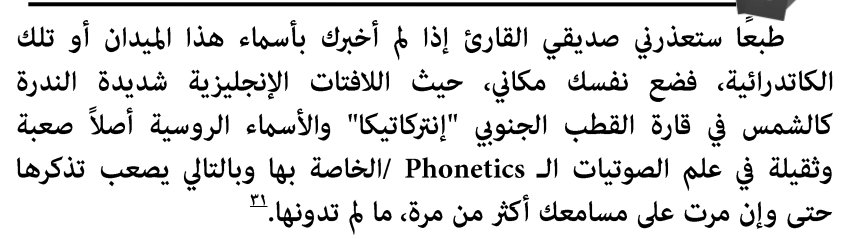


كنا نعلم أننا على مقربة من محطة المترو، وهو ما كان لا بد من استخدامه أولًا واكتشافه ثانياَ؛ لأن الجسر ليس بالقريب منا فنمشي له، ليس في حالتي العادية ولا وأنا سائر بالعكاز، فسرنا حتى وصلنا إلى مبنى محطة ودخلنا إليها ظنًا منا أنها محطة مترو، وطالبنا الموظف بثلاث تذاكر إلى أن اكتشفنا بعد محاولات الفهم باستخدام لغة الإشارة - كالعادة- والملصقات الدعائية، أننا داخل محطة سكة حديد، أي محطة قطارات لا المترو، وأن تلك المنشودة هي بجوار هذه المحطة.

ذهبنا إلى محطة المترو وكنا بمساعدة "مدام أشرف" نعرف أي محطة يجب أن نترجل عندها، فاشترينا التذاكر الثلاث وبدأت رحلة استكشاف المترو، وهو في سانت بطرسبرج لا يختلف كثيراَ عن نظيره بموسكو. لم يكن مزدحمًا، ويبدو عريقًا وقديمًا للغاية، ومحطاته ذات طابع تراثي أثري فخم. وصلنا إلى المحطة المنشودة وخرجنا فوجدنا شارعًا رحبًا ومتسعًا بشكل يثير الدهشة، ومع ذلك فهو يخلو من المارة، ومن السيارات والبشر على حد سواء، اللهم إلا قلة "ليست شريرة بالطبع وليست مندسة" ممن كانوا في طريقهم من أو إلى محطة المترو، الشارع الخاوي على عروشه هذا نظيف بالطبع وأنيق.

وقفنا لا نعرف كيف نسير ولا نريد أن نتحرك على غير هدى ثم نكتشف أننا أخطأنا في الاتجاه، وأنا أرغب في تقليص مدة المشي قدر المستطاع. وقفنا نلتقط بعض الصور في ذلك الشارع الفارغ الجميل إلى أن مر أحدهم فاستوقفناه بلطف وأريناه الخريطة التي كانت معنا وأشرنا له إلى مقصدنا، جسر القصر، حاول الرجل مساعدتنا ووصف لنا كيف نسير، وبالفعل سرنا كيفما قال نوعًا ما حيث يبدو أن الوصف لم يكن ليخلو من استخدام تعبيرات مثل (يسارًا ثم انعطف يمينًا ثم يمينًا آخر أو يسارًا) وهي مفردات لم نكن نعرف عنها شيئًا، فسرنا كما بدأ الرجل وصفته إلى أن وجدنا أنفسنا أمام إحدى أكبر الكاتدرائيات وأكثرها إبهارًا - من الشكل الخارجي- حيث أعمدة رخامية ضخمة وأيقونات بيزنطية من الخارج- التي سبق وشاهدتها إلى أن يحالفني الحظ وأشاهد كاتدرائيات الفاتيكان لأقارن وأحكم أيهما أضخم، والتي تطل على قلب ميدان فسيح بتقاطعات عدة.





طبعًا ستعذرني صديقي القارئ إذا لم أخبرك بأسماء هذا الميدان أو تلك الكاتدرائية، فضع نفسك مكاني، حيث اللافتات الإنجليزية شديدة الندرة كالشمس في قارة القطب الجنوبي "إنتركاتيكا" والأسماء الروسية أصلاً صعبة وثقيلة في علم الصوتيات الـ Phonetics /الخاصة بها وبالتالي يصعب تذكرها حتى وإن مرت على مسامعك أكثر من مرة، ما لم تدونها.[٣١]

أكملنا المسير وعبرنا بجوار إحدى الحدائق المفتوحة بالطبع، فجلسنا بناءَ على طلبي التماسًا للراحة بعض الشيء، ثم تحركنا من جديد مغادرين الحديقة، وما هي إلا بضع مئات من الأمتار حتى وجدنا أنفسنا قد وصلنا إلى الجسر المطل على النهر بأكمله.

لك أن تعرف أن الأضواء الموجودة في الشوارع والمباني والمنشآت تجعلك تشعر بالبهجة والراحة معًا.

وقفنا على ذلك الجسر ونحن وبصراحة شديدة "نتكتك" من البرد، وكان شعوري ومحمود بالبرد حينها أكبر من شعور أحمد به لسبب بسيط وهي الحماقة التي أشرت إليها قبل قليل، أننا لم نرتدى تحت "بنطلوناتنا" الجينز ذلك الرداء الشتوي الرائع "الكلاسين والمفرد كلسون" وهو ذلك البنطال الصوف "وظهر منه مؤخرًا من قطونيل وأخواتها آخر من الجل ولكنه ليس بجودة نظيره الصوفي، بل ومن الممكن وصفه بالعامية المصرية بالهفأ "حيث أنه قد يصلح لأجواء الشتاء المصري والـ "كام يوم" الخاصين بشهر طوبة حيث نشعر نحن معشر المصريين بالبرد المفرط حينها.

أما البرد الروسي والأوروبي وابن عمومتهما الأمريكي فهو يحتاج ذلك "الكلسون الصوف" - وبالرغم من أن أحمد كان قد ارتدى كلسونه فإنه أيضًا كان مثلنا يشعر بالبرد، ذلك البرد الذى يجعل أنفك تسيل رغمًا عنك، وأصابع يديك تشعر بتخشبها بعض الشيء، أما وجهك فكأنك لا تشعر بوجوده أصلًا ولا يدلك على وجوده ربما سوى أنفك السائل "والتي تجد صعوبة في من يمد لها يد العون

---

[٣١] بالبحث عرفنا أن الكاتدرائية الكبرى التي مررنا بها هي كاتدرائية إسحاق والرواق وهي الأكبر حجمًا بسان بيتر، تحولت إلى متحف الآن ولكن يتم عمل صلوات الاحتفالات الدينية الكبرى بها.





بمنديل" حيث إن يديك في جيبك بحثًا عن دفء مفقود، وكذلك عينيك وما ترى وأذنك وما تسمع، ولولا هذا لشككت في إحساسك بوجهك من الأساس.

سجلنا أول مقطع فيديو لنا بسانت بطرسبرج، وبسبب البرد المفرط هذا لم نكن لنستطيع الصمود والانتظار حتى منتصف الليل لمشاهدة ذلك المشهد الذى لا يُفوت الخاص بالجسر، وفصله إلى جزئين.

وقبل أن نحسم الأمر ونسرع في البحث عن تاكسي يقلنا إلى الفندق مباشرة تجنبًا لعناء السير حتى محطة المترو من جديد في ذلك الزمهرير، أردنا أن نلتقط صورة لثلاثتنا فوق ذلك الجسر وخلفنا النهر ومبان عريقة كثيرة - لم نكن نعلمها حينئذ- وجميلة وإضاءة ولا أروع، فأردنا إيقاف أحد المارة، فكان أن مر بنا شابان يرتديان ثقيل الملابس وبيد كل واحدًا منهما زجاجة لم أتبين ماهيتها، فظننتها خمراً – وهو ظن طبيعي حيث أننا في روسيا- فقلت بالعربية وبصوت مسموع "خلينا نوقف الخمورجية السكرانين اللي جايين علينا دول" فلما اقتربا منا مد محمود يده بالهاتف متحدثًا بالإنجليزية أن من فضلكم التقطوا صورة لنا، فإذ بهما يتحدثان إلينا لا بالعربية فحسب ولكن باللهجة المصرية أيضًا، شعرت بالحرج لسببين الأول أنني لم أكن أعرف هل كان صوتي مرتفعًا فوصل إلى مسامعهما، والثاني أنهما لم يكن تبدو على هيئتهما أي علامات للسكر وبالتالي وجب العودة لقاعدة "إن بعض الظن إثم"، وسواء كان ما بأيديهما خمراً أو لا، وسواء كانا مصريين أو عرب أم لا، فالأمر لا يعنيني لا من قريب ولا من بعيد، فبالتأكيد "أنت حر ما لم تضر"، وعادة أحاول قدر جهدي ألا أكون شخصًا يمكن وصفه بالـ **Judgmental** / أي يحكم على الآخرين باستمرار، ربما كل ما في الأمر هو لذة خفية للحديث بلغتك و أنت تعتقد أن أحدًا لن يفهمك سوى من تُحدثه فقط، لتكتشف أن الدنيا كما نصفها بالعامية المصرية مثل "خُرم الإبرة" فنلتقي بمصريين في ليلة باردة بمدينة روسية بعيداً عن العاصمة.

المهم، التقطنا الصورة وشكرنا الشابين اللذين انصرفا بسرعة دون أي مساحة لتبادل أطراف الحديث الذى كان من الممكن أن يدور بيننا، حيث أنه "مش كل يوم" تلتقي بمصريين في شوارع سانت بطرسبرج، ولهذا أرجح أنهما قد سمعاني.
بعد ذلك حسمنا أمرنا من أنه لا مفر من العودة للفندق توًا وإلا تجمدنا بردًا، فما كان منا إلا أن بحثنا عن أقرب سيارة تاكسي وسرعان ما وجدنا واحدة تقف





بنهاية الجسر، فأسرع محمود خطاه ليحجزها وبوصولنا إليها اكتشفنا شيئًا هامًا وجوهريًا للغاية وهو أننا ببساطة لا نعرف عنوان الفندق وأننا لا نحمل كارتًا أو ورقة مدون بها اسم الفندق وعنوانه! وهذه من حماقات أو أخطاء "سنة أولى سفر" إن جاز التعبير وليست خطأ أشخاص أصبح لديهم باع في عالم السفر ولو نسبيا، فمن البديهي عند الخروج في بلد غريب وخاصة إذا ما كان التواصل عبر اللغة صعبا كما في حالتنا تلك أن نحتفظ بورقة صغيرة تيسر علينا الكثير.

هنا كان لا بد من خوض التجربة، تجربة تكرار اسم الفندق - فقط لا غير- على مسامع السائق لعله يعرفه، وكلما نطقنا باسم الفندق نطق السائق بكلمات لا نفهم مقصده منها، ولا نريد أن نومئ برؤوسنا في بلاهة فقد نوافق على شيء ليس صحيحًا، وبعد أن أدرك السائق أن التواصل لن يحدث بسبب اللغة، أشار لنا أن هيا اركبوا، وقد اتفقنا على الأجرة باستخدام الأرقام في الهاتف المحمول على أن تكون ٥٠٠ روبل، وصراحة إذا ما كان الرجل طلب أكثر لكنا منحناه، المهم أن نصل إلى الفندق بسلام.

وعلى ذكر اسم الفندق والذى كان (استوريا)، كان هناك فندقٌ آخر باسم (استوريا) ولكن بحروف لاتينية مختلفة، وهو ما سبب لبسًا لسائق تاكسي عجوز في مرة لاحقة بالرغم من أننا حينها كنا نحمل ورقة مكتوب فيها اسم الفندق وعنوانه، ولكن يبدو أن الرجل كان أميّا لا يجيد القراءة والكتابة واعتمد على الاسم الذى سمعه منا، أو أنه كان شارد الذهن.

وصلنا إلى الفندق بعد قليل بعدما استعان السائق بالـ **Google maps**، حيث الدفء التام لدرجة تجعلنا ما إن ظللنا مرتدين ملابسنا الثقيلة أن نشعر بالحر، وكان أول ما فعلناه حينها أن أخذ كل واحد منا كارتًا به عنوان الفندق وبياناته ووضعه بحافظته.

حينها كنا نشعر بالجوع وهذا طبيعي حيث كما نقول (الشتا بيجوّع) لكننا لم نكن نرغب في الخروج ثانية والبحث عن مطاعم، فسألنا عن مطعم الفندق وهل يعمل ويقدم وجبات الآن أم أن عمله يقتصر على تقديم وجبة الإفطار في النهار فقط؟ فكان من حسن حظنا أنه يعمل، فدخلنا وجلسنا على طاولة بجوار النافذة المطلة على النهر والشارع الرئيسي، وأتى إلينا النادل بقائمة الطعام وتركنا وانصرف.





جدير بالذكر أنه عندما عدنا إلى الفندق كانت وردية "Shift" "مدام أشرف" قد انتهت وحلت مكانها أليكساندرا، وأليكساندرا هذه لا ولن تُنسى، حيث أجمعنا أنها أجمل فتاة روسية قابلناها - والروسيات أصلًا جميلات، أو على أقل تقدير هي واحدة من أجمل عشر فتيات روسيات إذا ما أجريت مسابقة لاختيار ملكة جمال روسيا، حيث الشعر الأصفر والعيون الملونة والبشرة البيضاء بالطبع، ولا مساحيق تجميل ولا بهرجة ولا زينة، كتلة من الجمال الرباني البديع - يندرج حديثي هذا في نطاق الوصف العام للأحداث والأشياء والأماكن والشخصيات، ولا توجد به أي شبهة تنميط للمرأة بنظرة سطحية ساذجة تهتم بشكلها أو بجمالها فقط.

ولكن وحيث إنها سيرة وانفتحت فقد تكون هذه الأسطر ذكورية الطابع بعض الشيء: الروسيات جميلات بالطبع وهو أمر لا يقبل الجدال، وليس في حاجة إلى النقاش، وكذلك الروسيون أيضًا حيث ينطبق عليهم "أي رجالهم" وصف سبق وكتبه الراحل "أسامة أنور عكاشة" بـأحد أعماله الدرامية قائلًا "دول رجالتهم أحلى من نسواننا"، إلا أنه من العجيب والمثير واللافت للدهشة ما الذى يدفع هؤلاء الجميلات للغاية إلى الارتباط بمصريين؟! فلماذا تركت مدام أشرف كل الرجال "الأمامير إن جاز القول" حولها وارتبطت بـ "أشرف" من بني سويف! "بلاش" ما الذي دفع الأميرة ديانا "الإنجليزية بالطبع" إلى ترك كل رجال الإنجليز الملكي منهم والعامي لتقع في غرام المصري دودي/عماد الفايد؟ صحيح أن عماد كان شابًا وسيمًا ولكنها وسامة مصرية عادية. لن استغرق في جزئية الفرعون المصري جاهز للاحتفال هذه أكثر من هذا، ولكن ربما نملك سحرًا لا نعلمه.

ولنعود لموضوعنا مرة أخرى، الطعام، ولأننا لم نكن قد جربنا إفطار الفندق بعد فكانت أليكساندرا هي من دلتنا على مكان المطعم واصطحبتنا إليه.

كانت الطلبات في قائمة الطعام مكتوبة بالروسية والإنجليزية معًا، اخترنا الأطباق التي استهوتنا، وأتى النادل وأمليناه رغباتنا وكنا نريد أشياء معينة في طريقة الإعداد كأن نستوثق أن المكونات تخلو من الخمور ولحم الخنزير ومشتقاته، فحاولنا شرح ذلك له بالإنجليزية إلا أنه لم يفهمنا تمامًا وظهرت على وجهه ملامح (البلَم) بفغر فاه دلالة على ما لبث أن قاله No English فأشار مستأذنا وذهب عائدًا بأليكساندرا التي تولت الترجمة ـ ولأننا كنا نتحدث مع





بعضنا البعض بالعربية أثناء ذلك، سألتنا أليكساندرا مستفسرة، هل نحن من إيران ونتحدث الفارسية؟

فـأجبنا بـ "لا، أننا مصريين ونتحدث باللغة العربية"، فابتسمت ابتسامة ساحرة وخجولة واستأذنتنا وانصرفت، وبعد قليل أتت الأطباق ساخنة شهية ولذيذة للغاية.

وما زلت أذكر مذاق أطعم Pasta بالـ white sauce (مكرونة بالصلصة البيضاء) تناولتها على الإطلاق وبالرغم من جودة الطعام ودفء المكان وحسن الخدمة فإن التكلفة كانت مقبولة جدًا وليست باهظة كما هو المعتاد في الأجواء المماثلة، وكنا قد نوينا أن نكرر مسألة تناول الطعام بالفندق خلال القادم من أيام إقامتنا بسانت بطرسبرج.

كان من اللافت لانتباهنا أثناء تناولنا الطعام أن المكان يشغّل أغاني روسية، وأنها تتمتع بجاذبية في اللحن والإيقاع، وفعلًا الموسيقى عابرة للقارات والحواجز واللغات.

صعدنا بعد ذلك إلى غرفتنا الدافئة، وكالعادة كان أول ما فعلناه أن حاولنا تشغيل التلفاز الذى كان بالفعل يعمل عندما استلمنا الغرفة، ولكنه ها هو الآن "مش حاطط منطق"، صحيح أن معرفتنا بالروسية منعدمة وأن غالبية القنوات الموجودة ناطقة بها وبالتالي فلا شيء مُفتقد، إلا أنه بحكم عادتنا نحن الثلاثة كنا نرغب دومًا أن نجعل التلفاز يعمل ولو سيكون في خلفية حياتنا داخل الغرفة as a background، وعندما فشلنا في تشغيله من جديد اتصلنا بالاستقبال، فأجابت أليكساندرا، فـشرحت لها المشكلة، فما كان منها إلا أن صعدت إلى غرفتنا بنفسها لتحاول.

كان يبدو على الفتاة آيات الخجل من كونها في غرفتنا بمفردها، فأبقينا على الباب مفتوحًا كما تقتضي الأصول والذوق، ولمّا لم تتمكن من تشغيله هي الأخرى استدعت النادل عبر الهاتف، وأثناء انتظاره شعرت بالحرج من بقائها معنا في الغرفة فاستأذنت لتنتظره بالخارج، وبعد قليل أتيا الاثنان معًا وشرحت له هي بالروسية المشكلة، وحاول الشاب جاهدًا تشغيل الجهاز بأكثر من طريقة إلى أن تمكن من ذلك بالفعل، ولم ندر ماذا كانت المشكلة في الأساس.





شكرناه بالإنجليزية بكلمة الشكر التقليدية Thank you فلم يعرنا اهتمامًا ومضى إلى حال سبيله، فاستوقفته أليكساندرا مُعلّمة إياه أن عليه أن يرد علينا قائلاً You are Welcome فقال الشاب كما أخبرته وانصرفا كليهما، وأمضينا باقي الليلة في الكلام بشكل ذكوري عن أن الزواج من واحدة كـأليكساندرا هذه هو السعادة بعينها وأنه "هو فيه جمال كده".

وهكذا انتهى يومنا الأول في المدينة الجميلة معمارًا وطرقًا والباردة طقسًا ومناخًا (سانت بطرسبرج).



٧-الأرميتاج والنور

ها هي الأيام الجميلة تمضي بسرعة البرق، وإذ نحن في يومنا الخامس من رحلتنا العجيبة بكل المقاييس، وكان هذا اليوم يوافق وقفة عرفات "عيد الأضحى" لعام ٢٠١٥، ولأننا بعيدون عن الأجواء الإسلامية والبث المباشر لخطبة يوم عرفة من مكة المكرمة وحتى صيام ذلك اليوم، لذلك كانت أجواء قضاء وقفة العيد أوروبية نوعًا ما.

من المستحيل أن تزور سانت بطرسبرج وتقضي بها أيامًا دون أن تزور الأرميتاج [٣٢]، والأرميتاج هذا يُعد من أقدم وأكبر المتاحف في العالم، ويتكون من مجموعة من القصور (خمس مباني مترابطة داخليًا) ويحتوي على ثلاثة ملايين تحفة فنية (لا يتم عرضها في وقت واحد)، كما يحطم المتحف الرقم القياسي في موسوعة جينيس للأرقام القياسية في عدد القطع واللوحات الفنية الموجودة به، صراحة ولأننا لسنا من المهتمين بفن الرسم لم نكن قد سمعنا عن المتحف من قبل، وبالرغم من مساحته الشاسعة وعدد معروضاته الضخم فإنه كان بالنسبة لنا - غير المهتمين بالمتاحف والفنون والآثار- لم يكن في شهرة متحف اللوفر الشهير بفرنسا.

ولكن قبل السفر وأثناء البحث عن الأماكن التي لا يجب أن تُفَوّت إذا ما زرنا سانت بطرسبرج ظهر لنا الأرميتاج، لذلك حرصنا على زيارته، وكنا نعلم أنه سيأخذ منا نصف يوم كامل إن لم يكن أكثر، حيث تشير بعض التقارير أنه لتتمكن من زيارة الأرميتاج كاملًا ربما تحتاج إلى أكثر من يومين، فتقريبًا نحن نتحدث عن ألف قاعة وصالة عرض.

استيقظنا صباح الأربعاء الموافق ٩/٢٣ وتناولنا وجبة الإفطار في المطعم المفتوح بالفندق، ثم تحركنا كالعادة باستخدام التاكسي، ووصلنا أمام الأرميتاج

---

[٣٢] متحف الأرميتاج: أو الهيرميتاج، تم تشييده في القرن الثامن عشر بأمر من الإمبراطورة إليزابيث وتم افتتاحه عام ١٨٥٢ كقصر لا متحف وتمت تسميته بهذا الاسم الفرنسي الأصل بمعنى "خلوة" لبعده عن مراسم البروتوكول، إلى أن قامت الثورة البلشيفية عام ١٩١٧ وتمت مصادرة القصر وتحول إلى متحف، وللمتحف فروع دولية في لندن، أمستردام، لاس فيغاس.





ولكن السائق كان قد أخطأ في البوابة التي يجب أن يتوقف بنا أمامها، حيث أنه أنزلنا أمام البوابة الخاصة بالرحلات الجماعية والأفواج السياحية وليست الزيارات الفردية.

وعندما اكتشفنا الأمر كان قد سبق السيف العزل؛ أي أن سائق التاكسي قد أخذ أجرته وانطلق، فذهب الأخوان فوزي ليشتريا تذاكر الدخول، ولأنني من خبرتي في انتظارهما أمام مسرح الكرملين أثناء ذهابهما لشراء تذاكر عرض بالية بحيرة البجع كنت أتوقع أن يستغرقا وقتًا، لذلك آثرت الجلوس موفراً ما لدي من قدرة على الوقوف والسير لاستخدامها داخل المتحف، فعبرت الطريق وجلست على المقاعد الإسمنتية المقابلة للنهر إلى أن أتى الأخوان ومعهما التذاكر بعد ربع ساعة تقريباَ.

فتحركنا صوب بوابات الدخول، وبمجرد دخولنا وجدنا من لاحظ سيري باستخدام العكاز، فأشار أنه من الممكن الحصول على مقعد متحرك مجانًا أثناء الزيارة، على أن أترك فقط أي وثيقة إثبات هوية، فذهبنا إلى المكتب المسئول عن ذلك ولم يكن معي ولا مع الأخوين فوزي حينها أي جواز سفر، وإنما كالعادة صورة ضوئية من جوازات كل منا وصورة من التأشيرة حفاظًا على الجوازات نفسها من التعرض للضياع أو التلف، ظننت أني لن أحصل على المقعد، ولكن هذا لم يحدث، فـالسيدة اللطيفة التي لم تقبل بالصورة الضوئية وافقت بقبول بطاقة الرقم القومي المصري عندما أوضحت لها أن هذه هي الـ National ID الخاص بي، والعجيب أنها قبلت بالبطاقة التي لا تحتوي على حرف باللغة الإنجليزية أو الحروف اللاتينية ولا حتى اسمي؛ أي أنها قبلت ولا تعلم ما إن كنت صادقًا بالفعل وما منحته لها هي بطاقتي أم كارنيه عضوية نادي مثلًا؟.

وما هي إلا دقائق وكنت قد حصلت على مقعد متحرك لا يختلف إطلاقًا عن نظيره الذى كان معي بموسكو، أتذكر هذا وأجَد نفسى أقارن رغماً عني، فـهذا مقعد متحرك بمكان تاريخي وثقافي لا علاقة له بالطب والمرض، وكان بحالة رائعة وكأني أول شخص يستخدمه، في حين أننا نجد لدينا المقاعد المتحركة الموجودة بالمستشفيات - وأكرر المستشفيات يا سادة - كالخُردة أو مخلفات الحروب أو المُعاد تصنيعها من بقايا خامات من الحديد.



حصلنا على المقعد وجلست عليه وطويت العصا التي معي وبدأ أحمد في دفعي، ودخلنا لتبدأ جولتنا داخل الأرميتاج، وسرعان ما اكتشفت أن هذا المقعد مع أرضية المتحف كان يمكنني أن أحركه بنفسي دون الحاجة إلى من يدفعني وهو الأمر الذي اكتشفت أنه يحتاج لعضلات ذراع قوية "عضلات الباي" وإلا أصبح الأمر مرهقًا للشخص الجالس على المقعد، ولكني فعلتها على أيّة حال، فلم أرغب في أن أكون عبئًا على أي من الأخوين فوزي (بالرغم من أنهما لم يشتكيا)، ولرغبتي في جعلهما أحرارًا أثناء مشاهدة المتحف، صحيح أني كنت على وشك عمل بعض الحوادث مع بعض المعروضات والتي تتواجد في الطرقات دون كردون أو سياج من تلك الأحبال ذات اللون الأحمر القاني (النبيتي) التي عادة ما تكون موجودة في المتاحف أو حتى خلف ألواح زجاجية، بل جزء من المعروضات يتواجد على مناضد في الطرقات وأنت تسير بينها وتشاهد بأريحية تامة، وعلى الرغم من هذا لا يحق لك لمس أيًا منها بالطبع، كما أن كل إنش من المكان مُغطى بالكاميرات.

وكم كانت الاستهلالية مبهرة حقًا، حيث يوجد بهو كبير يبدو بالفعل مثل بهو القصور الملكية سواء عندنا بمصر أو القصور الفخمة الموجودة بإسطنبول، حيث ينتهي البهو موصلًا إياك إلى درج صاعدًا بك إلى الطابقين الثاني والثالث، وروعة اختيار الألوان حيث الأبيض الناصع الموشى بزخات من اللون الذهبي هو لون الحوائط والتماثيل الرخامية التي هي أعمدة المكان ولكن بمعمار فني اللمسات، كذلك اللون الأحمر للسجاد المفروش على الدرج، وإذا ما رفعت رأسك ناظرًا للسقف ستجد لوحات مرسومة على غالبية أسقف قاعات المتحف المختلفة، أما الأرضيات فهي أيضًا حكاية فنية، صحيح هي من الباركيه الفاخر ولكنها لا تخلو من الرسوم والنقشات والتي تظن معها أنها تريد أن تروي قصة هي الأخرى، وبالتالي وسط كل هذه الفخامة والأبّهة ستشعر أنك نجم يتم الاحتفاء به في مهرجان ما.



سرنا لنشاهد ونشاهد، وكان من اللافت للنظر وبوضوح أن المتحف ليس متحفًا للآثار في المقام الأول، وإنما هو متحف فني للوحات فنية للفنانين المشهورين بالنسبة لنا أمثال بيكاسو ودافنشي وفان جوخ وغير المشهورين -بالنسبة لنا بالطبع- أمثال: فان ديك، رامبرانت، بوسان، جيوفاني انطونيو كانال، مونيه، رينوار وغيرهم ممن لم يسبق لنا أن سمعنا عنهم باعتبار أننا لسنا من المهتمين بعالم الرسم، كما أن اللوحات المعروضة من كافة العصور الفنية التي كنا نسمع عنها أيام الدراسة الجامعية، حيث نجد لوحات لفناني عصر النهضة وفناني عصر الباروك والباروك الفلمنكى "بالتأكيد لا علاقة له بالجبن الفلمنك بل هي أمور فنية مش هنشغل بالنا بيها"

حيث توجد بجوار كل لوحة شرح ومعلومات عنها، تاريخها والوقت المستغرق لإتمامها والانتهاء منها، وأبرز الحكايات الخاصة باللوحة، ولك أن تعلم أن بعض اللوحات استغرق الانتهاء منها ما يربو عن العشر سنوات.

اكتشفنا أن كثيراً من المعروضات قادم من إيطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية - ولا نعرف كيفية عملية الانتقال والجلب من إيطاليا إلى روسيا؟ هل تم ذلك بعمليات بيع وشراء شرعية؟ أم أن أجواء الحرب قد تركت أثرها وانتقلت هذه الكنوز الفنية بالنهب والسلب كإحدى ضرائب الحروب المؤسفة - والتي تعيد للأذهان تلك المشاهد المصوّرة التي لا ينساها أغلبنا لنهب المتاحف العراقية عيانًا بيانًا جهارًا نهارًا على مرأى ومسمع من العالم كله عقب سقوط العاصمة العراقية بغداد عام ٢٠٠٣ – وكذلك كثير من الأعمال من فرنسا والبعض من تركيا وأعمال عديدة من روسيا بالطبع وغيرها من الدول.

بعض اللوحات كان بجوارها لافتة المعلومات الخاصة بها باللغتين الإنجليزية والروسية، والبعض الآخر لم يكن موجودًا سوى معلومات باللغة الروسية فقط ولم نكن نفهم سبب هذا الأمر مع لوحات بعينها.

ودعنا من ذلك عزيزي القارئ فأنت كمصري أصيل مثلنا وما لم تكن طالبًا أو خريجًا لكلية الفنون الجميلة فإن اهتمامك بفن الرسم ربما يفوق اهتمامك بفن البالية بشكل نسبي ملحوظ، في الوقت الذي إذا ما قارنا اهتمامك واهتمامنا معك بالطبع (فيا عزيزي كلنا مصريون) بفنون كالسينما والمسرح والدراما سنجد بالقطع اختلافًا ملحوظًا، فإذا ما وصلنا إلى المسماة بالساحرة





المستديرة ستعرف حينها حجم المقارنة التي أقصدها، وبالرغم من هذه الحقائق لك أن تعلم أنك ستنبهر باللوحات الفنية المنتشرة أينما وليت وجهك، فبراعة الرسم وجمال الألوان ودقتها وسحر الحكاية التي تخبرك بها اللوحة حتى إن لم تقرأ حرفًا مما هو مكتوب بجوارها وتركت لخيالك العنان، فستجد أن خيالك لن يخذلك وسيصنع لك حكاية تتماشى مع اللوحة التي تقف أمامها مندهشًا، كما أن روعة الألوان ستجعلك حتمًا تشك أنها مرسومة منذ عشرات أو مئات السنين، حيث تبدو اللوحات وكأنها مرسومة توًّا أو من أيام قلائل قبل عرضها بالمتحف.

كما أن بالمتحف قاعات عن حضارات مختلفة، مثل البدائيات، وبالتأكيد لم يكن ليخلو متحف من آثارنا، آثار الحضارة الفرعونية وكذلك البابلية والإسلامية والهندية والصينية، ألم نتحدث عن ألف قاعة، حيث إن معظم القاعات لها أربعة أبواب، وكل باب يأخذك على قاعة شكل، الأمر حقًا أشبه بمتاهة عجيبة لا تنتهي.

جدير بالذكر أنه كان هناك العديد من اللوحات التي أطلق راسموها عنان خيالهم حد الجموح، فنجد لوحات لشخصيات عارية تمامًا وتصنع صراعًا ما مع باقي عناصر اللوحة، هنا قد ندخل في تلك الجدلية المتعلقة بحرية الفن والفنان وحرية الإبداع وما إلى ذلك، ولكننا كنا ننظر لهذه اللوحات بعين الشخص المحافظ.

وخلاصة القول، إن هذه اللوحات كانت جميلة من الناحية الفنية، ولكنها لن تكون مقبولة من الناحية الأخلاقية لقطاع عريض من الجماهير، والحديث عن هذه الحريات انهار بالنسبة لنا عندما قرأنا على الكارت الخاص بالمعلومات المدونة حول لوحة ما حيث كانت الصدمة، حيث إن الفنان كان قد شطح بخياله ليصور ويرسم بعض الأنبياء بأحداث في حياتهم كما ورد ذكرها في الإنجيل، وبالطبع الصور من هذه الزاوية للمسلمين ستكون صادمة جدًا ومرفوضة تمامًا، أذكر منها على سبيل المثال صورة لرجل عجوز عار تمامًا وكذلك امرأة عجوز وتعرض عليه هذه العجوز شابة رائعة الجمال وعارية هي الأخرى، وطبقًا للمعلومات التي قرأناها فإن اللوحة تتحدث عن النبي إبرام (سيدنا إبراهيم) تبعًا لما ورد في الإنجيل، والسيدة زوجته سارة تعرض عليه الفتاة المصرية هاجر كي ينكحها.



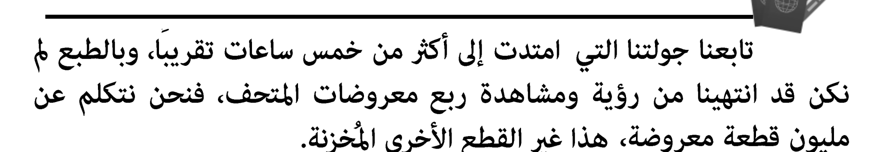
ولوحة أخرى تصور الرواية المذكورة في الكتاب المقدس والخاصة بالنبي لوط، وهى رواية تتعارض تمامًا مع ما نؤمن به نحن المسلمون تجاه هذا النبي الشريف، لذلك لن أخوض في شرح هذه الرواية ومن ثم وصف اللوحة.

لك بالطبع أن تتخيل صدمتنا من هذه اللوحات، وربما كان الأوجه حينها أن نغادر المتحف على الفور، إلا أن بقائنا لم يكن إقرارًا منا بقبول ما نراه بقدر ما كان رغبة على الاطلاع لا أكثر ومعرفة ما هي حدود الآخر في التفكير وما يقبله وما لا يقبله، لذلك كان البقاء هو القرار، خاصة وأنه ليست كل معروضات المتحف بهذا الشكل.

أكملنا التجوال ومررنا بقاعة كانت كل محتوياتها من الذهب الخالص الذي لا أثر بالطبع لمرور الزمن عليه، فلمعانه أخّاذ، وبمنتصف هذه القاعة تمثال بحجم حقيقي لطاووس مصنوع من الذهب، ولا عجب في هذا فالأرميتاج يحتوى بين جنباته على أكبر مجموعة من مجموعات الذهب القديمة من شرق أوروبا وغرب آسيا. بالقطع تسترعى هذه القاعة اهتمام كل زائري الأرميتاج، ويحرص الزائرون على التقاط العديد من الصور هناك، وهو ما فعلناه نحن أيضًا، كما يوجد بنهاية هذه القاعة شرفة مستخدمة كحديقة صغيرة وكأنها حديقة منزلية، ولكنها ساحرة في تنسيق الزهور وألوانها.

وبإكمال المسير (أحمد ومحمود على قدميهما وأنا ما زلت بالكرسي المتحرك أحركه بنفسي) دخلنا إلى غرفة تحتوى على كرسي ظنناه كرسي باباوية قديم و يُطلق عليه في الكنائس الأرثوذكسية كما هو الحال في روسيا في كرسي مارمرقس الرسول، وهو ذلك المقعد الوثير الفخم في أغلب الكنائس والذى يترأسه شخص واحد فقط إلى أن يموت ويكون هو أعلى رأس ديني في مكانه. ولكن بالبحث عرفنا أنه كرسي الامبراطور بيتر العظيم أو بطرس الأول، ولد في الكرملين عام ١٦٧٢ وحكم روسيا من عام ١٦٨٢ خلفا للقيصر فيودر الثالث وحتى وفاته عام ١٧٢٥، والغرفة كلها مختلفة عن باقي غرف وقاعات المتحف حيث إن كل حوائطها مغطاة بالقطيفة ذات اللون الأحمر القاني (النبيتي)، وهذه هي القاعة الوحيدة التي دخلناها ووجدنا بها سياجًا يحول دون الاقتراب من أي من محتويات الغرفة سواء كان الكرسي أو التاج أو الصولجان.





تابعنا جولتنا التي امتدت إلى أكثر من خمس ساعات تقريباً، وبالطبع لم نكن قد انتهينا من رؤية ومشاهدة ربع معروضات المتحف، فنحن نتكلم عن مليون قطعة معروضة، هذا غير القطع الأخرى المُخزنة.

أخذنا قرار الانتهاء من الزيارة بعدما كان الأخوان فوزي قد تعبا من المشي والوقوف لفترة طويلة، بالطبع كان ما يزال لدي أنا الطاقة لإكمال التجوال في المتحف، حيث أنني لا تعبت من السير ولا من كثرة الوقوف، حيث كانت حركتي بالكرسي المتحرك المستعار مريحة، وعلى ذكره دعني أزيدك من الشعر بيتًا أو أعطيك لمحة إنسانية أخرى، حيث أن تذاكر المتحف يتم قراءتها إلكترونياَ عبر جهاز (Barcode) تقوم عليه إحدى الموظفات، حيث تمنح الموظفة التذكرة فـيتم قراءتها إلكترونياَ، ثم تنفتح بوابة تشبه بوابات المترو في بعض المدن حيث لوحان من الزجاج يميناً ويساراً، بالطبع هذا النظام يصلح لمن هو سائر على قدميه، أما أنا بالكرسي المتحرك فلا يمكنني العبور من هذه البوابة، وكان من الطبيعي أن يعبر محمود مثلًا بالطريقة العادية وأن يبقى معي أحمد ويدفعني إلى مكان آخر بعيدًا عن تلك البوابات التي لا تسمح أبعاده بدخول الكرسي المتحرك، ثم يعود هو مرة أخرى للبوابة العادية، إلا أنه وبمجرد أن لمحت الموظفة أني على الكرسي وأننا ثلاثتنا مع بعضنا البعض حتى تركت مكانها على الفور مهرولة - وهو وصف دقيق لما فعلته السيدة - وأتت إلينا وأخذت تذاكرنا الثلاثة وعادت بها ليقرأها الجهاز ثم عادت بمفتاح للبوابة التي يمكن أن أعبر بالمقعد من خلالها، ولم تكتفِ بهذا، بل سمحت لأحمد ومحمود أن يتخطيا الصف الخاص ببوابة الدخول العادية وأن يدخلا معي كي لا أنتظرهما أنا، ثم دلتنا على مكان المصعد حتى نتمكن من الصعود والهبوط بسهولة ويسر.

ولأن الكلام عن المتحف قد يحتاج إلى كتاب مستقل وليس فصلًا في كتاب، ولأن الوصف مهما بلغت براعته لن يكون مثل المشاهدة المباشرة، وسواء كنت من المهتمين بالمتاحف والفنون أو لا أدعوك أن تستغل تلك الفرصة الرائعة التي يقدمها الموقع الإلكتروني الخاص بالمتحف والذى يتيح لك **Virtual Visit**



أو زيارة وهمية بتقنية عرض الصور بزاوية ٣٦٠ درجة وبالتالي "تقدر تعتبر نفسك قد زرت المتحف"[٣٣]

انتهت جولتنا بالأرميتاج وانصرفنا بعدما أعدت الكرسي المتحرك بالفعل وعدت مجددًا لاستخدام العكاز، وعند خروجنا من الأرميتاج وجدنا أنفسنا بسبب بوابة الخروج أمام ساحة القصر وهي ساحة أو ميدان فسيح للمشاة فقط كما الساحة الحمراء بموسكو، مطل على قصور الأرميتاج وهو المكان الرئيسي للتجمعات والاحتفالات بالمدينة، وهناك يعمل البعض على جذب السياح، إما بركوب عربة صغيرة بعجلتين يتم جرها يدويًا عن طريق "بنى آدم" طبعًا، حيث يجوب بالسائح أرجاء ساحة القصر، كما وجدنا بعض الفتيات والرجال يرتدون ملابس حقبة زمنية قديمة وكأنهم يخرجون من كتاب للأساطير وكل هدفهم هو أن يلتقط معهم السائحون بعض الصور مقابل مبلغ من المال، وأتت بالفعل إلينا حسناء روسية وسألتنا أن نلتقط سويا بعض الصور بمقابل مادي، وتعلمت من هذه الفتاة درسًا لطيفًا، وهو أنه من الممكن الرفض الأنيق حيث أنني بادرتها بالإجابة بـNo حتى لم أتبعها بـ Thank you، فما كان منها إلا حيتنا بأن انحنت قليلًا لتتماشى مع الدور الذى تلعبه أميرة الأساطير هذه قائلة Maybe next time وهو ما يعني "ربما في مرة لاحقة" وانصرفت فقط بتلك العبارة البسيطة كي لا تشعر نفسها أنها تعرضت للرفض.

ولكن "إن جيت للحق" شعرت بعد ذلك أني أخطأت في الرفض، حيث كان من الممكن التفاوض على المبلغ وتخفيضه إن اعتقدت أنه مرتفع، ولكن معنى أن هذه الفتاة تعمل هكذا جعلني أظن أمران، الأول أنها عاطلة عن المهارات، وربما التعليم الذى يأتي لها بفرصة عمل جيدة، والثاني والأهم أنها لا تريد الانحدار إلى مستنقع العمل في تجارة الجسد وأنها تكتفي بهذه المهنة كوسيلة لكسب الرزق، وإذا واجهت رفضًا متكررًا وإعراضًا من الناس عن التقاط الصور معها ربما لا تجد بديلًا غير الانزلاق إلى الدعارة - أعلم أننا نتحدث عن فتاة روسية وأن ممارسة الجنس خارج إطار الزواج هو أمر عادي بالنسبة لهن - إلا أنه بالتأكيد هناك فرق شاسع بين نمط حياة لا يكترث بالزواج وبين البغاء.

---

[٣٣] رابط الموقع الإلكتروني الخاص بالمتحف https://www.hermitagemuseum.org



ونعود لموضوعنا؛ عبرنا الطريق لنسأل عن أسعار تذاكر الرحلات النهرية، حيث إن مرسى هذه الرحلات كان أمام الأرميتاج مباشرة، وجدنا أن كل المواعيد لهذا اليوم قد حُجزت بالفعل، وأنه إذا ما كنا نرغب بالقيام بهذه الرحلة علينا أن نحجز التذاكر لليوم التالي.

كان المؤسف حينها أن الساعة قد أصبحت السادسة والنصف مساءَ وأننا لم نكن قد أكلنا شيئًا سوى وجبة الإفطار بالفندق صباحًا، وها هو آذان المغرب يؤذن علينا يوم وقفة عرفات، وهي المرة الأولى التي لم نكن فيها من صائمي هذا اليوم منذ سنوات الصبا، بالرغم أننا من الناحية العملية لم نكن قد أكلنا أو شربنا شيئًا منذ أن غادرنا الفندق وكنا نشعر فعلًا بالجوع والعطش مثل الصائمين، ولكن دون أن نكون منهم للأسف، وربما نستطيع القول (جت من عند ربنا) حيث قد يتعارض الصوم مع بعض ما رأيناه في المتحف.

استقللنا تاكسي عائدين إلى الفندق، عازمين على أن نتناول الطعام فيه كما الأمس حيث أعجبتنا وجبة الليلة الماضية، ولكن أثناء الطريق لمحنا أنه بجوار الفندق بعدة خطوات مطعم جميل الشكل يُدعى **White Night Istanbul**. بالطبع بدا من اسمه أنه مطعم تركي، فقررنا تجربته خاصة وأن علاقتنا بالطعام منذ أن وصلنا إلى هذا البلد سواء بموسكو أو سانت بطرسبرج وهي جيدة جدًا، وبالتالي لدينا من الحماسة ما يشجعنا على تجربة الجديد.

أجواء من رقي أفلام الأبيض والأسود، أو فترتي الأربعينات والخمسينات، أو ما شاهدناه نحن عن تلك الفترة، حيث بمجرد دخولك تجد من يساعدك على خلع المعطف أو الجاكت ويقوم بتعليقه قرب الباب، وعلى ذكر المعاطف كنا قد تركنا معاطفنا الثلاثة بموسكو – وهو الأمر الذى ندمنا عليه أشد الندم - عندما ظننا واهمين أن الطقس لم يكن يستلزم السفر بمعاطف ثقيلة، ولكننا خُدعنا بطقس موسكو المختلف جذريًا عن طقس سانت بطرسبرج.

دخلنا إلى المطعم واخترنا الجلوس على إحدى المناضد وسرعان ما أتى شاب تركي - وهي معلومة عرفناها منه لاحقًا- وسيم - وهو شأن الأتراك والروس بطبيعة الحال – وأحيانًا ما أشعر أن الله سبحانه وتعالى قد اختص قارة أوروبا بأمرين عظيمين ونعمتين كبيرتين، الأولى جمال الخلقة، فهي القارة البيضاء ذات السكان ذوى العيون الملونة والشعر الأصفر، والثانية هي الديمقراطية التي تجعل من



المسئولين مجرد موظفين عموميين في خدمة الناس يسهل انتقادهم ومحاسبتهم أيضًا. رحب بنا الشاب وتمنى لنا وجبة طيبة وسرعان ما أتى طاقم من الضيافة الروسية الفاخرة حيث ثلاثة فتيات روسيات شقراوات بالطبع طويلات ذوات تنانير (جيب) قصيرة بطبيعة الحال، أتوا ومنحونا قوائم الطعام، ولا يذهب خيالك بعيدًا فالمكان لم يكون سوى مطعم فخم فقط لا غير.

صراحة من أجواء الخدمة وطبيعة المكان وأناقته ظننت أننا أخطأنا بدخولنا مطعم كهذا، حيث يبدو أن الأمر سينتهي حتمًا بدفع ثروة من المال، وربما نحن على وشك تناول أغلى وجبة غذاء سبق وتناولناها في حياتنا، إلا أن قائمة الطعام المتنوعة بددت هذا الهاجس حيث كانت أسعار الطعام معقولة جدًا ومقبولة إلى حد كبير؛ اخترنا الوجبات التي رغبنا في تناولها وأمليناهم (قطع البانّور) اللائي حولنا طلباتنا التي كانت متنوعة حيث أصناف من البيتزا وأطباق من الباستا بالجمبري، سألونا هل نرغب في تناول أي مشروبات مع الطعام فأوضحنا أننا لا نرغب في المشروبات الكحولية، فما كان من الشاب التركي إلا أن أخبرنا أن المطعم أصلًا لا يقدم إلا الوجبات الحلال طبقًا للشريعة الإسلامية على الرغم من أن المطعم منقسم من الناحية الهندسية إلى قسمين: الأول مطعم، والثاني حانة تقدم مشروبات كحولية بالطبع (فهي بار)، ولكن المطعم يخص الشاب التركي، والبار يخص شريكًا روسيًا له، والرجل متصالح مع هذه الفكرة العجيبة؛ المهم طلبنا مع الطعام مشروبًا غازيًا.

كان هناك بروفات على أداء إحدى العروض الموسيقية التي ستتم في الحانة بعد أيام، كانت تجربة تناول طعام فريدة حيث الطعام ساخنًا وشهيا ولذيذًا مع مشاهدتنا لتجربة الأداء هذه مع الفتيات اللائي فتحن لنا بأنفسهن زجاجات الكوكاكولا التي لم نعد نرى مثلها هنا في مصر، وصببنها مع مكعبات الثلج في الأكواب، فكان لنا أن نصف أن التجربة تجربة (ملوكي).

ثم أتت فاتورة الحساب والعجيب أنها لم تكن تحتوي على أي شيء أكثر من قيمة وثمن ما تناولناه بالضبط، وهو ما كان مكتوبًا بالفعل في قائمة الطعام حيث لا توجد ولا ١٠% ولا أكثر ولا أقل خدمة ولا ١٠% أخرى ضريبة، لا مبيعات ولا قيمة مضافة ولا قيمة مستترة، ولست مطالبًا بعد ذلك العبث أن تدفع بقشيشًا وإلا تكون زبون (معفن) في نظر النادل، لك أن تتخيل أننا بعد كل





الخدمة التي سبق ووصفتها لك لن تدفع مقابل هذا شيئًا، ونحن معشر البائسين نتذكر المبالغ الباهظة التي ندفعها في مصر إذا ما أردنا خوض تجربة التغيير أو اقتضت الضرورة تناول الطعام خارج المنزل، فضلًا عن أننا لا نحصل على عُشر الخدمة التي تلقيناها في ذلك المطعم الساحر، فتركنا هذه المرة بقشيشًا سخيًا بمحض إرادتنا ونحن نشعر بكل الرضا.

عُدنا بعد ذلك إلى الفندق وحصلنا على دش ساخن ثم بدلنا ملابسنا، ثم كانت لدينا الرغبة في عمل جولة نهرية، وحيث أننا فعلنا مثلها بموسكو نهارًا، إذن فمن باب التجديد لنجربها ليلًا هنا بسانت بطرسبرج، خاصة وأنها جولة غير، فجزء كبير من المدينة أشبه بفينيسيا وهي تحمل هذا الوصف بالفعل - فينسيا أوروبا الشرقية-، حيث البنايات محاطة بالنهر من كل مكان تقريبًا والحركة بواسطة الجندول في المياه، بالإضافة إلى السيارات بطبيعة الحال.

ارتدينا ملابس ثقيلة بالفعل، وهذه المرة لم نغفل ارتداء "الكلسون"، وبمجرد خروجنا أدركنا أن درجة الحرارة لا تختلف عن الليلة السابقة، كنا نعلم أنه توجد محطة لحجز تلك الجولة النهرية بامتداد الشارع الذي به الفندق فسرنا قليلًا متمهلين بالطبع إلى أن وجدنا تلك المحطة، فحجزنا ثلاثة مقاعد وصعدت أنا على متن سفينة صغيرة مُقسّمة إلى جزئين واحد مغلق في الأسفل والآخر مفتوح (منك للسماء مباشرة) فاخترت أن أجلس في الجزء المفتوح لأستمتع بالمنظر أكثر. حينها حدث أمران، الأول بقي الأخوان فوزي خارج السفينة لتدخين سيجارة، وحينها حاولت إحدى الفتيات الروسيات الجميلات بالطبع إغواءهما إلا أنهما لم يستجيبا لها، والأمر الثاني أنهما بعد أن صعدا وأتيا إلى جواري، فإذ بنا نرى شابًا في أواسط الثلاثينات من العمر مرتديًا تيشرت نصف كم وبنطال جينز ومنتعلًا شبشبًا فقط لا غير!! فغرنا فاهنا من الدهشة، حيث ثلاثتنا مرتدين أثقل الملابس التي لدينا، حتى أنا كنت أرتدي قفازًا، حيث أن أصابع يدي كنت أشعر بها تتجمد من البرد ثم يأتي هذا الرجل بتلك الهيئة، بالتأكيد أحدنا يبالغ. ثم فسرنا الأمر أن أحدًا منا لا يبالغ، فالرجل يعيش ليس فقط بروسيا بل بسانت بطرسبرج وهي مدينة باردة شتاءً حد التجمد، وبالتالي هو معتاد على درجات حرارة تحت الصفر، أما أن تكون درجة الحرارة اثنان أو حتى خمس درجات فوق الصفر فهذا يعني له طقسًا بديعًا. أضف إلى هذا سببًا آخر، نحن في روسيا والتي



تشتهر بالفودكا الروسي وهي إحدى أقوى المشروبات الكحولية والتي تمنح الجسم شعوراً بالدفء بمجرد تناولها - أو هذا ما نسمع وليفتينا في هذا من جرب. بالطبع في بادئ الأمر أطلقنا على الرجل وصف (الحلوف) الذي لا يشعر بشيء ساخرين منه ألا يشعر حتى أن أصابع قدميه باردة، ثم عدلنا عن وصفه هكذا بعد تحليلنا للأمر على النحو السابق.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر وعلى ذكر الملابس، إذا ما أردت أن أصف لك ملابس الناس من حولنا فالشاهد من الوصف أن الروس (بيسقعوا من فوق ومن تحت لأ)، بمعنى أن السيدات مثلا كن يرتدين ملابس ثقيلة على الجزء العلوى من أجسداهن مثل البلوفرات الصوف التي تعلوها جاكت طويل أو معطف، ولكنهن في نفس الوقت يرتدين الـ "Mini jupe" أو الجونلة القصيرة فوق الركبة، كما أن الملاحظ أنهن يعشقن ارتداء أحذية الكعب العالي، بالطبع هذا مع السيدات ذوات القوام المثالي، أما السيدات البدينات فيتخلين بالضرورة عن ارتداء هذه الأحذية أو حتى تلك الجونلات ويستعيضون عنها بأخرى طويلة نسبياً ودائرية. أما الرجال فكانوا يرتدون ملابس شتوية، صحيح ليست مثلنا حيث أن ملابسنا هذه كانت بمثابة الـ Next Level أي سيرتدونها خلال القادم من أيام الشتاء الفعلية لا الخريف، إلا أن الرجل (الحلوف) سابقًا كان يمثل استثناء وليس القاعدة.

تحركت المركب ولا يجلس بالجزء العلوي المفتوح سوى ثلاثتنا وأربعة أشخاص آخرين بالطبع Couples؛ أي كل رجل وسيدة مع بعضهما البعض.

بدأت الجولة وصوت فتاة تخبرنا أنها ستكون مصحوبة بإرشاد سياحي، ولكن سرعان ما ضاعت الفرحة، حيث أنه (أي ذلك الإرشاد السياحي) يقتصر على اللغة الروسية هذه المرة.

وعلى مدار ساعة كاملة جاب فيها المركب أرجاء المدينة الساحرة، ومروراً بالعديد من المباني التي يبدو أن كلًا منها كان يحمل حكاية ما، ولكننا للأسف لم نفقه عن هذه الحكايات شيئًا بسبب حاجز اللغة. وعلى الرغم من افتقادنا إلى الجانب المعلوماتي بهذه الرحلة فإن استمتاعنا بها كان في قمته وبشكل شخصي أيضًا، فمنظر السماء في تلك الليلة كان لا يُنسى ولا يمكن وصفه أيضًا من فرط سحره، حيث أنك تستشعر هذا الجزء من الجمال، ولكن ربما تعجز





عن وصفه، المهم أنها كانت تركيبة بديعة من منظر السحاب والسماء والماء والأضواء التي تزين سانت بطرسبرج في كل مكان.

ومما أذكره بطرافة أنه بعد بدء تحرك المركب ومع تيار الهواء الذي نتج عن هذه الحركة وجدت نفسي أسحب إحدى البطانيات التي يقدمها المركب لمرتاديه حال شعورهم بالبرد كما فعل الشخصان الجالسان خلفنا، وكان منظري حينها مضحكًا للغاية "متكلفت بالبطانية".

انتهت الجولة التي تقف أسفل ميدان فسيح لشارع رائع لم نكن قد اكتشفناه بعد، شارع "نوفسكي بروسبكت" لؤلؤة سانت بطرسبرج هذا الشارع فعلًا.

أسمع ولم أر إلى الآن - ويا رب نرى ثلاثتنا وأنت أيضًا صديقي القارئ إن رغبت - أن باريس هي عاصمة النور[٣٤]، وأن شارع الشانزليزيه به من الأضواء البراقة ما يسحر الأبصار، وحيث أنني حتى الآن سمعت هذا فقط ولم أره سأتشكك في الأمر، فإذا ما خدرتك ثم أخذتك إلى شارع نوفسكي بروسبكت دونما إخبارك أينما أخذتك ستعتقد أنك في عاصمة النور باريس، وأنك تسير في شارع الشانزليزيه الشهير.

جاء اكتشافنا لهذا الشارع الصاخب المفعم بالحياة ليكمل أوروبية الجولة بامتياز بعد الرحلة النهرية والأجواء الفينيسية التي عشناها قبل قليل، وكذلك تجربة الطعام في ذلك المطعم الجميل.

---

[٣٤] عاصمة النور: وهو اللقب الذي حصلت عليه باريس لشهرتها كمركز للعلم والفكر خلال عصر التنوير، وكذلك بسبب اعتمادها في وقت مبكر على نظام إضاءة الشوارع؛ عُرفت باريس بمدينة النور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما أزال البارون هوسمان المعين من قبل نابليون الثالث الشوارع والأحياء التي تعود للعصور الوسطى وقام بتحويل باريس إلى مدينة حديثة.





وبالرغم من أن الانطباع الذي تتركه لديك مدينة مثل سانت بطرسبرج أنها مدينة هادئة، فإن هذا الشارع - وهو بالمناسبة شارع طويل جدًا وممتد - سيسلب منك ذلك الانطباع.

سرنا في نوفسكي بروسبكت منبهرين بالطبع، ننظر إلى المحال والمقاهي الممتدة يمينًا ويسارًا إلى أن وجدنا دار عرض سينمائي، وإن كانت موسكو بطولها وعرضها لا يوجد بها سوى دار سينما واحدة فقط هي التي تعرض الأفلام الأمريكية كما هي مبقية على لغتها الإنجليزية، فلك أن تدرك أنه من المستحيل أن تجد مثلها في سانت بطرسبرج وهي الإقليم مقارنة بموسكو العاصمة. أخذنا فكرة عامة عن الأفلام المعروضة، فوجدنا أن بعضها روسي الإنتاج والبعض الآخر أمريكي ولكن بدوبلاج إلى اللغة الروسية بالطبع، فلم نتحمس بالقدر الكافي لخوض تجربة مشاهدة فيلمًا بهذا الشكل، وآثرنا العودة إلى الفندق لنأخذ قسطًا من الراحة، خاصة وأننا سنستيقظ في الصباح الباكر للذهاب لأداء صلاة عيد الأضحى المبارك "كل عام وأنتم بخير".



٨-عيد سعيد ومختلف أيضًا

من قال أن الإنترنت يحوي كل شيء؟

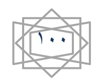
كنت قد بحثت عبره عن موعد أداء صلاة عيد الأضحى المبارك إلا أني لم أستدل على شيء يُذكر، ربما يرجع الأمر إلى قلة عدد المسلمين بالمدينة؟ ليس صحيحًا فروسيا التي بها ستة ونصف في المائة من إجمالي سكانها يدينون بالإسلام- مع تضارب الإحصاءات- نجد أن منهم بسانت بطرسبرج ما يزيد عن الأربعين ألفًا، وهو عدد ليس بالقليل من المسلمين، ربما هو تقصير من المؤسسات الإسلامية والمواقع التي من المفترض أن تهتم بهذا الأمر؟ في الأغلب الأمر كذلك.

وعندما تعذر الوصول لمعلومة مؤكدة وصلنا لمرحلة إعمال القياس فيما يخص موعد الصلاة والتي عادة ما تكون بعد شروق الشمس، لذلك توقعنا أن الصلاة ستكون في السادسة صباحًا.

كنا نعلم أن سانت بطرسبرج لا تتعدد مساجدها مثل موسكو، وما هو إلا مسجد واحد وحيد في المدينة كلها، ويحمل اسم المدينة نفسها وليس اسمًا عربيًا أو إسلاميًا، وافتتح عام ١٩١٣ وكان وقتها هو المسجد الأكبر في أوروبا، بارتفاع مئذنته التي تصل إلى تسع وأربعين مترًا، وهو ارتفاع عالٍ بالطبع وبقبة رائعة زرقاء، ستدرك أنك أمام مسجد سانت بطرسبرج الذي يقع في حي بريمورسكي، والذي للدهشة تدير شئونه اليوم الأوقاف التركية، وهي التي تُعيّن الأئمة والخطباء له.

وجغرافيًا علمنا أنه لا يبعد عن مكان فندقنا بكثير، إذا أصبحنا نعلم اسم المسجد وموقعه وموعد الصلاة استنتاجًا، لكن كونه المسجد الوحيد بالمدينة يعني أنه سيكون قبلة كل مسلمي المدينة في الصباح الباكر، مما يعني زحامًا شديدًا.

اتفقنا على أن نستيقظ في الخامسة إلا ربع فجرًا على أن نصبح جاهزين ونغادر في الخامسة والربع على أقصى تقدير، وطلبنا من أليكساندرا أمرين، الأول أن توقظنا تليفونيًا في هذا الموعد، والثاني أن تحجز لنا سيارة أجرة حيث سيكون من الصعب في هذا الوقت المبكر للغاية أن نجد سيارة بسهولة، وفعلت الجميلة ما طلبناه.





لم نستغرق وقتًا طويلًا حتى وصلنا إلى المسجد، بالكاد عشرون دقيقة وربما أقل، حيث كانت علامات الضوء الأولى تولد في السماء والشوارع خالية تمامًا من المارة والسيارات تقريباَ.

أعتقد أن السائق لم يكن ودودًا، وباستخدام نظرية المؤامرة يسهل تفسير الأمر أنه أدرك أننا مسلمين لأننا منحناه عنوان المسجد، وربما كان هذا هو طبع الرجل وأنا أظلمه، وربما كان يعاني من إمساك "بقى له كذا يوم" وهذا يفسر وجهه العابس المقتضب، وسيبقى الأمر رهين التكهنات متى غابت اللغة واعتمدت فقط على لغة الجسد.

وصلنا إلى المسجد الذى كان يطل على ساحة فسيحة ذات حديقة كبيرة، وخير اللهم اجعله خير، المكان ممتلئ عن بكرة أبيه، متى جاء كل هؤلاء إلى هنا؟ الجواب المنطقي أنهم أتوا مع صلاة الفجر وانتظروا حتى إقامة صلاة العيد، ولكنِ سرعان ما اكتشفنا أن المسجد يخضع للترميم وأنه مغلق للصيانة وأن الصلاة حالياَ تتم في ذلك الفضاء الطلق، جلسنا بعدما وجدنا مكانًا لنا وسط الجموع، وبعدما اشترى الأخوان فوزي من أحد الباعة المتواجدين هناك طاقيتين بيضاويين مثل تلك التي يكثر بيعها قرب المسجد النبوي الشريف وبمكة، ويتهاداها العائدون من أداء العمرة كتذكار بسيط، والعجيب أنه كان هناك إقبالًا كبيراَ على شراء هذه الطاقية، ونستطيع أن نقول أن ذلك الذكي الذي ذهب لبيع الطواقي هناك قد "طلع بسبوبة حلوة في ساعتين زمن"، لم أشتر أنا واحدة لعدة أسباب، أولًا أنها تذكرني بالكيبا التي يضعها اليهود على رؤوسهم وبالقطع سأحب مخالفتهم هم بالذات، وثانياَ لأنني كنت صففت ما تبقى لدى منِ شعر ولا أريد إفساده، والسبب الثالث أن هذه الطاقية كانت تحمل تميزًا دينياَ، وقد علمتني الحياة أنه أحيانًا ما تنتصر الإنسانية للإنسان قبل الدخول في تفاصيل عرقية أو عقائدية، وأنه في الغربة لا داع للتميز الديني- خاصة وأننا كرجال لسنا في ضرورة مثل السيدات المحجبات الذى يعلن غطاء رؤوسهن عن هويتهن- فربما يقابلك موتوراً كذلك الذي قتل مروة الشربيني [٣٥] (رحمها الله) قبل سنوات.

---

[٣٥] حادثة مقتل مروة الشربيني: هي حادثة وقعت في عام ٢٠٠٩ في مدينة دريسدن الألمانية، حيث قام مواطن ألماني من أصل روسي يُدعى أليكس دبليو فينز يبلغ من العمر ٢٨ عامًا داخل محكمة

جلسنا وكأن على رؤوسنا الطير، الجميع صامت، فلا توجد تكبيرات للعيد- كما نعتاد ونفعل- لا عبر ميكروفون ولا حتى بالأصوات المجردة، فجلسنا نكبر نحن بصوت خفيض أشبه بالتمتمات، ومضى الوقت بطيئًا وجديدًا لا يحدث، فلا الصلاة تقام ولا أحد يفعل أي شيء، الجميع في انتظار المجهول، تأملت الوجوه التي بجواري، فلم أجد أي وجه عربي إطلاقًا، فهم إما آسيويين أو أوروبيين، حاولت التحدث مع من بجواري مستفسراً عن موعد الصلاة فلم يفهمني، استخدمت لغة الجسد لأوضح سؤالي ولكنه أيضًا لم يفهمني، أصبحت الساعة السادسة والنصف وهذا يعني أن موعد الصلاة الذي توقعناه ليس صحيحًا.

بدأ الأخوان فوزي في الشعور بالضجر، فنحن لم ننم جيدًا واستيقظنا مبكرين للصلاة، ولكن حتى الآن لا توجد صلاة ولا يوجد ما يشير إليها.

ثم حدثت المعجزة، شخصٌ ما لم نره أمسك بميكروفون لم نره أيضًا وبدأ يُبسمل ويذكر الله ثم قام الناس، فقمنا نحن أيضًا ولكن الأمر كان "اشتغالة" إذا جاز التعبير حيث لم يُقم هذا الرجل الصلاة، فجلسنا من جديد، ثم بدأ بتلاوة سورة "يَس"، ونحن نستمع ومندهشين مما يحدث، وبعدما أنهى الرجل تلاوته، بدأ يخطب "خير اللهم اجعله خير" باللغة العربية، إذًا "يا فرج الله" أخيراً نحن نستمع إلى لغتنا الجميلة في هذا البلد ولكن يا فرحة ما تمت فالأمر اقتصر على جمل الخطابة العادية الاستهلالية التي نسمع معظمها في خطبة يوم الجمعة ثم عاد للحديث بالروسية، حينها كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة صباحًا، وأخيراً كبّر الرجل لأداء صلاة العيد.

والصلاة نفسها كانت عجيبة، فالرجل لا يطمئن في ركوع ولا في سجود – وكأن أحدًا يجرى وراءه ويطارده لينتهي سريعًا- كما أنه كان يقرأ القرآن مسرعًا أيضًا، وما إن انتهى من أداء ركعتي الصلاة حتى بدأ يُكبّر تكبيرات العيد، بالطبع وسط كل هذه "اللخبطة" حيث الخطبة قبل الصلاة لا بعدها كما نفعل نحن، وكذلك التكبيرات بعد الصلاة لا قبلها كما نفعل، هكذا انتهت صلاة عيد الأضحى

في مدينة دريسدن بطعن صيدلانية مصرية كانت تبلغ من العمر ٣٢ عامًا ١٨ طعنة في ٣ دقائق، وبعدها فارقت الحياة بعدما وصفها بالإرهابية بسبب ارتدائها الحجاب.



بروسيا وتحديدًا بسانت بطرسبرج وهي الصلاة التي كانت مختلفة جغرافيًا وفي المضمون عن أي صلاة عيد سبق وأديناها في مصر، وكان من الواضح أن المسلمين هناك يفتقدون للوعي الديني الكافي والخاص بهيئات العبادات، ولا أعلم أين بعثات الأزهر الشريف من هذا.

أضف إلى هذه الأمور المؤسفة هو كثرة المتسولين المسلمين في هذا اليوم، ولم نكن نعلم هل هم يتسولون عن حاجة وعوز حقيقي أم يدّعون العاهات كما يفعل متسولونا هنا؟ وللأسف ما تزال تلك الطريقة السيئة التي يعتمدها المسلمون في التسول تقريبًا في أي مكان في العالم، في حين أن باقي متسولي العالم يمكننا القول أنهم يتسولون بـ"شياكة"، حيث يقفون مثلًا في محطات المترو مقدمين عروضًا فنية بأي آلة موسيقية، وأحيانًا تجد عرضًا فنيا متعدد العناصر، فواحد يُغنى واثنان أو ثلاثة يقومون بالعزف على آلات مختلفة، وبالتالي تختلف الشحاذة جذريًا في هذه الحالة، حيث تشعر أن هؤلاء الشحاذون مجتهدون ويقدمون لك شيئًا ما. إحقاقًا للحق متسولو المسلمين أيضًا مجتهدون في عدة أمور، الأداء الصوتي المسرحي المبالغ فيه، وأحيانًا تمثيل الإصابة بالعاهات وما يقتضيه هذا من فنون التنكر والخداع والمكياج، وأخيرًا مجتهدون في انتقاء دعوة أو دعوتين إلى السماء لا يكفون عن تكرارها دومًا للذاهب والقادم.

بانتهاء الصلاة خرجنا إلى حيث الشارع الرئيسي، ويا لها من مفاجأة، حيث وجدنا جموعًا غفيرة من المشاة تسير في كل الطرقات والاتجاهات، مع الأخذ في الاعتبار أن اليوم كان يوم عمل عادي بروسيا ولم يصادف العطلة الأسبوعية الروسية يومي السبت والأحد، وبالتالي كان الروس في طريقهم إلى أعمالهم وأعتقد أنهم ندموا على ذلك أشد الندم وكرهوا ذلك اليوم، حيث شهدت المنطقة المجاورة إلى المسجد وكل الشوارع الجانبية ازدحامًا مروريًا رهيبًا لم نره منذ أن وطئت أقدامنا الأرض الروسية، ازدحامًا يذكرنا بما اعتدنا على رؤيته في صلاح سالم وكوبري أكتوبر في القاهرة.

بعد عناء شديد ومناورات - إن جاز التعبير - استطعنا الحصول على تاكسي ليأخذنا إلى الفندق، وأوقعنا حظنا حينذاك مع رجل يبدو أنه تجاوز السبعين من العمر، وبالتالي "مالوش إنه يسوق" بحكم سنه، واستطاع الرجل بصعوبة أن يشق الطريق إلى حيث أوصلنا إلى الفندق، حيث وجدنا "مدام





أشرف" من بني سويف، فألقينا التحية وهنأتنا هي بالعيد لأنها أكيد كانت تعلم أن اليوم عيدٌ عند المسلمين، ودخلنا إلى المطعم فتناولنا الإفطار ثم صعدنا لغرفتنا لننام بعض الوقت.

وكالعادة ما يسرق منا النومِ الوقت الثمين والفرص، حيث أن ساعات النوم هذه ثم مغادرتنا المتأخرة نسبياً للفندق قلصت اختياراتنا في هذا اليوم الذى لم يكن فقط هو أول أيام عيد الأضحى، ولكنه كان يومنا الأخير أيضًا بسانت بطرسبرج التي سنغادرها في السادسة من صباح اليوم التالي، مما يعني أننا علينا أن نتواجد بالمطار بحلول الرابعة صباحًا.

كانت الخيارات المتاحة عمل جولة سياحية بحرية بالمركب، وهي ليست بحرية فقط، ولكنها برية أيضًا، بمعنى أنه بموجب التذاكر التي سنقوم بشرائها سنصعد على متن مركب يطوف بنا على أماكن سياحية وأثرية بالمدينة، وبإمكاننا النزول واستكشاف المكان الذى يعجبنا ثم العودة إلى الرصيف والصعود على متن السفينة التالية بنفس ذات التذكرة، ولنا أن نفعل هذا مع ثلاثة معالم سياحية من أصل سبعة على ما أذكر، وكانت مدة تتابع هذه السفن هي كل نصف ساعة، وأحيانًا بطبيعة الحال لا تكون هذه مدة كافية للنزول والتجول بمعلم سياحي شد انتباهك، لذلك خذ وقتك ثم عد وانتظر المركب التالي.

كانت الخيارات التي يتوقف لديها هذا المركب هي تلك الكاتدرائية الكبيرة التي صادفناها في ليلتنا الأولى بسانت بطرسبرج - الليلة البرد إياها- ولم نعلم حينها أنها كاتدرائية إسحاق والرواق، وكذلك حديقة الحيوان، وقصر بيترهاوف وقلعةPeter & Paul، وللأسف لم يكن الوقت ليسعفنا لزيارة والتجول بكل هذه الأماكن فكان علينا المفاضلة، فآثر الأخوان فوزي استبعاد الكاتدرائية حيث أننا بالفعل قد زرنا عددًا كبيراً من الكنائس بموسكو، وأننا لو كنا في رحلة حج مسيحية لما زرنا كل هذا الكم، وافقتهما حيث أنهما شكّلا الأغلبية، ولكن صراحة كان لدى شغف لزيارة هذه الكاتدرائية، فبإمكانك القول أنني من المهتمين بالمعمار الكنسي، وأرى فيه فنًا فاتنًا في البناء.

كما آثر الأخوان فوزي التضحية بكلٍ من قصر بيترهاوف وحديقة الحيوان، معللين ذلك أن كل واحد منهما يحتاج يومًا بأكمله، وأنه ما هي إلا سويعات وينقضي النهار، وكان منطقهما وجيهًا وكنت أوافقهما الرأي في التضحية





بحديقةِ الحيوان حيث أنها لم تكن قد أثارت شغفي، أما قصر بيترهاوف فلم أكن متحمسًا لتفويتِه، فما سبق وأن شاهدته من فيديوهات وما قرأته عنه كان يجعلني متحمسًا لزيارته، ولكن هكذا تسير الأمور في السفر حيث يحكمنا عنصر الوقت في المقام الأول، كذلك تقديم بعض التنازلات نزولًا على رغبة المجموع؛ المهم استقر الأمر على مغادرة المركب عند قلعة (بيتر آند بول).

صعدنا على متن المركب، ومنحنا مضيفنا الشاب سماعات أذن وجدنا لها مكانًا بمقاعدنا، وبالتالي تمكّنا هذه المرة من الاستماع إلى إرشاد سياحي باللغة الإنجليزية، كان مما عرفناه حينها أن رحلة المركب هذه - لمن أكملها ومر على الأماكن أو المحطات كلها- فهي تستغرق ساعة ونصف وتنتهى عند قصر بيترهاوف حيث إنه يقع بآخر سانت بطرسبرج تقريباً، بالتالي ضربت لنا هذه المعلومة أية احتمالية لأي تعديل في الخطة في مقتل.

استمتعنا بالجولة النهارية في جو جيد وكأنه احتفالًا من الطقس بيوم العيد، وسرعان ما وصلنا إلى المحطة الخاصة بقلعة بيتر وبول[٣٦]، وجدنا عند نزولنا حديقة غنّاء جميلة وبنهاية امتدادها تقع القلعة، وكان هذا يعني أنه علينا السير لمسافة كبيرة، ولكن لحسن الحظ هذا لم يحدث حيث وجدنا تلك العربات البيضاء التي نراها بالقرى والمنتجعات السياحية لدينا بشرم الشيخ والغردقة وكذلك بملاعب الجولف، فسألنا سائق إحداها أن يوصلنا إلى مدخل بوابة القلعة ولما رآني بالعكاز وافق مقابل ١٠٠ روبل وهو مبلغ زهيد بطبيعة الحال، وسرعان ما وجدنا أنفسنا أمام بوابة ضخمة للقلعة الكبيرة.

بمجرد دخولنا فإذ بنا أمام كنيسة كبيرة للغاية وأخرى صغيرة إلى جوارها ثم عدة مبان متعددة في فضاء فسيح، ذهبت للسؤال عن أسعار التذاكر ريثما ينتهي الأخوان من تدخين سيجارة، فعدت قائلًا "ماكنتوش عاوزين تزوروا كنايس تاني؟" أبشرا هنا لا يوجد شيء سوى زيارة الكنيستين الكبيرة والصغيرة وسجن القلعة، ومتاح كل واحد منهما بتذكرة منفردة أو ثلاثتهما بتذكرة موفرة.

---

[٣٦] قلعة (بيتر وبول) وبتعريب الأسماء تصبح بطرس وبولس، وهي أول بناء في مدينة سانت بطرسبرغ التي ولدت من العدم، وقد دُفن جميع ملوك روسيا المهمين في هذه القلعة الطويلة، استعملت القلعة في الحقبات السابقة كسجن للأسرى السياسيين في روسيا.

فاشترينا التذكرة الموفرة التي تضمن لنا زيارة الثلاث مباني، بدأناها طبعًا بالكنيسة الكبيرة التي أمامنا والتي لم تكن تختلف كثيراً عن كنائس وكاتدرائيات موسكو التي زرناها بالفعل، ولكن أهم ما يميزها أنها ذات سقف مرتفع للغاية، وذات غرف متعددة، كان بإمكاننا التجول الحُر بها - وهو ما فعلناه - وعندما انتهينا من زيارتها أرشدنا العاملون بالكنيسة إلى نفق داخلي يقودنا إلى حيث الكنيسة الصغيرة، والتي لم نستغرق بها وقتًا، طويلًا وسرعان ما وجدنا أنفسنا خارج الكنيستين. سرنا بعد ذلك باتجاه سجن القلعة، وأثناء المسير وجدنا متحفًا يجسد التعذيب ومسيرته خلال القرون الوسطى وما تلاها وصولًا إلى زمن الثورة البلشفية [٣٧]. كان مكانًا موحشًا يقشعر منه البدن وتتساءل كيف وصلت الإنسانية إلى كل هذه السادية والوحشية والبربرية؟ وعلى الرغم من هذا كله ظل الأخوان فوزي يصوران ما تقع عليه أعينهم، وهي الصور التي أحتفظ بها نعم، لكن لا أتحمس لـإعادة رؤيتها.

ثم وصلنا إلى مبنى السجن، وهو واحد من أقبح وأسوأ الأماكن التي سبق أن زرتها، وهو أمر طبيعي فهو سجن وليس بستانًا، وسبب قبحه ليس انعدام نظافته، ولكن لكونه مقرّاً لسنوات من القهر والتعذيب والحرمان لبعض البشر. بمجرد الدخول نجد نماذج مجسمة لعساكر يحملون بنادقهم، ومحاكاة لما كان يتم فعله مع كل سجين من تجريده من ملابسه ومنحه الملابس الخاصة بالسجن، ثم تقييده بالسلاسل، إلى تسكينه في زنزانته المنفردة حيث لا يوجد بهذا السجن زنازين جماعية أو عنابر.

دخلنا ومعنا مجموعة أخرى من بعض السائحين، وسرنا في مسارات محددة سلفًا، ويبدو أنها نفس المسارات التي كانت مسموحة للسجناء، والتي تؤدي بنهايتها إلى ساحة التريض، وهي أبعد ما تكون عن هذا المعنى فهي صغيرة

[٣٧] الثورة البلشفية: أو ثورة أكتوبر وكانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، قادها البلاشفة تحت إمرة فلاديمير لينين ويده اليمنى جوزيف ستالين وكامل الحزب البلشفي والجماهير العمالية بناءً على أفكار كارل ماركس وتطوير فلاديمير لينين؛ لإقامة دولة اشتراكية وإسقاط الحكومة المؤقتة، وتعد الثورة البلشفية أول ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي.



المساحة كئيبة المنظر، لأنها تقع بين مباني السجن بزواياه المختلفة، ثم ممر يؤدي إلى عدد من الزنازين، وبجوار كل واحدة بيانًا معلوماتيًا عن أهم وأشهر الشخصيات الروسية التي تم سجنها بهذه الزنزانة ومدة بقاء كل شخصية بالحبس وكيف انتهى بهم الحال.

وهنا كان التنوع، فالبعض انتهى به الحال بالإعدام، والبعض الآخر أمضى سنوات عقوبته وخرج، والبعض الآخر إما أصيب بالجنون أو أقدم على الانتحار، وكلا الأمرين يصوران بشاعة ما تعرض له. كان كل باب يروي قصة لمعاناة إنسان ما لا أعلم عنه شيئًا، ولكنه عانى هنا الكثير، وها نحن ذا ندخل المكان اليوم آمنين لنقرأ عنهم، فهل تتوقف الإنسانية عن القهر والألم والإيذاء؟ أما أننا نسير في دوائر مفرغة ولا نتعلم من أخطائنا أبدًا؟!

جدير بالذكر أن هذه الزنازين كانت على حالها ولم تخضع لأي تعديل أو تجديد منذ أن تم إغلاق المكان كسجن وأصبح مزارًا سياحيًا، واللافت والعجيب أن الغرف فسيحة المساحة نسبيًا، ولن يمكنك وصفها بالضيقة خاصة وأن نزيلها هو شخص واحد، وهي مرتفعة السقف أيضًا على عكس المتوقع في مثل هذه البنايات، وتحتوى على سرير حديدي مثبت إلى الأرض بالإسمنت، ومقعد ومنضدة "مكتب يعني "- حيث أن معظم نزلاء المكان كانوا من المفكرين والسجناء السياسيين لا الجنائيين-، ومرحاض. كان بالإمكان أن يعج المكان بالمسجونين، ولكن فلسفتهم في القهر أن جعلوا هذه المساحة قبرًا لحرية شخص واحد فقط.

أكملنا المسير إلى أن وصلنا إلى الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني من الزنازين، فصعد الأخوان فوزي وفضّلت أنا الانتظار، ولا داع لعناء صعود الدرج بالعكاز خاصة وأني لن أرى جديدًا، أو بالأحرى وكما نقول بالعامية "مش هشوف أملة يعني"، وعادا بعد قليل بحكايات عن سجناء ومصائر بشر آخرين.

أخيرًا، أنهينا هذه الزيارة الثقيلة على القلب وغادرنا القلعة بأكملها وعدنا إلى المرسى، ولحقنا بمركب آخر وسرنا معه إلى أن وصلنا إلى شارع النور والحياة – كما أحب أن أسميه- شارع نوفسكي بروسبكت، ولكم أن تتخيلوا أننا أضعنا من أنفسنا فرصة ذهبية رائعة لزيارة قصر بيترهاوف - والذى أدعوك للبحث عن بعض صوره على الإنترنت، بل وزيارته إن تحمست وسافرت إلى





روسيا في يوم من الأيام- لنقضي العيد، العيد يا مؤمن، في تلك القلعة اللعينة بسجنها الـ " Fucking " اللعين كما تقول ترجمة "أنيس عبيد".

استوقفنا تاكسي من هناك، واصطحبنا إلى مطعم ليلة البارحة أو " ليلة اسطنبول البيضاء "، بالتأكيد لم يكن من الممكن مغادرة سانت بطرسبرج دون تناول الطعام فيه مرة أخرى. رحب بنا العاملون لتذكرهم لنا من الليلة الماضية، وأتى الشاب التركي وكان ودودًا أكثر هذه المرة، وتحدّث عن بلده تركيا وسألنا هل سبق وزرناها؟ فأجبته بنعم؛ وتحدثنا سريعًا عن بعض الأماكن التي زرتها هناك وأعجبتني، ثم تحدث عن استقراره هنا بسانت بطرسبرج ولم يفصح هو ولم نسأل نحن لماذا يترك بلدًا مزدهراً كـتركيا ويتغرب، فالمعتاد هو الغربة بحثًا عن لقمة العيش والأمان، وهما أمران متوفران بتركيا بشكل جيد ولو نسبيًا.

المهم، تناولنا وجبتنا المثالية المذاق والخدمة وحيينا الرجل التركي، ووقّع له محمود على الفاتورة بإهداء بعبارات إنجليزية تمتدح المطعم، واصطحبنا الرجل بنفسه إلى باب الخروج مودعًا، وهنا تبادلنا التعارف بالأسماء وعلمنا أن الشاب الوسيم اسمه "محـمد".

وحيث أنها كانت الليلة الأخيرة لنا بالمدينة الساحرة، لم نرغب بالعودة المبكرة للفندق وفضّلنا المشي بعض الوقت في شارع اللآلئ والأنوار نوفسكي بروسبكت، فعدنا إليه سيراً على الأقدام حيث فضّل الأخوان فوزي أن نأخذ تاكسي إلى هناك مرة أخرى، وفضّلت أنا أن نمشي الهويني "بالراحة يعني" مستندًا على محمود حينًا وعلى أحمد حينًا آخر ونتوقف لنستريح كلما رغبت. في الظروف العادية كانت لتصبح التمشية من وإلى هذا الشارع طقسًا يوميًا حتى لو كانت الساعة هي الرابعة فجراً.

وصلنا إلى الشارع وقررنا استغلال آخر الأوقات المتاحة لنا بخوض تجربة مشاهدة السينما - فالسينما تصنع ذاكرة وذكريات أو هكذا نعتقد - ونحن نستغنى عن عنصر هام وهو اللغة، وهنا دعني أخبرك أنها هذه المرة كانت سينما "بحق وحقيقي" مثل دور العرض التي نراها في بلدان العالم المختلفة وليست كسابقتها التي دخلناها في موسكو والتي تأخذ طابع المركز الثقافي أكثر من كونها سينما.





وبعد مفاوضات ومداولات ونقاشات وقع اختيارانا على إحدى الأفلام الأمريكية، وهو فيلم Everest حيث كنا نرغب في مشاهدة فيلم تلعب فيه الصورة دورًا رئيسيًا حيث لا لغة، وكان الفيلم جيدًا وشيقًا على الرغم من افتقادنا اللغة، كانت هذه هي تجربة الأخوين فوزي الأولى مع مشاهدة فيلم بهذه الصورة، ولكنها كانت تجربتي الثانية حيث لعبت الصدفة دورًا سحريًا أثناء رحلتي إلى تركيا أنا وشقيقتي وجعلتنا من حضور العرض الرئيسي الـ "Premier" الخاص بفيلم النجمة التركية "بيرين سات" - المشهورة بدور فاطمة في مسلسل حمل نفس الاسم وحظي بمشاهدة ضخمة في الوطن العربي- وبحضورها الشخصي لفيلم Benium Denium وهي التجربة التي لن ننساها، حيث كان الفيلم بالتركية ولا توجد ترجمة لأي لغة أخرى، ومع ذلك استمتعنا بالفيلم وتأثرنا به حد البكاء.

وكان فيلم إيفرست الذى اخترناه فيلمًا جيدًا ومستوحى من أحداث حقيقية عن تسلق بعض محبي تسلق الجبال إلى قمة جبل إيفرست أثناء عاصفة ثلجية صعبة أودت بحياة البعض.

شاهدنا الفيلم ولا أخفيكم سرًا أن الثلوج التي كانت بالفيلم جعلتني وربما جعلتنا نشعر بالبرد داخل قاعة السينما المغلقة بالطبع، هذا بالإضافة إلى أننا في مدينة باردة بالأساس.

انتهينا من مشاهدة الفيلم في الحادية عشر والنصف مساءً وغادرنا السينما إلى حيث نفوسكي بروسبكت لنلقي عليه نظرة وداع أخيرة، ثم سرعان ما أخذنا تاكسي أقلنا إلى حيث الفندق حيث ما يزال أمامنا تحضير حقائبنا والنوم لسويعات قليلة.

وصلنا إلى الفندق وطلبت من موظفة الاستقبال - التي كانت فتاة ثالثة ليست أليكساندرا "مالناش نصيب نودعها" وليست مدام أشرف – أن تحجز لنا تاكسي في تما م الثالثة والنصف فجرًا وأن توقظنا في الثالثة إلا ربع، وسرعان ما أنجزنا أمر الحقائب وأغلقنا النور وخلدنا إلى النوم، وسرعان أيضا ما طار الوقت الجميل نومًا إلى أن استيقظت على جرس الهاتف والفتاة توقظنا كما طلبنا، فشكرتها وعدت للسرير مجددًا، ولم يستيقظ أيٌ من الأخوين فوزي على الرغم من أننا كنا قد ضبطنا هواتفنا المحمولة لتوقظنا ولم نكن لنعتمد بالكلية على





موظفة استقبال الفندق إلا أننا جميعًا كنا في مرحلة من النوم تُعرف باسم الـ Deep Sleep[٣٨]، وبالتالي كنا لا نسمع رنين المنبه أو نسمعه ثم نسكته في حالة من اللا إدراك حيث أن "النوم سلطان " كما يقولون.

وبمعجزة ما لا أعلمها استيقظ محمود من تلقاء نفسه في الثالثة والربع، فنهض مسرعًا مفزعًا إيانا "اصحوا، فوقوا الساعة تلاتة وربع راحت علينا نومة"، استيقظنا بالطبع وكنا نفعل كل الأشياء بآلية وسرعة، حتى أني كنت أتحرك في الغرفة مستخدما العصا وأنتقل من مكان لآخر بسرعة وخفة على قدم واحدة مثل راقصي البالية، وما هي إلا دقائق واتصلت بنا الموظفة لتخبرنا أن التاكسي في انتظارنا، حينها كنا في مرحلة تجهيز أنفسنا فطلبنا منه الانتظار، فوافق على أن يتقاضى أجرًا أعلى فوافقنا بدورنا "حكم المضطر".

انطلق التاكسي بنا إلى حيث مطار فونكوفو، في الطريق ألقينا نظرات الوداع لمدينة جميلة أسرتنا برقيها وستبقى دومًا في الذاكرة والقلب.

وصلنا إلى المطار بسرعة هذه المرة والفضل في هذا لموعد الطائرة المبكر، حيث لا يوجد أي زحام مروري، أو بالأحرى لا يوجد مارون أصلًا إلا فيما ندر.

---

[٣٨] مراحل النوم: هناك اختلاف بين العلماء حول مراحل النوم، فالبعض يقسمها إلى خمس مراحل، والبعض الآخر يقسمها إلى ثلاثة فقط، وإليكم تقسيم الثلاث مراحل: «النوم الخفيف»، «النوم البطيء العميق» و«نوم الأحلام». يشكل تواتر هذه المراحل دورة النوم التي تمتدّ على ٩٠ دقيقة. عادة، توازي الليلة الكاملة ٤، ٥ او ٦ دورات أي ما يعادل ٦ إلى ٨ ساعات من النوم.
النوم الخفيف: إنها مرحلة النوم الأولى التي نمرّ بها قبل الخلود إلى النوم، وهي حالة من النعاس وتدوم أقلّ من ٢٠ دقيقة كمعدل، تتميّز بتثاؤب ووخز في العينين وتدنّ في نسبة اليقظة والتواتر القلبي.
النوم البطيء العميق: وهي مرحلة أطول من الأولى تمتدّ على ١٠٠ دقيقة خلال الليل، وكما يشير اسمها، نغوص في نوم من الصعب الاستيقاظ منه، تنخفض فيها حرارة الجسم ويتقلّص النشاط الدماغي ويصبح التنفس بطيئا.
نوم الأحلام: المرحلة الأكثر سحرًا! فبعكس سابقاتها، تتميّز باستعادة النشاط الدماغي بشكل كبير، بينما نغوص في النوم، هنا تبدأ الأحلام بالتدفق في رأسنا، يصبح عندها التنفس والنبض غير منتظمين، يشكل نوم الأحلام ٢٠% كمعدل من وقت النوم الكامل.



أنهينا إجراءات تسجيل التذاكر والأمتعة بسهولة، وسرعان ما أصبحنا في منطقة انتظار الإقلاع، ونحن نسمع ذلك النداء الصوتي على السادة المسافرين من سانت بطرسبرج إلى شرم الشيخ أن عليهم التوجه إلى بوابة رقم كذا، وصراحة شيء يشعرك بالسعادة العجيبة التي لا تعرف لها مصدر عندما تعلم أن بلدك تعتبر من مقاصد السياحة والسفر لدى الأجانب.

وفي السادسة والنصف صباحًا تحركت الطائرة عائدة بنا إلى موسكو، وكانت الرحلة أفضل من سابقتها في القدوم، حيث استطعنا أن ننعم بغفوة دون "خضّة" ومطبات هوائية مزعجة أو مخيفة، وفي تمام الثامنة صباحًا كنا قد أصبحنا بموسكو لنقضي بها ثاني أيام العيد وليلتنا الأخيرة كذلك.





٩- الجمعة...البولشوي...الكرملين

ما تزال الليلة الأخيرة لنا في موسكو معنا من أولها، فها هي الساعة الثامنة صباحًا وها نحن بموسكو، عدنا من جديد إلى الـ Holiday inn " Suswhezky val" تحتاج إلى تمرين لتتعلم نطقها الصحيح، أعلم"، أعدنا إجراءات التسجيل مرة أخرى واستلمنا حقيبتنا التي كنا قد تركناها قبل المغادرة إلى سانت بطرسبرج، وطلبت من موظفة الاستقبال أن تتفضل مشكورة بالاتصال بالهيئة التي منحتني الكرسي المتحرك لتأخذه ولأسترد مبلغ التأمين، وفعلت واتفقت معهم على أن يأتي مندوب لهم إلى الفندق ويأخذ المقعد ويرد مبلغ التأمين، على أن يخصم فقط مصاريف الانتقال من الفندق وهو معه الكرسي وحتى مقره "وليس العكس من مكانه إلى الفندق، ألم أقل ناس "طيبين أوي يا خال".

صعدنا إلى غرفتنا التي لم تتبدل، وحيث إن اليوم كان الجمعة وكان ثاني أيام عيد الأضحى فأردت الذهاب لأداء صلاة الجمعة، حيث أن صلوات الجُمَع خارج مصر تصبح أيضًا من الذكريات الطيبة بالنسبة لي، وكان لحسن الحظ أن تم افتتاح مسجد كبير بمحيط الفندق يبعد فقط شارعين أو ثلاثة عنه.

حاولت الاسترخاء لا النوم بعض الوقت، ثم نهضت استعدادًا للخروج لأداء الصلاة، وكالعادة تلك الجملة المتكررة والتي "ربما مللت منها"، كان من الممكن في الأجواء العادية أن أذهب إلى المسجد سيراً، لكن نظراً للوضع الطارئ كان لابد من أخذ تاكسي. سألت الموظفة عن عنوان المسجد لتكتبه لي في ورقة بالروسية كي يصبح الأمر بيني وبين السائق أيسر وهو ما حدث، وصلت إلى حيث المسجد و"عينك ما تشوف إلا النور" حيث الزحام شديد.



حيث تشهد موسكو وجود عدد كبير من المسلمين يقدر بما يربو عن المليون، ويبدو أن غالبيتهم أراد أداء الصلاة في المسجد الكبير[٣٩] الجديد "على الرغم من وجود أربعة مساجد بموسكو وأنها ليست كسانت بطرسبرج حيث لا يوجد بها سوى مسجد واحد كما أسلفت.

كان هذا الزحام الشديد يعني أمراَ واحدًا، أنه لن يمكنني الدخول لحرم المسجد نفسه وصحنه، ولكني حاولت أن أجرب حظي، عبرت أولًا بوابة التفتيش الإلكترونية والتي تفتش كل المصلين وسط تواجد أمنى كثيف جدًا وهو الأمر الذي لم يسبق أن رأيته من قبل، ولكن من المعروف أن أماكن العبادة الخاصة بالأقليات تشهد تأميناً وتواجدًا أمنياَ كبيراَ أيام المناسبات الخاصة بها، وبالطبع المسلمون في روسيا يمثلون أقلية.

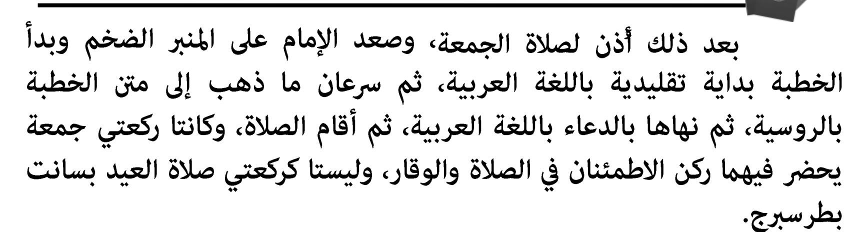
بعد اجتياز التفتيش وجدت المصليين يفترشون الطرقات وهم جلوس استعدادًا لسماع خطبة يوم الجمعة، ولكن من حسن الحظ لعب العكاز دوراً أساسياَ في تمكني من أداء الصلاة بالمسجد، حيث كلما رآني المصلون أفسحوا لي الطريق إلى أن وجدت نفسى عند الباب الخلفي والمطل على صحن المسجد، ولكنه كان ممتلئًا تمامًا، ووجدت من يشير لي بالصعود إلى الطابق الأعلى ففعلت، ولكن الباب الخاص به كان مغلقًا نظراَ لاكتمال عدد المصلين، فصعدت الطابق الثالث والأمر كذلك إلى أن صعدت الطابق الرابع والأخير، وتمكنت من الدخول.

والمسجد ضخم ويتسع لعدد كبير من المصلين بسبب تعدد طوابقه، معماره بديع، تتوسط سقفه ثريّا كبيرة تتلألأ أضوائها البراقة، حينها كان هناك رجل يرتدي ملابس عربية الطابع والهيئة واقفًا إلى جوار المنبر الضخم بحق، ممسكًا بالميكروفون متحدثًا باللغة الروسية، استمرت خطبته ربع ساعة ثم بدأ الحضور يكبرون بصوت مرتفع، وكأننا أمام أحد المشاهد السينمائية التي يطلب فيها شخصًا ما من جموع الحاضرين بالتكبير، فيدوي الصوت الله أكبر.

---

[٣٩] مسجد موسكو الجامع: أصبح أكبر مسجد في أوروبا حيث يتسع لعشرة آلاف مصلٍ، ويرجع تاريخ بنائه ل ١٩٠٢ على يد مجموعة من التجار التتار، تم هدمه عام ٢٠١١ بادعاء أنه أصبح آيلا للسقوط وأعيد بناؤه وافتتح مجددًا بوقفة عرفات ١٤٣٤، ٢٣ سبتمبر ٢٠١٥ بحضور فلاديمير بوتن ورجب طيب أردوغان ومحمود عباس أبو مازن.





بعد ذلك أذن لصلاة الجمعة، وصعد الإمام على المنبر الضخم وبدأ الخطبة بداية تقليدية باللغة العربية، ثم سرعان ما ذهب إلى متن الخطبة بالروسية، ثم نهاها بالدعاء باللغة العربية، ثم أقام الصلاة، وكانتا ركعتي جمعة يحضر فيهما ركن الاطمئنان في الصلاة والوقار، وليستا كركعتي صلاة العيد بسانت بطرسبرج.

انتظرت بعد أن انتهت الصلاة قليلًا ريثما يخف الزحام، ثم غادرت المسجد مستقلًا تاكسي إلى الفندق معطيا للسائق عنوان الفندق القريب بالفعل والرجل وافق، ثم توقف ليقل سيدة روسية في الخمسينات من العمر، مسلمة ومحجبة وما فهمته أنها بطريقنا، وهو أمر عادي يفعله سائقو التاكسي بالقاهرة. بعد قليل وصلت السيدة إلى حيث أرادات وبقيت أنا مع هذا السائق الذي اكتشفت أنه "غشيم" [٤٠]، فهو لا يعلم أين عنوان الفندق مع ملاحظة أننا نتكلم عن فندق شهير بطبعه وليس نزلًا صغيراً لم يسمع به، ولأننا في روسيا حيث ظهر المثل الروسي الشهير القائل "الجيش قالك اتصرف" فقد حاول السائق أن يتصرف بالفعل واتصل بزميل له عبر الهاتف ليسأله كيف يذهب إلى العنوان المقصود، حينها كنا بالفعل قد بعدنا عن الطريق السليم، والطريق الذي ما كان ليستغرق من المسجد إلى الفندق أكثر من خمس دقائق استغرق أربعون دقيقة بالتمام والكمال، حتى عندما أراد أن يتأكد أنه يسير بشكل سليم وأراد أن يتوقف ليستخدم Google Maps فإذ به يصطدم بغشومية مفرطة في الرصيف تدفعني في التفكير من الذي منح هذا المخبول رخصة قيادة تاكسي من الأساس!، هل هنا لديهم نظام أن يحمل كارت توصية إلى فلان بيه ليحصل على الرخصة؟ أو ذلك النظام الآخر الذي لا نفتأ نعاني منه والمعروف بفتح الأدراج (كناية عن تقاضي الرشوة)، لا أعلم.

المهم أني أخيراً و الحمد لله سالمًا قد عدت إلى الفندق مرة أخرى، كانت الساعة حينها قد أصبحت الثالثة والنصف عصراَ، كنت جائعًا بالطبع فلم أتناول

---

[٤٠] معنى غشيم في معجم اللغة العربية المعاصرة ، جمع غشماء : صفة مشبهة تدل على الثبوت من غشم : جاهل بالأمور ، يعمل بلا روية ولا نظر؛ معنى غشم في مختار الصحاح الظلم.



شيئًا منذ الصباح، وأيضًا كنت جائعًا للنوم حيث يجب أن "أفوّق" استعدادا لسهرة المساء المميزة بمسرح البولشوي، فأخذت دشًا ساخنًا وخلدت للنوم، حينها كان الأخوان فوزي قد غادرا الغرفة وذهبا لتناول الطعام والتجول، ولكنهما عادا متأخرين فأيقظاني في عجلة، وشرعنا نجهز ونستعد.

إنه البولشوي يا عزيزي، ونجهز هذه يعني أن نتأنق، حيث ارتدينا ملابس السهرة، بدلة كاملة وأحذية لامعة، كما اصطحب الأخوان فوزي معاطفهما على أيديهما- تلك التي لم تكن معنا وقت الحاجة إليها في سانت بطرسبرج- على الرغم أنه لم تكن هناك الحاجة للمعاطف فالطقس يومها كان معتدلًا للغاية، وسبب أخذ المعاطف كان إذا ما أرادا التقاط صوراً فوتوغرافية بالبولشوي، وصراحة كانا بالمعاطف والبدل الكاملة وجهاء بالمعنى الحرفي للكلمة، رغبت أن آخذ معطفي لكن كان الأمر صعبًا، أولًا لأنه كان بحاجة إلى كي خفيف ولم يكن هناك وقت لهذا، وثانيًا ولأنني لم أكن لأرتديه بسبب الطقس الجيد، ولأن يدي اليمنى مشغولة بالعكاز سيصبح المعطف حينئذ عبئًا لا داعي له، حيث ما زالت تلك العادة تلازمني في الإمساك بهاتفي المحمول وحافظة النقود في يدي.

غادرنا الغرفة ونحن متأنقون "عرسان يا أخواتي" ولأننا لم نكن لنغامر بالتأخر بسبب محاولة إيقاف تاكسي من الطريق، كنا قد حجزنا واحدًا عن طريق موظفي الاستقبال، حيث سبق وأن أخبرتنا الموظفة أن الطريق من الفندق إلى المسرح يستغرق أربعون دقيقة تقريبًا، والأهم أنه لا يُسمح بالدخول بعد بدء العرض، وبالطبع كان هذا يعني أنه لا وقت لدي لا لشراء الطعام ولا لتناوله، وبالتالي ذهبت للبولشوي وأنا جائع.

وللبولشوي معنا قصة تُروى، وإليك تفاصيلها:

بإدراكنا أننا مسافرون إلى موسكو كان لابد أن ننتبه لحجز أي عرض مسرحي بالبولشوي، فنحن "مش بنروح موسكو كل Weekend مثلًا ولكننا انتبهنا لهذا نوعًا ما متأخرين، وما إن انتبهنا لهذا حتى ذهبنا أحمد وأنا إلى مقهى إنترنت لنرى كيفية الحجز الإلكتروني عبر موقع البولشوي الإلكتروني، ولكن كانت المفاجأة السيئة أننا لم نجد ولا مقعد شاغر في أي عرض أثناء الفترة التي سنتواجد بها بموسكو بالمسرح الكبير، وهذا ضايقنا صراحة فكيف لا نجد مقاعد متاحة ونحن قبل موعد الحجز بأكثر من شهر؟ ولكن سرعان ما اكتشفنا أن الروس مولعون



بالبولشوي بشكل لا يُصدق وبفنون المسرح ورقص البالية عمومًا، حيث كانت غالبية عروض المسرح الكبير هي عروض يومية لبالية بحيرة البجع وكانت محجوزة كلها حتى يناير ٢٠١٦ ونحن حينها لم نكن تجاوزنا أغسطس من ٢٠١٥.

إذن أصبح حلم مشاهدة عرضًا داخل المسرح الكبير للبولشوي حلمًا بعيد المنال، وجدير بالذكر هنا أنه ليست كل تذاكر البولشوي مرتفعة القيمة، فلك أن تندهش كل الاندهاش عندما تعلم أنه بإمكانك أن تحجز تذكرة لمشاهدة عرض بالمسرح الكبير بتذكرة لا تتجاوز العشرون جنيهًا مصريًا "الأسعار بالقطع قبل تعويم الجنيه المصري" -يا بلاش - بالطبع لا تضمن لك هذه التذكرة مقعدًا مميزًا بالمسرح ولكنها ضمنت لك على الأقل مقعدًا به في نفس المسرح الذى سيدفع فيه شخصًا آخر بمقعد آخر قرابة الثمانمائة جنيهًا لمشاهدة نفس العرض.

نعود لموضوعنا والبولشوي، بغياب خيار الحجز بالمسرح الكبير لم يكن أمامنا إلا أن نلقي نظرة على عروض المسرح الصغير، وحمدًا لله كانت هناك أماكن شاغرة في عروض ستحدث أيام تواجدنا بموسكو، ولكن كانت الأماكن المتبقية محدودة والعروض أيضًا، فمثلًا فيما يخص العروض لم يكن متوفرًا سوى عرضين لا ثالث لهما، عرض يوم السبت الموافق ٩/١٩ وهو يوم سفرنا من القاهرة إلى موسكو، والعرض الآخر يوم الجمعة الموافق ٩/٢٥ بليلتنا الأخيرة بها، وكان الموقع يحتوي على صور ومقتطفات دعائية من كلا العرضين، وبدون تفكير اتفقت وأحمد- حيث أن محمودًا بطبعه يطاوعنا ويترك لنا حرية التصرف في مثل هذه الأمور- أن عرض يوم السبت هو الأفضل فهو جذاب للغاية ومبهر في الألوان والإضاءة بل وإدارة المسرح حيث وصل إلى درجة من الاحترافية والإبهار حد دخول سيارة كاديلاك مكشوفة حمراء اللون فوق المسرح، ولمحبي الفنون أن ترى عرضًا حيًا بهذه التفاصيل أمر لو تعلمون عظيم، وبالفعل كنا على وشك حجز المقاعد بذلك العرض، إلا أني ترددت وقلقت ونقلت ذلك لأحمد، العرض سيكون يوم وصولنا إلى موسكو وعلينا أن نكون هناك في السابعة مساءً، صحيح أن ترتيباتنا وموعد الطائرة يضمنان أن نكون بموسكو في الثانية ظهرًا على أقصى تقدير، إلا أن فرضية احتلت تفكيري ماذا لو تأخرت الطائرة أو حدث أي طارئ عطلنا على أن نكون هناك بالموعد؟ ماذا إذا تأخر وصول الحقائب التي سيكون بها ملابس السهرة التي سنحضر بها العرض؟ عرضت سلسلة الماذات هذه على



أحمد الذى وافقني عليها، وبقينا لفترة "متنحين" أمام شاشة الكمبيوتر يجذبنا عرض يوم السبت ولكن نرغب أن نكون في الأمان فنريد أن نحجز عرض يوم الجمعة ولكن عرض يوم السبت يجذبنا أكثر.

وبعد تفكير حسمنا الأمر أنه لو حجزنا تذاكر بعرض يوم السبت وفاتنا لأي طارئ فهذا يعني أمران، الأول أننا سنكون قد أهدرنا قيمة التذكرة بلا عائد يُذكر، والتي كانت بالمناسبة بحدود الأربعمائة جنيهًا مصريًا، والثاني أنه حينها لن نتمكن من حضور أي عرض بالبولشوي بكلا مسرحيه الكبير والصغير، حيث أن أماكن عرض يوم الجمعة هذا ستكون حُجزت هي الأخرى، وبالتالي فما لا يُدرك كله لا يُترك جُله، وبناءً عليه حجزنا عرض يوم الجمعة الموافق ٩/٢٥ وكان باليه "Taming of the Shrew" أو (ترويض النمرة) وهو مستوحى من نص أدبي للإنجليزي الشهير وليم شكسبير، وبالتأكيد لا يخفى عليك الآن أننا فعلنا الصواب وإلا لم نكن لنحضر عرضًا بالبولشوي بسبب تأخر الطائرة عن الإقلاع لأكثر من سبع ساعات.

وصلنا إلى البولشوي [٤١] قبل بدء العرض بعشر دقائق، سرعان ما التقطنا بعض الصور الفوتوغرافية أمام مسرح البولشوي العريق، وصعدنا إلى حيث المسرح الصغير. دخلنا ونحن نحمل فقط التذاكر المطبوعة عبر الإنترنت والتي كنا نعتقد أنه سيتم استبدالها بتذاكر من المسرح نفسه، ولكن هذا لم يحدث فالتذاكر التي معنا كانت تحمل Barcodeوبالتالي يتم قراءته عبر الجهاز ومن ثم السماح لنا بالدخول، وكما أفلام الأبيض والأسود يمكنك ترك معطفك بمكان مخصص لهذا، ويمنحك أحد العاملين رقمًا لتستعيده عقب انتهاء العرض، وبالطبع هي خدمة مجانية، فترك الأخوان فوزي معاطفهما، وكالأفلام الأبيض والأسود أيضًا أجَّرنا تلك النظارات المُكبِّرة التي تتيح لنا مشاهدة العرض بشكل أوضح.

---

[٤١] وقع تأسيس فرقة البولشوى عام 1776 من قبل بيتر أوروسوف وميخائيل مدوكس، وكانت العروض في البداية تقدم في أماكن خاصة، وفى عام 1780 تحصلت الفرقة على مسرح بتروفسكي الذي أتى عليه حريق عام1805 فتم بناء المسرح الحالي في محله ، وهو من تخطيط المهندس المعماري جوزيف بوفي ، أغلق في عام ٢٠٠٥ للقيام بعملية صيانة وترميم وتم إعادة افتتاحه للجمهور في أكتوبر .2011 وقد بلغت كلفة عملية التجديد الشاملة من الداخل والخارج نحو ٧٠٠ مليون دولار أمريكي.



وما هي إلا دقائق حتى قلّت الإضاءة في بهو الاستقبال، وانطلق جرسٌ خفيفٌ مما يعني أنه على الجمهور دخول المسرح نفسه والالتزام بالأماكن لبدء العرض. دخلنا إلى حيث المسرح وتملكتنا الدهشة، هل هذا هو المسرح الصغير لديكم أم أننا دخلنا المسرح الكبير عن طريق الخطأ؟ كلا المسرحين في مبنيين منفصلين متجاورين، فالمسرح لم يكن صغيراً على الإطلاق، حيث يتسع لعدد ١٥٠٠ من المشاهدين، فمسرحهم الصغير هذا أكبر من المسرح الكبير لدينا بدار الأوبرا المصرية والذي يتسع لعدد ١٢٠٠ متفرج، وهو - أي البولشوي الصغير - تحفة فنية بما تحمله الكلمة من معنى، طراز تصميمه الرائع والذي يذكرنا بتلك المسارح التي نشاهدها في أفلام الأبيض والأسود، أو لنذهب قريبا من الناحية السينمائية زمنياَ أقصد ونلقي نظرة على المسرح الذي ظهر في أحد مشاهد الفيلم الأمريكي Pretty Woman لندرك روعة تصميم المسرح، وإن كانت الألوان الطاغية عليه ليست المعتادة في المسارح، حيث المعتاد شيوع اللون الأحمر القاني في التصميم وهو ما عرفنا أنه كذلك بمسرح البولشوي الكبير، أما الصغير فكانت الألوان فيه هي اللون الزيتي (إحدى درجات اللون الأخضر) واللون الـ Off white أو يطلقون عليه الأبيض سن الفيل أو ببساطة "البيج"، صحيح الألوان جديدة إلا أنها مناسبة ولائقة بالمسرح ولن تشعر عينك بأي فجاجة بصرية إطلاقًا.

بالطبع المسرح مكتمل العدد ولا تجد ولو مقعدًا شاغراَ، ومن حسن الحظ كانت أماكننا التي اخترناها جيدة للغاية، صحيح نحن من اختارها بمحض إراداتنا عبر الإنترنت، لكني لم أتخيل أن تكون جيدة إلى هذا الحد للدرجة التي تجعلنا لا نحتاج لاستخدام النظارات التي أجّرناها.

وفى الموعد المحدد بدأ العرض الفني الذي كان فصله الأول أقل إمتاعًا لنا من فصله الثاني بكثير، والذي كان بعد استراحة قصيرة تجولنا فيها في أرجاء المكان وتناولت فيها حلوى شهية لم أعرف اسمها بالطبع "ولا مكوناتها أيضًا" ولكنها وفَّت بالغرض ومنحتني السكريات بها إحساسًا بشيء من الشبع "وأنا أصلًا بشبع بسهولة كما أصبحتم تعلمون". عُدنا بعد الاستراحة ليتحسن العرض كثيراً حيث الإضاءة أنسب والموسيقى وأداء الراقصين، وبعد انتهاء العرض ظل الجمهور يصفق ويحيي الفنانين العارضين لوقت طويل لدرجة تستلفت الانتباه

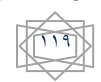


"الناس دي مش بتتعب من التصقيف ولا إيه؟" وهو ما يُلقي بظلال على مدى اهتمام الشعب الروسي وولعه بالفنون، ذلك الوله والولع الذي يفسر نفاذ تذاكر عروض المسرح الكبير للبولشوي قبلها بأشهر طويلة، وكذلك انتشار المسارح في موسكو وسانت بطرسبرج، حيث اكتشفنا وجود مسرح بأكمله داخل إحدى البنايات العادية هناك والتي دخلناها بالطبع وسألنا عن تذاكر متاحة لمشاهدة العرض الذي يُقدم ولكننا لم نجد ولم تسعفنا اللغة حينها من التواصل مع ذلك الرجل اللطيف الذي أجابنا بأنه لا توجد تذاكر، ربما لو كان عنصر اللغة موجود لسمح لنا بمشاهدة العرض من الكواليس إذا ما علم أننا سائحون ببلدهم المحب للفنون.

غادرنا المسرح ونحن سعداء بالعرض - ليست بالطبع تلك السعادة التي تسبب بها عرض بحيرة البجع قبل أيام- ولكنه على كل الأحوال عرضٌ جيدٌ ويكفي أننا شاهدناه في البولشوي ذاته.

وهنا بالطبع وجب تسجيل مقطع فيديو يوثّق اليوم والتجربة والعيد أيضًا، ثم كانت المفاجأة والتسرع في آن واحد، حيث وجدنا شيئًا عجيباً وهو عرض شارع، أي عرض عام للجمهور الذى يسير بمحيط البولشوي باستخدام تقنيات من شركة سامسونج، ويبدو أن الأمر دعائي ولكنه يستخدم المبنى الخارجي للمسرح الكبير للبولشوي ليتم تقديم هذا العرض من خلاله..."فهمت حاجة؟" في الأغلب "لأ"، إذن للتبسيط هو عرض للصوت والضوء باستخدام جهاز Data show/Projector والشاشة التي يتم إلقاء الظل عليها ليست شاشة وإنما هي الوجهة الخارجية لمسرح البولشوي الكبير، هذا مع نظام صوت Sound system جبار، حيث كأنك داخل عرض مسرحي أو سينمائي بالفعل، شاهدنا العرض منبهرين بالفكرة والتنفيذ وعبقرية استغلال التكنولوجيا والـ Marketing من جانب شركة سامسونج في عمل أشياء بسيطة ولكنها مبهرة وجذابة للسياح ولأهل البلد أنفسهم.

بالطبع، لم يكن العرض طويلًا مجرد ثلاث دقائق فقط لا غير، والناس على إثره تتجمع وترابط في الميدان الفسيح، ثم حدث أن اقترح أحمد أن نتحرك صوب الساحة الحمراء والكرملين مرة أخرى لنلتقط الصور ونحن في كامل أناقتنا، وهو الاقتراح الذي وافقناه عليه بالطبع، ولكني كنت متشككًا أن شيئًا آخر ملفتًا





سيحدث وإلا لِم يتجمع كل هؤلاء الناس. آثرت أن ننتظر حتى دقات الساعة العاشرة وهي الساعة السحرية في تجارب السياحة السابقة حيث العرض الأمتع والأخير للنافورة الراقصة سواء بدبي أو كوالالمبور، إلا أن الأخوين رغبا أن نسرع في التحرك ربما نلحق بـ Gum، فأخذنا تاكسي حتى هناك واتضح لي بعد ذلك أن حدسي كان في محله، حيث أن ما شاهدناه كان فقط افتتاحية العرض، أشبه بالإعلان الدعائي حتى يتجمع الناس ليشاهدوا العرض مكتملًا، وهو العرض الذى تبلغ مدته خمسة عشر دقيقة من الإبهار الحقيقي، وإليك عزيزي القارئ رابط العرض على موقع يوتيوب الشهير [٤٢] فشاهد واستمتع.

وبهذا نتساوى صديقي القارئ في مشاهدة تلك التجربة الفريدة عبر الإنترنت، إلا أننا نتميز بمجرد مشاهدة بضع دقائق live وهي دقائق تساوي الكثير، فـالـ live "حاجة تانية ".

أقلّنا التاكسي إلى حيث الساحة الحمراء، وكنا قد تكبدنا مع السائقين عناء الفصال لأنهم ربما ظنوا بسبب مظهرنا حينها أننا رجال أعمال وسندفع ما يطلبونه، إلا أننا أصررنا على الفصال كأي مصري أصيل وهو يكاد يكون أمر "جيني/ أي في الجينات" عند المصريين وبالطبع نجحنا في الحصول على سعر مناسب.

أصبحنا في الكرملين ليلًا، وآاااه على الكرملين ليلًا، صحيح أننا ذهبنا عدة مرات نهارًا وأننا استمتعنا للغاية وقتها، وصحيح أنه عندما انتهى عرض بحيرة البجع خرجنا من المسرح ليلًا إلا أننا غادرنا حينها من ناحية حديقة ألكسندر وليس من ناحية الكرملين وسانت باسيل، وبالتالي لم نكن قد رأينا شكل الساحة الحمراء. ولعل أهم أسباب جمال تلك المنطقة ليلًا هو المجمع التجاري Gumفإضاءته الليلية مبهرة للغاية، وخلاصة القول وكي لا أطيل عليك عزيزي

---

٤٢ https://www.youtube.com/watch?v=QAWHIEG554k

ويمكنك البحث على اليوتيوب بهذا العنوان :

'Circle of Light': Stunning light show projected onto Bolshoi Theater (4K Ultra HD Quality 2160p)





القارئ، سحر وروعة هذا المكان ليلًا هو ما يُرى بالعين فعلًا ولا يمكن وصفه بالقلم، وهنا تتحقق مقولة الصورة بألف كلمة والفيديو بألف صورة، لذلك لم نكن لنتردد في تسجيل مقطع فيديو يوثق سعادتنا وانبهارنا بهذه الأمسية الفريدة من نوعها، وربما استطاع مشهد عابر بالفيلم الأمريكي Get Smart أن يصوّر جمال تلك المنطقة ليلًا.

كنا قد اشترينا حينها تلك القبعات الروسية الشهيرة والتي يتم استخدامها في الشتاء حيث برد روسيا القارس لا يصلح معه أن تترك رأسك عارية ولا حتى أذنيك، ولابد من تلك القبعة ذات الفراء وعلى الرغم من أن الطقس يومها كان معتدلًا للغاية وكان خير وداع لنا للطقس الروسي وأن المعاطف التي يحملها الأخوان فوزي محط أنظار الناس من حولنا، فإننا آثرنا العمل بالمثل المصري القائل "البلد اللي ماحدش يعرفك فيها..." مستعيضين عن باقي المثل بـ "إلبس البالطو واتصوّر فيها" حيث ارتدينا المعاطف وأقول ارتدينا لأنني استعرت معطف أحدهما وحصلنا على صور لا تُنسى بالمعاطف والقبعات في أجواء لا تُنسى أيضًا.

وعلى الرغم من إضاءة الـ Gum التي أشرت إليها، إلا أنه كان قد أغلق أبوابه، وبالتالي غادرنا الساحة الحمراء وسرنا قرب منطقة ضريح لينين حيث منطقة المطاعم لنتناول وجبة العشاء، للدقة الغداء وربما الإفطار بالنسبة لي. دخلنا أحد المطاعم واخترنا وجبتنا كما سبق وفعلنا في جوم، وصادفنا هناك مجموعة من الشباب المصريين - الذين اعتقدوا أننا الثلاثة إخوة، وهو اعتقاد يسعدني صراحة كلما تكرر وسمعته - فتبادلنا التحية والحديث السريع، وعرفنا أنهم هم أيضًا موجودون للسياحة وأنهم انقسموا إلى مجموعتين واحدة منهم تقضي أيامًا بسانت بطرسبرج، فأخبرناهم برأينا في المدينة وأنها قطعًا تستحق الزيارة، ونصحناهم ألا يفوتوا زيارة فينيسيا أوروبا الشرقية، ثم انصرف كل منا إلى مائدته.

وبعد تناول الطعام الشهي كالعادة في هذا البلد، ومغادرتنا للمطعم صادفنا فتاتين "زي القمر" روسيتين تتحدثان الإنجليزية، يبدو عليهما أثر الثراء من المظهر والملبس والهواتف التي معهما، كما يبدو عليهما أثر السكر البين حيث





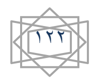
تحدثانا وهما غارقتين في الضحك بلا سبب، وتطلبان منا مبلغًا زهيدًا من المال -مائة روبل على ما أذكر-، فاعتذرنا لهما وانصرفا وهما يضحكان كما كانا.

أخذنا تاكسي آخر، أو للدقة هي سيارة ملاكي أراد صاحبها تقريباَ "تقليب عيشه" وكانت هي السيارة الأفخم التي سبق أن ركبنا مثلها، حيث كانت إحدى السيارات ماركة مرسيدس الحديثة للغاية، يبدو أن زمن روسيا الشيوعية ولّى إلى غير رجعة وأن الرأسمالية تطغى على حياة الناس. وصلنا للفندق وأخذ الرجل حسابه العادي دونما مبالغة بسبب وجاهة السيارة التي أعجبت الأخوين فوزي أيما إعجاب – وهما من عشاق السيارات والمهتمين بها- دفعهما لتسجيل مقطع فيديو يوثق تجربتهما بهذه السيارة والتي تقريباَ لم يكن يوجد منها في مصر في هذا التوقيت، كانت السيارة أفضل ختام وكأنها جاءت لتكمل وجاهتنا في هذا اليوم.

وعلى الرغم من ذلك حينها – وللدقة- وهو ما عبرت عنه للأخوين فوزي كنت أشعر أن قدمي أغلى وأثمن من كل السيارات الفارهة في العالم، وأن سيري بها دونما عكاز لا يُقدر بثمن.

وجدت موظف استقبال الفندق يمنحني ظرفًا مغلقًا، ويخبرني أنه قد تمت إعادة الكرسي المتحرك وأن هذا هو مبلغ التأمين، وأعطاني إيصالًا بتكلفة الخدمة، صراحة كنت سعيدًا لأنني غير معتاد على تقدير الإنسان بهذا الشكل، تقديره مجردًا من جنسيته أو ديانته أو أي شيء آخر، فقط إنسان احتاج إلى مقعد متحرك لبعض الوقت فحصل عليه مجانًا، صحيح شعرت بتأنيب الضمير، أني ربما قد حجبت المقعد عن شخص ما ربما كان أحوج إليه مني، حيث أنني لم أستخدمه وتركته لعدة أيام دونما إعادته واستبدلته بالعكاز والأخوين فوزي، ولكن عزائي في هذا الأمر أنه حدث عن دون قصد أو سوء نية، وأني لم أكن أعلم أنه سيكون مرهقًا في استخدامه إلى هذا الحد، وأن ليس كل الطرق ممهدة لاستخدامه و"ربنا يسامحني".

صعدنا بعد ذلك إلى الغرفة، وبدأنا في تحضير حقائبنا استعدادًا للمغادرة في ظهيرة اليوم التالي.





١٠- وداعًا موسكو

استيقظنا صباح السبت ٩/٢٦ وكان الطقس جيدًا لدرجة لا يمكن معها استخدام ملابس شتوية، واكتشفنا أن ما كان معنا من ملابس خفيفة أصبح لا يصلح للاستخدام ويحتاج إلى الكي وهو ما لم يكن متاحًا وقتها، والطقس في مصر حينها كان حارًا بالطبع، وبالتالي السفر والوصول إلى مصر بملابس شتوية كان ليصبح أمرًا صعبًا، فقررنا أن نذهب سريعًا إلى الساحة الحمراء ونشتري تيشرتات صيفية، كما أننا كنا قد أغفلنا أو أجلنا وسوفنا شراء التذكارات التي تذكرنا بالبلد لتنضم لأخواتها لدى كل واحد منا والتي نسعد كلما رأيناها في منازلنا.

كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة تقريبًا، وبالتالي كان أمامنا متسع من الوقت حيث أن موعد طائرتنا في الثالثة والنصف عصرًا، فأسرعنا بالمغادرة والذهاب إلى الساحة الحمراء، وقبل ذلك سألنا موظفة الاستقبال عن المدة التي يستغرقها الطريق من الفندق إلى مطار ديميدوفو، فقالت أنها حوالي ساعة مع مراعاة الزحام المروري، حيث أننا سنتحرك في الظهيرة وليس في المساء المتأخر مثل الموعد الذي أتينا فيه، وعندما سألتنا متى نرغب أن تحجز لنا سيارة الأجرة لتنقلنا إلى هناك قلت أنا - وصمت الأخوان فوزي ولم يعقّبا "خليك شاهد"- لتكن في الثانية عشر والنصف.

وسرعان ما وصلنا إلى حيث الساحة الحمراء، وشرعنا في الشراء السريع وكانت قيمة الأشياء مرتفعة، ونستطيع أن نقول "أسعار سياحية"، وبالتالي لم نتمكن من اقتناء مجسم كبير للكرملين أو سانت باسيل لينضم إلى باقي المجسمات الكبيرة حجمًا نسبيًا لعدد من المعالم السياحية حول العالم، واكتفينا بأشياء صغيرة الحجم، وكانت شقيقتي الصغرى قد طلبت مني شراء الماتريوشكا[٤٣] وبالفعل اشتريت لها واحدة.

[٤٣] الماتريوشكا عبارة عن دمية خشبية على شكل امرأة تحتوي بداخلها على دمى أصغر وعادة ما تكون الواحدة منهن تحتوي على خمس دمى اصغر منها، وهى ترمز إلى الأمومة وتواصل الأجيال.





وفيما يخص السبب الرئيسي لوجودنا في الساحة الحمراء وهو شراء التيشرتات، فلم نكن موفقين للغاية حيث لم يكن يوجد تيشرتات نصف كم من تلك التي ينتشر وجودها في الأماكن السياحية ويكون مكتوب عليها I وعلامة القلب Russiaأو Moscow، ولم نجد تيشرتات سوى تلك التي عليها صور مختلفة للرئيس الروسي فلاديمير بوتن، أحدها وهو يمتطي دبًا، وواحدة وهو ينظر إلى المجهول، وبالقطع لم نتحمس لشراء هذه التيشرتات مطلقًا، وبعد جهد وجدنا ثلاثة تيشرتات متطابقة الشكل واثنان منهما في اللون أيضًا، ولكن كان بهما عيبًا واحدًا بالنسبة لنا أن عليها كلام باللغة الروسية التي نجهلها وتاج البابوية وعدة صلبان صغيرة، لن تراها إلا إذا دققت النظر، وبالمفاضلة بينها وبين الفلاديمير بوتين، فاخترنا الأخرى، فهي ستفي بالغرض حتى وإن لم نكن لنرتديها ثانية وكلاهما لم يكن غالي الثمن.

أنجزنا مهمة الشراء وذهبنا إلى جوم لآخر مرة، وتناولنا بروسيا آخر وجبة طعام شهية كالعادة وكانت سمك وتحلية رائعة من الفراولة.

انقضى الوقت سريعًا، أو بالأحرى سرقنا الوقت ولم ننتبه أن الساعة قد أصبحت الثانية عشر إلا ربع ومن المفترض مغادرة الغرفة وتسليمها؛ أي عمل الـ Checkout في تمام الثانية عشر، وبالرغم أنه طوال إقامتنا في روسيا لم نكن نعاني من إيقاف تاكسي - اللهم إلا أمام الفندق، وهو الأمر الذي وجدنا حله هو حجز تاكسي عن طريق الفندق- فإننا وقتها عانينا حيث في بادئ الأمر لم نجد تاكسي فارغًا، ثم توقف لنا عدد من السائقين الاستغلاليين الذين طالبوا بضعف الأجرة المعتادة وكأنهم يعلمون احتياجنا، وعلى الرغم من أننا لم نكن نملك رفاهية المفاضلة والمفاصلة والانتظار، فإننا تعاملنا ببرود مع الأمر وانتظرنا أن يأتي شخص لديه ضمير، وهو ما حدث بعد دقائق أخرى من الانتظار.

وصلنا إلى الفندق في الثانية عشر والنصف، وكانت موظفة الاستقبال قد عطلت الكروت التي معنا فلم تعد صالحة لاستخدام المصعد وبالتبعية دخول الغرفة، فذهبت إليها معتذرًا عن التأخير وهو ما تقبلته في ود وأعادت تشغيل كارت واحد فقط، وبالتالي تمكنا من الصعود ودخول الغرفة، وبدلنا ملابسنا التي كنا نشعر بالحر بسببها وأخذنا الحقائب التي بالفعل كانت جاهزة وغادرنا الغرفة، وكانت السيارة التي حجزناها في انتظارنا منذ نصف ساعة، حيث أن





الساعة كانت قد أصبحت الواحدة وكانت سيارة مرسيدس حديثة اتسعت لحقائبنا الثلاثة الكبيرة ونحن معها بالطبع.

وانطلقنا في طريقنا إلى المطار، ها نحن انطلقنا متأخرين والطريق مزدحم بالفعل والمطار خارج زمام ونطاق البلد، ومع مرور الوقت أصبحنا قلقين حينها من أنه ربما لن نتمكن من الوصول في الوقت المناسب، وربما تفوتنا الطائرة حيث ماذا عن إجراءات التفتيش قبل دخول المطار؟ وهل ستكون ميسرة أم سنصادف مثل "لويزا...فاكرها؟" كنا نلوم أنفسنا وأنه ربما كان من الحماقة الذهاب للساحة الحمراء اليوم ونحن نعلم أننا مغادرين، وربما كان الخطأ أننا دخلنا جوم وتناولنا الطعام أو التسكع في شراء التذكارات والتيشرتات أو في انتظار تاكسي مناسب بعدما خرجنا من الساحة الحمراء، وربما الخطأ الأساسي والذى حملني إياه الأخوان فوزي هو أنى طلبت التاكسي في موعد متأخر فضلًا عن تأخرنا نحن أيضًا في استقلاله، أضف إلى كل هذا وأنه بعدما أصبح هناك انفراجة مرورية وأصبحنا نسير على طريق سريع ونركب مرسيدس حديثة إلا أن السائق لم يكن تتجاوز سرعته المائة كيلو في الساعة، مما كان يزيد من تأخرنا أكثر وأكثر، وكنا في قمة دهشتنا لماذا يسير بهذه السرعة والسيارات من حولنا تمر وتتجاوزنا في لمح البصر مما يعني أنهم يسيرون على سرعات تجاوز المائة وأربعين كم/ساعة!

حاولت وأنا الجالس بجواره- وبجوار كل سائقي التاكسي التي ركبتها لأتمكن من مد قدمي والعكاز معي - حاولت أن أتواصل معه مستخدمًا الإنجليزية في بادئ الأمر والتي رفضها طبعًا، ثم لغة الإشارة مشيراً إلى عداد السرعة ممثلًا حركات السرعة بيدي وبصوت من فمي ومصراً على ذكر مفردات علّه يدرك منها شيئًا مثل **Late / Plane** وهو ببرود يشير إلى الرقم مائة على عداد السرعة وعلامة النفي مما يعني أنه لن يتجاوزه ولا نعرف لهذا سببًا حيث استبعدنا مسألة وجود غرامات على السرعات الأعلى، حيث أنه ليس من المنطقي أن كل قائدي السيارات التي جاوزتنا "مستبيعين"، فنحن نتحدث عن كل السيارات وليست واحدة أو اثنتين.

صراحة كنا نشتمه بالعربية وسمعت أحمد يقول "ياما نفسي أديله على قفاه" هو بالطبع لا يعلم ما يُقال، صحيح أننا أخطأنا في تقدير عنصر الوقت، ولكنه الآن سيصبح السبب المباشر لعدم لحاقنا بالطائرة، وبعد مرور بعض





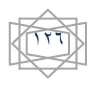
الوقت ولا أثر للمطار يبدو في الأفق حاولت سؤاله بالإشارة طبعًا أنه متى سنصل إلى المطار؟ مشيراً إلى الساعة التي أمامه في التابلوه، وفهمني بعد عناء وأشار إلى الثانية والربع أو النصف، وهذا يعنى أنه قبل ساعة على أفضل التقديرات من موعد طائرتنا، وإذا ما استغرق تفتيش السيارة وقتًا قبل دخول المطار فهذا يعني أمراً واحدًا لا محالة، أن الطائرة ستفوتنا.

كان علينا أن نتأهل فكريًا في حالة مثل هذا السيناريو الأسود ماذا سيكون العمل، لا يوجد معنا نقود تكفي لشراء تذاكر سفر جديدة أو حتى دفع الفرق بين حالة الـ No Show (وهو عدم ذهاب المسافر في موعد الطائرة) وحجز مقاعد بديلة، وبالطبع لا يوجد معنا نقود تكفي لمد الإقامة بالبلد، ريثما يتمكن أهلونا من إرسال تحويل مالي لنا، ولأننا لا ندري أيهما أكثر سوءاً، انتظار البلاء أم وقوعه، أنهينا الكلام بيننا أنه لكل حادث حديث، لنصل إلى المطار أولًا مع "ابن الكئيبة هذا" وبعد ذلك "يحلها الحلّال".

وفي الثانية والربع بالفعل كنا قد أصبحنا في المطار، وحمدًا لله لم تكن هناك إجراءات تفتيش للسيارات القادمة، وسرعان ما أنزلنا حقائبنا وودعنا السائق باللعنات حيث لا ندري في تلك اللحظة هل وصلنا في الوقت الضائع وبعد فوات الأوان أم في الوقت بدل الضائع؟ وجدير بالذكر أن هذا هو السائق السخيف السمج الوحيد الذي قابلناه في روسيا كلها منذ أن وصلنا واستخدمنا سيارات الأجرة.

دخلنا إلى المطار- ونحن نتبادل الاتهامات بالمسئولية عن الأمر مستخدمين قاعدة الـ Finger Dance [٤٤]- وعمومًا وبعيدًا عن المسئول فإن المطارات تحديدًا تحتاج للدقة والحذر في التعامل معها ومواعيدها، ببساطة أنت من يتوجب عليه انتظار الطائرة لكنها لن تنتظرك.

[٤٤] Finger Dance: هي نظرية يتحدث عنها خبراء التنمية البشرية وهى قائمة على تبادل الاتهامات والإشارة إلى الآخر دومًا للتنصل من المسئولية عند وقوع أخطاء وإظهار أن الآخر هو المسئول تمام المسئولية عن أي وضع سيء قد حدث ، على الرغم أنك عندما تشير بالسبابة إلى شخص ما متهمًا إياه بالمسئولية فإن هناك ثلاثة أصابع أخرى في كفك متوجهة إلى نفسك دون أن تنتبه وتشير إلى صدرك أنت.





كان المطار مزدحمًا للغاية، وكسبًا للوقت فضّلت الذهاب لمكتب الاستعلامات والسؤال عن الرحلة الخاصة بنا، وهل الكونترات ما تزال مفتوحة أم أغلقت وضاعت علينا الرحلة؟ حيث أن مكتب الاستعلامات في مثل هذه الحالة أفضل من البحث عن رقم الرحلة وحالتها على شاشات البحث، حيث أن هذا يحتاج إلى تركيز "ويزغلل العين على فكرة ".

ذهبت ووجدت طابورًا طويلًا واقفًا يريد كل واحد ممن فيه أن يستفسر عن أمر ما، لم يشفع لي العكاز في السماح لي بتخطيهم "جو الصعبانيات أو لنقل الإنسانيات التي أحيانًا ما نحترمها هنا في مصر" حيث بدأوا في "البرطمة " بصوت مرتفع احتجاجًا على تجاوزي لهم، وكما أن الجريمة لا تفيد، كذلك الإنجليزية في روسيا لا تفيد أيضًا، فلم تفلح محاولاتي لإخبارهم أننا على وشك إضاعة رحلتنا و Please التمسوا لي العذر، إلا أنهم لم يلتمسوه "العذر بالـتأكيد"، فـكان لا بد من الإسراع للبحث في شاشات الاستعلامات، ولحسن الحظ وجدنا بيانات وحالة رحلتنا بسهولة، والمعجزة أنها كانت ما تزال متاحة للتسجيل لبضع دقائق أخرى، فأسرعنا إلى التوجه إلى حيث الكاونتر الخاص بنا، وبالفعل سجلنا تذاكرنا وسلّمنا الحقائب، الحمد لله أخيرًا تنفسنا الصعداء.

طبعًا خلال الوقت المنصرم كان والدي يتواصل معي، وكان قد أصابه القلق لأننا لم نكن وصلنا للمطار بعد وخشي أن نفوّت الرحلة، فلما انتهينا من تسجيل التذاكر بادرت للاتصال به وطمأنته أن كل الأمور على ما يُرام، ثم انتقلنا إلى مرحلة الجوزات وختم المغادرة والتي تمت بسهولة ويسر يثيران الدهشة، ويبدو فعلًا أن دخول مطارات روسيا ليس كما الخروج منها. وعلى ذكر المطارات لك أن تعرف أن المطار وأنت مغادر مطارًا طبيعيًا جميلًا أنيقًا وعصريًا وليس كما معسكرات الـ KGB التي صادفناها عند وصولنا في اليوم الأول.

وبحصولنا على ختم المغادرة أصبحنا في حكم من غادر روسيا بالفعل، وبقينا في منطقة الانتظار التي غلب عليها المصريين، بالطبع فنحن عائدون إلى القاهرة وعلى متن مصر للطيران، فعاد سماعنا للغة العربية من جديد.



صعدنا إلى الطائرة بعد ذلك، وكان الطبيعي أن تكون مقاعدنا نحن الثلاثة بجوار بعضها البعض وهو ما كان متاحًا بالفعل، وعلى غير المتوقع حيث أننا نستخدم طائرة لا باص السوبر جيت بين المحافظات، وجدنا المقعد الذي في المنتصف مبتلًا بللًا واضحًا، لن يتمكن أحدنا من الجلوس عليه طوال مدة الرحلة ولمّا لم تكن هناك ثلاثة مقاعد أخرى متجاورة متاحة، فلم نجلس متجاورين، حيث ذهب محمود ليجلس في مقعد آخر وفره له مضيف الطيران، والمؤسف أن أشياء كهذه تعطي انطباعًا سيئًا عن خط الطيران، وتجد نفسك تحزن لأن هذا مثل الملكية العامة أو بالعامية "في وشنا".

جلسنا أحمد وأنا نتبادل أطراف الحديث عن الرحلة وأحلام السفر الأخرى، إلى أن وصلنا إلى القاهرة ثم السويس مرة أخرى بحمد الله، وهكذا تمت واحدة من أجمل وأعجب وأغرب وأصعب الرحلات.



١١- عين على روسيا....و "جت سليمة"

أعتقد أنه خلال صحبتك لنا نحن الثلاثة في رحلتنا أصبحت تمتلك صورة عامة عن روسيا، ربما لن يُعتبر هذا الفصل إلا تأكيد لتلك الصورة، فروسيا الاتحادية أكبر بلد في العالم من حيث المساحة، ذات المائة ثلاثة وأربعين مليون نسمة، وهي من الدول العابرة للقارات، حيث تمتد بحوالي ٦٠% من مساحتها في قارة آسيا، في حين أن الـ ٤٠% المتبقية تقع في قارة أوروبا، وبذلك تكون روسيا ضمن عدد محدود من البلاد التي تقع أراضيها في قارتين مختلفتين مثل مصر (تقع شبه جزيرة سيناء بقارة آسيا) وكذلك تركيا (حيث يربط مضيقا البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة- بين قارتي أوروبا وآسيا) وكذلك كازاخستان وأذربيجان وجورجيا.

كانت روسيا أكبر مؤسسي الاتحاد السوفيتي السابق الذى تكوّن من عدة دول اتخذت من الاتحاد السوفيتي كيانًا لها إلى أن انهار هذا الاتحاد وتفكك عام ١٩٩١، وكان ميخائيل جورباتشوف هو آخر حكام هذا الاتحاد الذى تحول إلى دول مستقلة منذ ذلك التاريخ.

إذا ما أتيح لك زيارة سريعة لروسيا كزيارتنا تلك ولم تتمكن من الإقامة الطويلة سواء للعمل أو الدراسة، وإذا ما كنت مثل حالتنا لا تعرف من اللغة الروسية سوى اسمها والكلمة الشهيرة ذات الدلالة السيئة في العامية المصرية "خراشو" فلن تتمكن من فهم طبيعة البلد السياسية والاقتصادية بشكل واضح، وبالتالي ما سأذكره في الأسطر القادمة يحتمل الصواب والخطأ، ولكنه في جميع الأحوال نتاج معايشة بضعة أيام ومشاهداتها.

حاليَا ستندهش هل هذه البلد ما تزال اشتراكية بالفعل أم أن الرأسمالية قد غزتها ولم تستطع المقاومة؟ فسمات البلدان الاشتراكية أنها تبتعد عن الرفاهية والفخامة، وهما أمران متوفران بوضوح في روسيا، وعلى ذكر الرفاهية والفخامة لك أن تعرف أن تلك السيارة الروسية الصنع الشهيرة والتي غزت روسيا بها الكثير من الأسواق ومنها السوق المصري وتجدها بكثرة لدينا في المؤسسات العسكرية والهيئات والمصالح الحكومية "بالتأكيد عرفتها"، نعم، هي السيارة اللادا، لك أن تعرف أننا لم نرَها على هيئتها التي اعتدناها قط طوال مدة





إقامتنا هناك سواء بموسكو أو بسانت بطرسبرج، صحيح أن الماركة ما تزال موجودة وستشاهد سيارات تحمل علامة اللادا واسمها، ولكنها سيارات حديثة للغاية وفخمة للغاية أيضًا، بها كل الكماليات التي تحلم أن تجدها في سيارة وذات شكل وتصميم عصريان، وبالتالي ستشعر أنهم "بلونا باللادا القديمة" وارتاحوا هم منها. ستجد انتشارًا للسيارات المرسيدس والـ BMW والتي سبق وأن أسلفت أننا ركبنا بعضها كسيارات تاكسي ومرخّصة كسيارة أجرة وليست ليموزين فقط، وهو ما يعطي انطباعًا بسبب كثرتها أن السيارات لديهم ليست مرتفعة الأثمان.

وعلى ذكر أمور الرفاهية أعتقد أنها منتقصة لديهم حيث يبدو أن الروس يحتفظون برواسب من مبادئ الاشتراكية ربما، حيث ما أعرفه عن روسيا أن خدمة التوصيل إلى المنازل الـ Delivery والتي نجدها لدينا في مصر بدءًا من مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية وصولًا إلى الصيدليات ومحال البقالة مؤخرًا ليست متوافرة هناك وأن مبدأهم هو "اخدم نفسك بنفسك".

البدانة والنحافة هناك نسبية، فلا تستطيع أن تصفهم بالشعب البدين أو الشعب ذو الوزن المثالي، حيث أن أغلب السيدات متوسطات العمر يعانون من البدانة ومنها المفرطة أيضًا "كما المصريات"، في حين أن الفتيات والشابات في مقتبل أعمارهن ذوات أوزان مثالية تمكنهن من العمل عارضات أزياء إن رغبن، فيما يخص الرجال فلم نصادف رجال بدناء، إلا أنه بالتأكيد الأمر "مايخلاش" وأنه هناك رجال بدناء في البلد طولًا وعرضًا.

فيما يخص الملبس، فخلال الفترة التي أقمنا بها نستطيع أن نقول أن الغالب على الروس حينها هو ارتداء الملابس الصيفية نهارًا بموسكو والخريفية مساءً، في حين أنهم يرتدون في سانت بطرسبرج ملابس شتوية نهارًا وليلًا ولكن ليست حد "الكلفتة" التي كنا نفعلها نحن، فطالما كانت درجة الحرارة لديهم فوق الصفر فهذا يعني بالنسبة لهم أن الطقس جيد، وربما رائعًا لأنهم يعانون من شتاء قارس يكافحونه بجهوزية كافة المباني لديهم الخاصة والعامة بأنظمة تدفئة مركزية، حيث أنابيب الغاز الطبيعي والدفايات موجودة في كل مكان.

وفي الوقت الذي وصفت فيه سانت بطرسبرج بالمتحف المفتوح، يمكنني أيضًا وصف موسكو بالمدينة الجميلة والنظيفة والمتنوعة، معماريًا هي مدينة





متأثرة بالعولمة والأبراج وناطحات السحاب ولكن هذا لا يمنع وجود طابع روسي واضح على الكثير من المباني والهيئات.

عادة ما تهتم الشعوب بتعلم لغة أجنبية ما، ولم يتح لنا للأسف معرفة ما هي هذه اللغة، وبالتأكيد هي ليست الإنجليزية.

ونأتي لانطباعنا عن الروس أنفسهم، فعلى الرغم من غياب عنصر اللغة والقدرة على التواصل فإن الانطباع العام عن الروس كان على عكس توقعاتنا، حيث سبق وأن قرأنا على بعض مواقع الإنترنت أن الروس من قائمة أخطر عشر شعوب (وهذا من عيوب الإنترنت حيث أن تداول المعلومات فيه لا يخضع لتدقيق ولا يتم بناء على دراسات في بعض الأحيان)، كان الانطباع الذي نعرفه قبل أن نتعامل معهم أنهم أجلاف، قليلي الذوق، حادِّي الطباع، ضيقي الخلق، يسهل استثارتهم، ويلجئون إلى العنف دوماً (بيستخدموا إيدهم قبل مخهم).

توقعنا أننا سنسير في شوارع ملؤها العنف والسلاح وتجار المخدرات ورجال المافيا "الله يخرب بيت الأفلام الأمريكانيٍ اللي مبوظة صورتهم"، وحقيقي أننا كنا متأثرين من صورتهم التي تعكسها دوماً السينما الأمريكية، حيث يكاد يكون من رابع المستحيلات أن تجد في السينما الأمريكية روسيّاً طيباً أو شهماً، هم دائماً "قتالين قتلة"، ودوماً ما يرتبط اسم أو وصف روسي بما له علاقة بالعنف، حيث نسمع بالطبع عن لعبة القمار ولكن إذا ما اقترن وصفه بالروسي أصبحت القمار الروسي، وهي لعبة موت تقتضي بأن يتفق اثنان على استخدام مسدس ووضع طلقة واحدة فيه وإدارة أسطوانة الطلقات فلا تعرف متى ستخرج الرصاصة ويتبادل اللاعبا ن استخدام المسدس مصوباً إياه في اتجاه الرأس ويتناوب المخبولان استخدام المسدس إلى أن تخرج الرصاصة في الحظ السيء لأحدهما وتفجر رأسه. ويقال أن نشأة هذه اللعبة العبثية كانت بين الجنود الروس في الحرب لإثارة بعضهم البعضِ، كما من المفترض أن ينال الناجي من الرصاصة ممتلكات وأموال خصمه، وبناءً على كل ما سبق كنا قد اتفقنا أن أحدًا منا لن يسير بمفرده.

وبالمعايشة لم نر أيًا من هذا، فلم نصادف شجارًا كتلك التي لا تخلو منها شوارع القاهرة ومصر عامة، ولم نر سلوكيات مرورية سيئة، كما بالطبع لم نشهد استخدام أحدهم للسلاح في وسط الشارع ولا في جانبه أيضًا، كما لم يتعرض





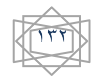
لنا أحد بسوء يُذكر، كما لم نتعرض لأي مضايقات أمنية أو حتى مضايقات، لم يتعرض لنا الأمن بأي حال ولا حتى من باب تحقيق الأمن والأمان المزعوم، أو من باب أننا أجانب والأجانب خطر على الأمن العام، وكالعادة كنا نسير دون جوازات السفر مكتفين بالصور الضوئية منها.

والمدينتان تشهدان نظام إضاءة رائع، فالظلام هو شيء لا تعرفه موسكو ولا سانت بطِرسبرج للدرجة التي لاحظنا معها أن المحلات تغلق أبوابها ربما في العاشرة مساءً، إلا أنها تترك أضواءها تعمل.

فيما يخص التواجد الأمني، لم نر له وجودًا مكثفًا إلا في منطقة الساحة الحمراء والكرملين وفقط أثناء المارثون الرياضي وأثناء صلاة الجمعة، غير هذا لم يكن لهم تواجد يُذكر، إلا أنهم يأتون بسرعة مفرطة إذا ما اقتضت الحاجة تواجدهم، حيث أذكر أنه حدث اصطدام بسيط بين أحد المواطنين وبين شخص آخر مسلمٌ كان قد انتهى من صلاة العيد معنا وسرعان ما أتت الشرطة في لمح البصر وانتهى الأمر بتحضُّر ورقي دون صوت عالٍ وسلسلة من البذاءات و(يا ابن كذا ويخرب بيت اللي علمك السواقة ومش تفتح يا حمار وانت أعمى؟) في دقائق معدودة حيث في الأغلب سيتحمل المخطئ (وهو الشخص المسلم) تكاليف الإصلاح وانتهى الأمر.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فالمرور هناك منظم إلى حد كبير، سلوكيات قيادة جيدة ولا أحد يتجاوزها أو هذا ما لاحظته، وشوارع نظيفة ذات أسفلت جيد ولا تعرف للمطبات والنقر سبيلًا، وغالبية الشوارع ذات حارات متعددة، أربع أو ست حارات ومزدوجة الاتجاهات مناصفة، أي ثلاث حارات ذهابًا وأخرى عودة، ولا يفصلهم رصيف كما لدينا، ومع ذلك الكل ملتزم بحارته ولم نصادف حوادث مرورية هناك، وبالتالي لا حاجة هناك لعسكري المرور - وهو الأمر الذي تخلت عنه كل الدول التي تسير على درب من الإصلاح الحقيقي.

وفيما يخص الناس عمومًا هناك لنا أن نصف أنهم ودودون، صحيح كل شخص في حاله وهي عادة أغلب الأوروبيين والآسيويين أيضًا، إلا أنهم ليسوا أفظاظًا أو غلاظًا، فمن قابلناهم في المترو أو المطاعم أو غيرها من الأماكن يعطي انطباعًا جيدًا عنهم، وبالتأكيد لا أنسى سائق التاكسي الشهم الذي صاحبنا يوم استلام الكرسي المتحرك.





الخلاصة أن كل شعب (فيه وفيه) وأنك لن تجد أرضًا مثالية مائة بالمائة، وعلى الرغم من تجربتنا الجيدة جدًا في التعامل مع الروس، فقد تملكتني الدهشة الحقيقية عندما علمت أن راقص فرقة البولشوي "بافيل ديميتريتشنيكو" تم اتهامه وأدين في التعرض والهجوم على مدير المسرح بمادة حارقة (مياه نار/حامض الكبريتيك)، وهو فعل عدواني بشع، والعجيب أن ينتج عن راقص باليه وفنان – لا جزّار في سلخانة - وهذه الأفعال المفروض أنها أبعد ما تكون عن صفات الفنانين، المفترض فيهم رهافة الحس، ولكن هذه الحادثة أعادت لذاكرتي حوادث مشابهة كانت تقع بين الراقصات بشارع عماد الدين قديمًا الشهير بملاهيه الليلية والمسارح التي كان يطلق عيها المصريون آنذاك لفظ تياترو.

كانت هذه الواقعة في عام ٢٠١٣ وبالتأكيد لو كنا قد علمنا بها قبل سفرنا لارتعبنا لأنه لمّا "راقص الباليه" بيتعامل بـ "ميّة النار" إذن ما بال أصحاب المهن العنيفة بالفعل كيف سيتعاملون؟.

■■■■■■■■■■■

وختامًا، ها نحن ذا عدنا إلى مصر من جديد، وكما كنت حكاءَ "غلس" و "دوشتك" بالتفاصيل الخاصة بي وبحادثتي قبل السفر، أرى أنه "بكمالة" الإزعاج أن تعرف ما حدث بعد العودة، حيث بمجرد انتهاء عيد الأضحى المبارك كنت قد حجزت لدى طبيب عظام شهير وهو د. مجدى عبد العزيز بالقاهرة الذي كان وقت الحادث بالأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، وما إن عاد بعد نهاية أيام التشريق مباشرة حتى باشر عمله ولم يأخذ إجازة ليستعيد فيها نشاطه بعد إرهاق رحلة الحج، وعملًا بنصيحة كل زملائي بضرورة عرض حالتي عليه حيث أنه من أمهر أطباء العظام بمصر، وخاصة مفصل الركبة، وكان في وقت ما طبيب النادي الأهلي كما سمعت، فما كان إلا يومان أو ثلاثة حتى عدت للسفر إلى القاهرة من جديد وكشف عليّ بالفعل، وكان تشخيصه مختلفا. قبل ذكر تشخيصه دعني أذكرك أنه قيل لي كعلاج جبس للركبة من أعلى الفخذ حتى القدم لمدة ستة أسابيع، وقيل لي أيضًا علاج آخر يدحض سابقه ويفنده ويبين خطأه، حيث كان العلاج المقترح هو إجراء عملية جراحية وتثبيت الكسر بشريحة ومسامير.



وبعد أن فحص د. مجدي حالتي واطلع علىِ الأشعة العادية منها والرنين المغناطيسي إذ به يقول - وكنت مؤهلا نفسياً لمسألة تحديد موعد للجراحة - "أنت محظوظ يا محمد" وبسؤاله كيف؟ أجاب أنه بالفعل يوجد كسر بسيط وهو بمكانه ولم يتحرك، وبإمكاننا تفادي إجراء الجراحة أو التجبيس بتجريب تمارين علاج طبيعي لمدة ثلاثة أسابيع ونرى النتيجة بعدها، على أن أظل مستخدماً العكاز. طرت حينها من الفرحة فها هو أمل جديد أن الأمور قد تكون على ما يُرام دون جراحة "حيث أن دخول غرفة العمليات" له رهبته؛ وبعد ثلاثة أسابيع عدت إليه مرة أخرى بأشعة رنين مغناطيسي جديدة وإذ به يقول: "دلوقتي أقدر أقولك إننا مش هنعمل عمليات الحمد لله" ولأستمر في التمرينات التي طلبها - ولم أواظِب عليها للأسف - وأظل بالعكاز أسبوعين آخرين ثم أحاول الاستغناء عنه تدريجياً.

تلقي هذه الحكاية بظلالها على حال الطب والمرضى بمصر، فها هي حالة بعينها "أنا يعني" استمعت إلى عدة تشخيصات وطرق علاج مختلفة، وها هو الأمر ينتهى بفضل الله بسلام، فنحن نعاني من البداية من أزمة تشخيص المرض بشكل سليم، ومن ثم علاج بشكل سليم فالمريض سيحتار، وربنا يعافينا ويعافيك صديقي القارئ.

طبعًا بعدما عدنا لمصر كان الأخوان فوزي يتابعان حالتي، ولمّا عرفا بتشخيص د. مجدي كان السؤال الذى طرح نفسه، ماذا لو كنا قد ألغينا الرحلة أو ألغيتها أنا على الأقل ولم أسافر؟ ماذا كنا سنرغب أن نفعل بالطبيب إياه الذي قال: "عملية يوم الأحد"؟ ولكن الحمد لله؛ جت سليمة .

تم بحمد الله وفضله

٢٠١٦/٦/٢١



التذكرة الثانية

"جورجيا"

رحلة ابن حمودة السرية إلى جورجيا الندية





كما غنّى "عبد الحليم حافظ" كلمات الشاعر "مرسي جميل عزيز" قائلًا:

"على طول الحياة نقابل ناس ونعرف ناس ونرتاح ويّا ناس عن ناس، وبيدور الزمن بينا، يغيّر لون ليالينا وبنتوه بين الزحام والناس ويمكن ننسى كل الناس ولا ننسى حبايبنا أعز الناس حبايبنا أعز الناس حبايبنا" .

إلى شقيقاتي العزيزات، وأخي ورفيق الدرب أحمد فوزى، حيث كادت هذه الرحلة أن تعكر صفو ما بيننا من ود ومحبة.

وإلى الصديق والأخ محمود فوزى؛ لن أنسى دعمك ونبلك وشهامتك، ومن المعروف ما يأسر مجددًا.

إلى عرابتي "شيرين عادل": مدين لكِ برحلة رائعة وصحبة ممتعة.

إلى صحبة هذه الرحلة الجميلة: علي العادل – أحمد زكي منصور- أحمد عبد العزيز: كنت محظوظًا أن كنت في صحبتكم.

وأخيرًا إلى أمي وصوتها الدافئ الذي يأتيني مسجلًا عبر تطبيق الـWhat's app: بصوتكِ هذا أدرك أنني مهم في هذا العالم، في عالمكِ أنتِ.

أهدي إليكم هذا الجزء.





١-الخطاوي نصيب

هناك مقولة لا أعرف أصلها تقول: "الشيطان يكمن في التفاصيل"، بالتأكيد ليست كلها مكمنًا للشيطان، ولكن ولكي لا أكون ثرثارًا سأختصر عليك صديقي القارئ تفاصيل ما قبل السفر قدر الإمكان، وثِق أنه دومًا ما توجد قصة تُروى قبل السفر، ولكن إليك ملخص الأمر:

بالطبع لدي الرغبة وشغف السفر في كل وقت وحين، وكانت هذه الرغبة في أوجّها قرابة يوليو ٢٠١٦ حيث رغبت في قضاء عيد الفطر لهذا العام بالخارج، كان آخر الأعياد التي مرت هو عيد الأضحى للسنة الماضية والتي كان لي نصيبًا بقضائها بموسكو. حاولت تكرار التجربة، ولأسباب أعفيتك من متابعتها وأعفيت نفسي من ذكرها، كنت أعلم أنني مقدم على السفر منفردًا، بدون صحبتي الحلوة الدائمة "الأخوين فوزي"، كما كانت الميزانية وقتها محدودة للغاية، وبالتالي قللت الميزانية المحدودة تلك من الاختيارات وانتهت بين ثلاثة بلدان من ثلاثة قارات مختلفة، قبرص من أوروبا، وسيرلانكا من آسيا، وتونس من إفريقيا.

سرعان ما خرجت قبرص من المفاضلة لارتفاع تكاليف زيارتها في ذلك الوقت حيث أنه الـ **high season** لديهم؛ أي موسم الذروة، كما أن إجراءات التأشيرة الخاصة بها مرهقة بعض الشيء، وربما تكون غير مضمونة خاصة وأنني سأسافر منفردًا، وعادةً يساور الدول الأوروبية القلق من ذلك المسافر المنفرد خاصة لغرض السياحة، حيث أنهم لا يؤمنون بوجود سائح بمفرده بسهولة. إذاً أصبحت المفاضلة الآن بين سيرلانكا وتونس، وعمليًا كنت أكثر ميلًا للسفر إلى سيرلانكا لعدة أسباب، حيث أن تأشيرتها سهلة للغاية، تحصل عليها عبر الإنترنت ولا توجد أي طلبات مرهقة ولا حتى غير مرهقة، فلا خطاب من جهة العمل ولا كشف حساب بنكي بآخر ثلاثة أو ستة أشهر يقر أنك غير مفلس "ومفلس هذه هي حالتي دائمًا".

كما أن سيرلانكا بها طبيعة خلابة والنفس تشتاق لمنظر الخضرة والجمال الرباني من وقت إلى آخر، وسببان آخران أيضًا كانا يضعان المقارنة في صالح سيرلانكا. الأول أن عُملتها بسيطة جدًا ولن أحتاج إلى مبلغ كبير لإنفاقه





أثناء إقامتي هناك، والثاني أن السفر أصلًا قائم على التجديد، ومن هذا التجديد أن سيرلانكا بها مدينة تُدعى "نوراليا" وهي جنة لله على أرضه كما يصفها كل من زارها، وهذه المدينة تُسمى المدينة الباردة، حيث أنها في شهري يوليو وأغسطس، وفي الوقت الذي تكون فيه درجات الحرارة مرتفعة بسبب فصل الصيف، تكون هناك بنوراليا هذه منخفضة جدًا للدرجة التي تستدعِي ارتداء ملابس شتوية، وكانت معلومة جديدة بالنسبة لي حينها، وكنت متحمسا لخوض هذه التجربة "ألبس شتوي في شهر يوليو".

كل هذه الأسباب كانت تدفع في اتجاه سيرلانكا. ما الذي كان يدفع في الاتجاه المعاكس لاستبعادها واختيار تونس؟ أن هذه هي المرة الأولى التي أنوي فيها السفر منفردًا، وسيرلانكا بلد غير عربي وقد تقف اللغة حائلًا وحاجزاً عن التواصل، كما أن عاصمتها كولومبو ليست ذات طابع حضاري، في حين أن تونس بلدٌ عربيٌ وأن اللغة لن تقف حائلًا بيننا، فحتى إن لم أفهمهم أنا بسبب صعوبة لكنتهم وعدم اعتيادي عليها، بالطبع هم سيفهمونني وسنصل إلى منطقة تفاهم مشتركة، إضافة إلى أنه عيد الفطر وتجربة أجواء عيد للمسلمين في بلد مسلم تجربة تستحق.

وأثناء حيرتي هذه بين تونس وسيرلانكا تم حسم الأمر لصالح تونس، حيث كانت هناك تذكرة ذات سعر جيد جدًا لسيرلانكا على متن الخطوط السعودية، وأثناء فترة المفاضلة والاختيار لم تعد هذه التذكرة متاحة وارتفع سعرها بشكل كبير يهدد الميزانية الضعيفة، وبالتالي هي تونس إذن. وبالفعل حجزت تذكرة طيران لتونس العاصمة ثاني أيام عيد الأضحى، وتقدمت بأوراقي إلى سفارة تونس بالقاهرة، جميع المستندات المطلوبة حتى أمر الحساب البنكي هذا تم ضبطه حينها. مرت الأيام ثم كان الخبر الذي لم أتوقعه مطلقًا، نعم لم أحصل على تأشيرة تونس، وما زلت أجهل سبب الرفض وظني أنه لأنني تقدمت منفردًا للسياحة والبلد حينها كان ما يزال يعاني من شيء من الاضطراب وعدم الاستقرار وبعض الحوادث الإرهابية من آن لآخر، ولا يوجد لدي تفسير آخر، حيث أننِي تقدمت بأوراق سليمة مكتملة، كما جواز سفري ليس "أبيض" أي ليس خاليًا من التأشيرات، بل يحمل عددًا لا بأس به منها وكذلك أختام الدخول.





صراحة كان الرفض من تونس هذا آخر شيء أتوقعه، عادة ما تكون فترة انتظار التأشيرة هي فترة ترقب وقلق، ولكني مع تونس لم أكن قلقًا فنحن "عرب في بعض" وأوراقي سليمة، وبالتالي لم القلق؟ وتناسيت تلك المقولة التي يتداولها المسافرون "السفارات ما لهاش كبير ولا قاعدة" حيث سبق وأن أتى الرفض لأناس من سفارات يستحيل رفضهم بسبب وضعهم الاجتماعي ووظائفهم أو غير ذلك من الأسباب، في حين أتت موافقات من سفارات لأناس "ورقهم ضعيف" أي ربما لم يسبق لهم السفر أو لا يمتلكون حساباً بنكياً جيدًا.

أتى هذا الرفض قبل أيام قلائل من انقضاء شهر رمضان الكريم، وبالتالي ضُربت خطتي في قضاء العيد بالخارج في مقتل، ولكن لا شيء يحدث عبثًا، وقتها لا أعلم ما الذي جعلني أمسك هاتفي المحمول مستخدماً تطبيق الـWhatsapp متحدثًا إلى كاتبة أدب الرحلات وصديقتي حالياَ شيرين عادل، كاتباَ لها "تصوري مش اترفضت من تونس النهارده". لم أكن أنا وشيرين وقتها أصدقاء، اللهم إلا بتلك التي يسميها تطبيق الـ **Facebook** صداقة، وهي في الواقع لا تعدو كونها علاقة تعارف عابرة، نشأت بين كاتب ومُعجب بالكاتبة، حيث كنت قد قرأت لها كتابيها (الأولة باريس) و(الفيروزية)، وكنت من أشد المعجبين بهذه الكتب. فـفي الأول سافرت بعين شيرين إلى باريس وأمستردام، وفي الثاني سافرت عبر الورق إلى سوريا والأردن ولبنان، والصدفة قادتنا إلى تعارف، والتعارف قادني إلى سؤالها عن بعض الأشياء أثناء تجربة كتابي الأول (سفرنامة)، ولم تبخل عليّ بأية معلومات، بل كانت مصدراً للعون والدعم. ولكن حتى ذلك الوقت لم تكن علاقتنا وطيدة وترقى إلى وصف صداقة، ولكن ها هي تدابير الأمور تختلف، فما هي إلا دقائق ووجدتها تكتب "معلش، خيرها في غيرها، طب ما تيجى جورجيا، أنا مسافرة كمان كام يوم!" وكأن هذه المحادثة التي "ولا ع البال ولا ع الخاطر" كانت شيفرة التحول في الأحداث.

كثيرون لم يسمعوا بجورجيا هذه من قبل، والبعض يظن أنها ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هناك دولة تحمل الاسم ذاته ظهرت بانفصال وتفكك الاتحاد السوفيتي، وصراحة لم أكن قد سمعت بها لولا أن أحد معارفي كان قد سافر إليها باحثًا عن فرصة للهجرة ونقل أعماله إليها قبل عام ونصف.



سرعان ما تحدثنا عن التفاصيل، فعلمت منها أن تأشيرتها سهلة للغاية وغير معقدة، وتقريباَ هي مثل تأشيرة سيرلانكا، يتم التقديم للحصول عليها عبر موقع إلكتروني وبتكلفة قدرها عشرون دولارًا أمريكيَا يتم سدادها عن طريق كارت بنكي، مع صورةScanned من جواز السفر وصورة ضوئية شخصية. إذن ها هي عقبة التأشيرة وهي من أهم وأصعب العقبات يتم تذليلها، خاصة وأن الوقت أصبح ضيقًا ولم يتبق على العيد سوى أيام قلائل. في أثناء ما كانت شيرين تحدثني كنت قد ذهبت سريعًا لتصفح الموقع الأثير لدى محبي السفر وهو Sky Scanner حيث يُطلعنا على أرخص تذاكر الطيران المتاحة لوجهات تشمل العالم بأكمله، حينها عدت مجددًا للمربع رقم صفر، حيث اكتشفت أن تذكرة الطيران من مطار القاهرة تكلفتها ستة آلاف جنيهًا على متن الخطوط الجوية التركية، وهي أقل سعر متاح، ولا أخفيكم سرًا حيث أنني سبق وذكرت أن ميزانيتي حينها كانت متواضعة ومحدودة للغاية ولم تكن لتتجاوز سبعة آلاف جنيها أو سبعة آلاف وخمسمائة جنية على أحسن التقديرات، على أن يشمل هذا المبلغ تكلفة تذاكر الطيران والإقامة والـ Pocket money أي مصاريف الأكل والانتقالات والمزارات "شاكب راكب كما يقولون"، وأتت هذه التذكرة لتأخذ الفكرة من أساسها وتطير. أخبرت شيرين بما وجدت ولكنها حينها كانت كمارد الفانوس السحري- مارد جميل بالطبع- ومعها حل لكافة العقبات تقريبَا، فوجدتها تكتب "عيب عليك بُص عليها من مطار الغردقة هتلاقيها أرخص، أنا مسافرة من هناك" وبالفعل عدلت البحث على الموقع فوجدت أن سعر التذكرة قد أصبح فقط ألفان وسبعمائة جنيهًا لا غير، وهذا تحول خطير في الأحداث، صحيح لم يسبق لي السفر من مطار غير مطار القاهرة ولكن هذا الفرق يستحق التجربة، تحدثت مع شيرين بعد ذلك عن أمر الإقامة فعلمت أنها قد حجزت في "هوستل" أي نُزُل أو بيت شباب لطيف ومنخفض التكاليف، إذن يبدو أن الأمور مُيسرة.

انتهت المحادثة بتجميع كل هذه المعلومات فقط لا غير، وفي صباح اليوم التالي كنت جالسًا أمام شاشة الكمبيوتر محتارًا بين موعدين لا ثالث لهما للحجز، الأول كان بتاريخ الخامس من يوليو، والثاني بتاريخ التاسع من نفس الشهر، إذا ما اخترت التاريخ الأول فهذا يعني أنى سأسافر وشهر رمضان لم ينقضي بعد، وبالتأكيد أنا لا أرغب في الإفطار أثناء الشهر الكريم، صحيح هناك رخصة لإفطار من هو على سفر ولكني لست مسافر للضرورة ولكن للترفيه والفُسحة إن



جاز القول، أما التاريخ الثاني فكان يعني أن أكون هناك ثالث أو رابع أيام العيد تقريباً.

تحدثت إليّ شيرين وقتها وقالت أنني لو حجزت تذكرة يوم ٥ سيكون ما يزال أمامي أربعة أيام بالإمكان أن نمضيهما سوياً في مشاهدة البلد والتجوال بها، وإن حجزت يوم ٩ فربما نلتقي في المطار وأخبرك بأهم الأماكن التي يجب أن تزورها وأنصرف عائدة إلى القاهرة وأبدأ أنا رحلتي منفرداً.

بالطبع حسمت الأمر وحجزت تذكرة الخامس من يوليو، فأن تكون في صحبة كاتبك المفضل الذي تقرأ له في مجال ما أمرٌ لا يُتيحه القدر بسهولة، وفرصة ربما لا تتكرر.

وبالفعل أتممت الحجز وتقدمت للحصول على التأشيرة عبر الموقع الإلكتروني لوزارة خارجية جورجيا، وما هي إلا ثلاثة أيام وتلقيت بريداً إلكترونيا مرفقًا به تأشيرة دخولي إلى جورجيا، وكان كل ما عليّ أن أطبعها وأسافر بها[٤٥].

وأنا مجتمع وأسرتي لتناول وجبة السحور أخبرتهم - أو للدقة فاجئتهم - أني مسافر بعد ثلاثة أيام إلى جورجيا "بيصعبوا عليّا الناس دي والله، كل مرة أفاجئهم كده"، فدوماً ما أخبرهم في الوقت بدل الضائع وهو بالتأكيد أمر ليس ظريفًا، وأنا أعترف وأقر بهذا وأعتذر أيضًا. ربما السبب في هذا أننا لسنا كالمجتمع الأوروبي ولا نمنح أبناءنا مساحة كافية من الحرية في اختياراتهم وحياتهم الشخصية، ولا نتفهم أن خياراتهم هذه هي مسئوليتهم هم لا نحن، لذا فتحاشيا لدوامات القيل والقال أفضّل إخبارهم كل مرة بعد أن تكون الرؤية قد اتضحت ولو نسبياً.

---

[٤٥] لم يعد نظام التأشيرة الإليكترونية مقبولاً لزيارة جورجيا وعدنا للنظام النمطي في منح التأشيرات على جواز السفر عبر تقديم أوراق كاملة كخطاب جهة العمل وكشف حساب بنكي كما يقتضى السفر إليها حاليا الحصول على تصريح أمني من مجمع التحرير.



المهم أنه عقب انتهاء "زعابيب" هذا الخبر المفاجئ، أكملت باقي الترتيبات، حيث حجزت عبر الإنترنت غرفة مفردة لليلة واحدة بالغردقة حيث أن موعد الطائرة كان في الثانية والربع فجراً والباص الوحيد الذى يسافر من السويس إلى الغردقة قد يكون موعده بين السادسة والتاسعة صباحًا - ولا تندهش فأنت مصري مقيم بمصر- ويا لها من دقة متناهية في المواعيد، فعليك عزيزي المسافر أن تتواجد في المحطة من السادسة صباحًا وربما من قبلها أيضًا لأن "الباص" من الممكن أن يأتي في أي وقت "حسب ظروفه".

تولى عنّي عبء الحجز هذا والدي "ربنا يخليك ليّا يا حاج" وهو ما كان موعده في التاسعة صباحًا. تحركت صائمًا بالفعل من السويس إلى الغردقة، وما هي إلا ست ساعات وكنت قد وصلت إلى الغردقة ومن ثم الفندق الذي سأمضي به الساعات القادمة. حاولت الاسترخاء إلى أن اقترب موعد آذان المغرب، فغادرت الفندق بحثًا عن مطعم لتناول الإفطار فيه منفردًا، وهو ما وجدته بحي الدهار، ثم تجولت بالغردقة بعض الوقت وكانت أول مرة لي بهذه المدينة الجميلة والنظيفة، وبالطبع هذا لكونها مدينة سياحية وإن كنت لم أر سائحًا واحدًا وقتها للأسف. ويسهل القول والوصف الشعبي الذي أراه مناسبًا أن الغردقة مدينة "ريحها خفيف" وأ تمنى زيارتها مستقبلًا لمدة أطول بإذن الله.

عدت إلى الفندق بعد أداء صلاة العشاء، وحاولت الاسترخاء إلى أن أصبحت الساعة الحادية عشر والنصف، فغادرت الفندق متوجهًا إلى مطار الغردقة الدولي، وهو مطار جميل وأنيق ويمثل واجهة مشرفة إذا ما استقبلنا فيه ضيوف البلد "السياح أقصد".

وفي المطار شهدت الرحلة تحولًا مُهمّا في سيرها، حيث تعرفت على ثلاثة شباب كان كل واحد منهم مثلي مسافر منفردًا، قرر السفر فسافر. ساهم في هذا التعارف إحدى مجموعات "Groups" الفيس بوك المهتمة بالسفر وتجارب المسافرين وهو"Traveller Experience" ومن هنا علمنا أننا متواجدون نحن الأربعة بالمطار، وأننا أنهينا إجراءات الجوازات وفي انتظار إقلاع الطائرة، فكان التعارف على صُحبة هذه الرحلة "علي ومنصور وزيزو ".



كان كل واحد منا يظن أنه أتى بما لم يستطعه الأوائل، وأنه وحده من قرر السفر منفردًا، إلى أن عرفنا جميعًا أن شغف السفر كان أقوى من عقبة التخوف منه دون صُحبة.

تبادلنا أطراف الحديث، وعرفنا أن أربعتنا ينوي الصيام في الغد باعتباره آخر أيام شهر رمضان الكريم، وسرعان ما توجهنا لنستقل الطائرة التي ستُحلّق بنا إلى تبليسي عاصمة جورجيا.

وما إن صعدنا إلى الطائرة حتى أخبرنا مضيفها اللطيف أننا ننوي الصيام للغد حتى يأتي لنا بماء، فبادر أن سأل الركاب أنه إذا ما كان ينوي أحد المسافرين الصوم للغد فإنه يستأذنهم في ترك أماكنهم والذهاب لمؤخرة الطائرة حيث سيقدم موعد وجبة الرحلة لهؤلاء المسافرين قبل حلول ميقات الفجر، وهو ما فعله الرجل بالفعل لنا بمجرد إقلاع الطائرة بدقائق، وها نحن "نتسحّر في الجو".

جدير بالذكر هنا البِعد النفسي، حيث كانت هذه هي مرتي الأولى التي أسافر فيها دون صحبتي الجميلة الأخوين فوزي، وطوال الأيام الماضية وأثناء إتمام الإجراءات سالفة الذكر كنت أشعر أن فرحتي بهذه الرحلة منتقصة، وأن حماسي لها ليس بالقدر الكافي خاصة لافتقادي لأحمد، لأنه ليس فقط شريكي في السفر والوقت الحلو ولكنه شريك دائم في تحضيرات ما قبل السفر من حجوزات وخلافه. وربما هذا ما سبّب سرية الرحلة نسبياً، حيث أن أحدًا من أصدقائي لم يسأل عن سبب غيابي، وأنا أيضًا لم أعلن.

وها هي الخطاوي نصيب بالفعل، يبدأ التفكير بقبرص وسيرلانكا وتونس، وأسعى إلى تونس بالفعل، ولكني في تمام السابعة صباحًا من الخامس من يوليو ٢٠١٦ لا في هذه ولا تلك ولكن في جورجيا.

تعتقد أني قد خدعتك، حيث قلت لك سأختصر ولم أفعل؟ إن اعتقدت هذا فدعني أهديك أغنية أم كلثوم "يا ظالمني" لأنه بالفعل قد اختصرت لك في سرد تفاصيل ما قبل السفر اختصارًا لو تعلم عظيمٌ.





٢- الخاتشبوري.. والقوة الروحية

بوصولنا إلى مطار تبليسي الجميل والصغير نسبياَ والهادئ بالطبع، وجدنا أنفسنا بسرعة أمام ضابطات الجوازات الجميلات اللاتي تعلو أكتافهن النجوم والرِتب، وتعلو رؤوسهن صور للسيد المسيح. سرعان ما أنهت إحدى الضابطات جوازاتنا نحن الأربعة دفعة واحدة حيث أخذت الجوازات والتأشيرات المنفردة المطبوعة وتحققت منها ثم ختمت بدخول جورجيا، هكذا ولا أيسر.

غادرنا منطقة الجوازات وقمنا بتبديل العُملة من الدولار الأمريكي إلى اللارِي الجورجي، وكان اللاري وقتها يساوي أربعة جنيهات مصرية وأربعون قرشًا تقريبا، وكان الشباب الثلاثة قد اتفقوا على أن يقيموا سوياً بنفس الهوستل الذي حجزه علي، وأن يلغي منصور وزيزو حجزيهما، فلا داعي الآن لأن يقيم كل منهم منفردًا وقد أصبحوا جماعة. أما أنا فاعتذرت عن هذا حيث أنني بالفعل كنت قد حجزت بنفس الهوستل الذي تنزل به شيرين بعد أن أكدت لي أنه جميل ونظيف وقريب من منطقة وسط البلد، فضلًا عن كون أسعاره معقولة، لذا آثرت ألا أعدّل حجزي على الأقل خلال المدة التي ستقيمها شيرين هنا إلى أن تسافر، وبعدها بالإمكان أن أنقل إقامتي لتصبح مع الشباب.

تفرقنا بعدما تبادلنا وسائل الاتصال عبر تطبيقات الإنترنت إلى أن نشترى خطوطًا هاتفية جورجية لاحقًا لتسهل لنا التواصل، وكان من المدهش أني وجدت لافتة باللغة العربية بالمطار وهي بمثابة إعلان لضيوف البلد من أهل الخليج يشجعهم على تملك وحدات سكنية هنا بأسعار جيدة بالنسبة لهم بالتأكيد.

خرجت منفردًا إلى الساحة الخارجية للمطار حيث الجو بارد بعض الشيء على أن يكون طقس يوليو الشهير، واتفقت مع سائق تاكسي لينقلني إلى حيث روستافلي [٤٦]، وهو الشارع الكبير الذي يتفرع منه شارع صغير به الهوستل الذي أرغب في أن أذهب إليه.

---

[٤٦] شارع روستافيلى: من أجمل و أشهر شوارع العاصمة الجورجية (تبليسي) وأكثرها حركة و نشاطًا على مدار السنة و خصوصًا في الموسم السياحي ، و قد أطلق عليه هذا الاسم تيمنًا بالشاعر الجورجي الكبير شوتا روستافلي الذى تحمل أهم جوائز جورجيا الأدبية اسمه.





لم تكن صدمة لي على الإطلاق عندما علمت أن الحال في جورجيا كما كان في روسيا، وأن السائقين لا يعلمون حتى الأرقام باللغة الإنجليزية، وأن الاتفاق يتم كما كان بموسكو باستخدام الآلة الحاسبة للهاتف المحمول، وبعد كثير فصال لا بالفم ولكن باليد "أي بتغيير الرقم الذي يكتبه السائق على شاشة الهاتف". اتفقت مع أحدهم لينقلني مقابل أربعين لاري، هو بالتأكيد مبلغ غير قليل ولكن هكذا جرت العادة عند استقلال تاكسي من مطار أي مدينة إلى وسطها.

انطلقنا في شوارع تبليسي، وهي شوارع ستكتشف معها عدة أمور، منها أنه وبالرغم من أن الساعة قد تجاوزت الثامنة والربع تقريباَ إلا أنها تشهد حركة مرور يسيرة وقلة في عدد السيارات والمارة. وحيث أن اليوم ليس يوم العطلة الأسبوعية، ولم يكن إجازة بسبب عيد قومي مثلًا، ستدرك أن هذا الشعب "ناموسيته كحلي" كما نقول نحن المصريون أو "شمسته عالية" كما يقول أشقاؤنا السوريون دلالة على النوم حتى وقت متأخر. كما ستكتشف أن البلد ليست غنية أو "على قد حالها"، حيث أن جودة الأسفلت ليست كبيرة وبه العديد من النقر والكسور بين آن وآخر. وستكتشف أنها بلد جبلية بامتياز، وأنها تكاد تكون مبنية على جبل بالفعل، حيث كلها مطالع، وتجد أن السيارة تعاني عند اتخاذ الغيار المناسب.

وقبل أن تتسرع وتظن أن اختيار جورجيا ليس اختيارًا جيدًا، لك أن تعرف أن البلد نظيفة للغاية، وأن الفقر أو قلة الإمكانيات لا يعني أكوام القمامة على جانبي الطرق ولا الرائحة السيئة للشوارع، ولا المنظر القبيح إطلاقًا.

وكان أيضًا من اللافت للنظر أن وجدت امرأة بدينة ترتدي زي عمال النظافة وتقوم بكنس الشارع. في بادئ الأمر اندهشت واعتقدت أن هذه السيدة ربما تكون حالة فردية إلا أنها لم تكن كذلك، وعمومًا وهي تفصيلة "لسه بدري عليها" ستكتشف أن السيدات هناك يعملن بمهن مرهقة وشاقة.

بعد نصف ساعة تقريباَ كنا قد أصبحنا في **Liberty Square** أو ميدان الحرية لديهم، والذي تتوسطه ساحة يتوسطها عامود مرتفع يعلوه تمثالًا ذهبي





لفارس يركب تنينًا ويحمل رُمحًا وصليبًا، وهو تمثال المحارب مارجرجس [٤٧] ومنه إلى شارع روستافلي. وسرعان ما توقف السائق في شارع صغير مشيراً إلى أننا وصلنا، فنظرت على يميني ووجدت لافتة تقول Diwan hostel، ربما يحمل اسم النزل دلالة عربية، ولكنه لا علاقة له بالعربية مطلقًا، وربما الكلمة مجرد تشابه أو مصادفة في صوتياتها لا أكثر.

وعلى غير المعتاد، حيث تأتي الإقامة دائمًا أثناء السفر في الفنادق، وهذه هي أول مرة لي أجرب فيها بيوت الشباب تلك، دخلت إلى حيث تشير اللافتة، فوجدت درجًا حتى الطابق الثاني، ولا يوجد مصعد، فحملت حقيبتي الثقيلة وصعدت فوجدت بابًا وجرسًا، ضغطت عليه منتظرًا استجابة ما ولكن لم تحدث، جربت أن أفتح الباب الذي كان له مقبض يمكّنني من هذا فانفتح، ووجدت أمامي درجًا مرة أخرى ولكنه هذه المرة من الخشب، فصعدته، ووجدت أمامي بابًا آخر، ولكن الحمد لله عندما فتحته لم أجد درجًا آخر ولكن بهو الهوستل.

بالطبع الجميع نائم حتى تلك الفتاة القائمة على إدارة المكان كانت نائمة، فتنحنحت "أي أصدرت صوتًا ما" مع "شخللة مفاتيح" علّها تستيقظ، وبالفعل استيقظت ولسان حالها يقول "إيه اللي جابك بدري كده؟"، خاصة وأن التسكين عادة سواء كان بالفنادق أو غيرها يتم بعد الثانية عشر ظهراً، ولكنها كانت متعاونة وأنهت الحجز سريعًا، ولمّا اطّلعت على جواز السفر المصري أخبرتني أنه توجد بالفعل نزيلة مصرية فسألتها عليها، وهي شيرين بالطبع، فإذ بها مستيقظة وقادمة لترحب بي ولكنها خير اللهم اجعله خير "بتزك"، أي تمشي مشياً بطيئًا متفادية الضغط على جزء ما من القدم - وستعلم كما علمت طبيعة شيرين أثناء السفر خلال صحبتك لنا خلال الأيام القادمة، أقصد الصفحات

[٤٧] مارجرجس: ولد سنة ٢٨٠م في مدينة اللد في ولاية فلسطين السورية لأبوين مسيحيين من النبلاء. توفي والده فاعتنت به والدته وأنشأته في جو عائلي مسيحي. ولمّا بلغ السابعة عشرة دخل في سلك الجنديّة وترقى إلى رتبة قائد ألف في حرس الإمبراطور الروماني دقلديانوس، كان الرومان يضطهدون المسيحيين في تلك الفترة، لكن مار جرجس لم يخف عقيدته المسيحية رغم انضمامه للجيش الروماني، مما أغضب الإمبراطور دقلديانوس، فأخضع القديس لجميع أنواع التعذيب لردّه عن دينه، لكن دون جدوى.



القادمة" - وعلمت منها أن أصبع قدمها قد تورم من كثرة المشي وأنها تحاول علاجه حتى لا يؤثر على سير ما تبقى لها من أيام الرحلة.

سألتني عن خطتي لليوم، هل سأنام لأحصل على قسطًا من الراحة أم ماذا، خاصة أنها لا تنوي قضاء اليوم بالعاصمة تبليسي، بل لديها خطة لزيارة عدة أماكن ومدن مختلفة. فرغبت أولًا أن أتأكد من معلومة، وهي هل اليوم هو المتمم لشهر رمضان أم لا؟ حيث أبلغنا ذلك المضيف الذى تولى عملية السحور أنه علم بعد ذلك أن اليوم هو أول أيام عيد الفطر، وبالتالي لا صيام في تبليسي، حينها أفطر الشباب عن صومهم ولكن آثرت أنا التأكد عند الوصول إلى تبليسي.

بالبحث عبر الإنترنت لم نصل إلى شيء، لذا تواصلت شيرين مع الفتاة التي استقبلتني وتُدعى ناتاشا، وقامت الأخيرة بإجراء اتصال هاتفي بمسجد المدينة وسؤالهم بالجورجية بالطبع، فأجابوها أن اليوم هو المتمم لشهر رمضان وبالتالي ما يزال أمر الصيام قائمًا.

إذًا ماذا سأفعل؟ هل أخلد للنوم والراحة وأترك شيرين تذهب إلى حيث تريد أم ماذا؟ كسبًا لبعض الوقت في التفكير، أخذتني شيرين في جولة سريعة بالهوستل، حيث عرفت الغرفة التي سأنام بها، وهي تسمى **Dorm**، ربما يصلح وصف عنابر وربما لا، حيث كانت غرفة بها ستة أسرة مزدوجة "أي سرير يعلوه سرير "**Bunk Bed**"، ولي فقط سرير واحد بالطبع وسأتشارك الغرفة مع أغراب. بغرفتي توجد شرفة صغيرة مطلة على الشارع الذي به مدخل الهوستل، حيث إن وقفت فيها ونظرت إلى اليمين أجد السفارة الإيطالية، وإن نظرت إلى اليسار أجد مبنى الـ **Security State** أو ما يمكن وصفه الأمن الوطني، وعلى ناصية الشارع يقع مبنى البرلمان ومبنى يتبع وزارة الخارجية ربما.

قد تعتقد أن الهوستل يقع في منطقة "لبش"، وأنه أمنيًا في منطقة سخيفة ستجعلني في الذهاب والعودة عُرضة لأسئلة أفراد الأمن عن هويتي "وليه ماشي في الشارع هنا، وإيه اللي جابك هنا" ومثل هذه الأمور التي اعتدناها. وصراحة هذا ما اعتقدته وتوقعته، إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث مطلقًا طوال أيام إقامتي، وسأتطرق لهذا لاحقًا.

ثم تجولت في باقي المكان، حيث توجد غرف أخرى للنزلاء، ثم مرحاض كبير ونظيف للغاية، والأجمل أن به "شطّاف" وبالتالي لا معاناة كما تلك التي



تكون في الأماكن التي لا تعترف بأهميته. صحيح ليست كل حمامات النُزُل بها تلك الشطّافة، حيث يوجد ثلاث حمامات كبيرة ونظيفة للغاية، ولكن واحدًا فقط هو ما توجد به، وبالتالي سيصبح هذا حمامي المفضل. ثم ذهبت إلى المطبخ الذي هو فسيح وأنيق ومجهز، ويحتوي على منضدة لتناول الطعام، وبه شرفة كبيرة تطل على منظر ساحر وبانورامي للمدينة كلها، حيث الليبرتي سكوير وكاتدرائية ساميبا أو الثالوث وهي الأكبر بجورجيا كلها ومنها "أي الشرفة" ترى الجبل والتلفريك والتمثال الكبيرMother of Georgia ، ويقولون عنه تمثال سيدة جورجيا أو تمثال أم الجورجيين على غرار أم العواجز لدينا[٤٨]

أنهيت الجولة في المكان الذى سيصبح مأوى لي في القادم من الأيام، ثم استأذنت شيرين في أن أذهب وأحصل على دش ساخن ثم أعود وأخبرها قراري، وعدت إليها بعد ذلك قائلًا "يلا بينا، هنتوكل على الله" سأتحرك معك وسأظل صائمًا، وإذا ما شعرت بالتعب حينها سأفطر، فسألتني أتعلم وقت صلاة المغرب هنا؟

فأجبتها أن نعم إنه في التاسعة إلا ربع مساءَ، وهذه بجملة الأعاجيب في الرحلة ذاتها التي لم تكن كما أسلفت "ولا ع البال ولا ع الخاطر".

كانت خطة شيرين أن نخرج من العاصمة (تبليسي) إلى مدينة أخرى تدعى (جوري) والذهاب إلى متحف ستالين بها، ثم مغادرتها إلى حيث كهوف أوبلستيخي، والصعود إلى أعلى الكهوف ثم النزول والمرور في طريق العودة إلى ميتسخيتا، وهي مدينة تقع في مقاطعة كارتلي، وهي إحدى أقدم المدن في جورجيا، تقع على بعد حوالي ٢٠ كم شمالي العاصمة تبليسي عند ملتقى نهري آراغفي وكورا. وبحسب موقع ويكيبيديا ونظراً لأهمية المدينة التاريخية ووجود عدد كبير من المعالم الثقافية، أصبحت "الآثار التاريخية في متسخيتا "موقع تراث عالمي عام ١٩٩٤، وتعتبر المدينة مهد المسيحية في جورجيا، وعليه أعلنتها الكنيسة الجورجية الرسولية الأرثوذكسية مدينة مقدسة عام ٢٠١٤ .

[٤٨] أم العواجز: هو لقب السيدة زينب حفيدة النبي (صلى الله علي وسلم) وابنة السيدة فاطمة الزهراء والإمام علي بن أبى طالب.





بصوت "محـمـد هنيدي" الذي سنستخدم فيلمه "فول الصين العظيم " في هذا الفصل أكثر من مرة "يا صلاة النبي" كل هذا هو خطة النهار لديكِ!

إذن ربنا المستعان، تحركنا سوياً إلى حيث محطة مترو ليبرتي سكوير، وهي نوعًا ما قريبة منا، أثناء السير إليها نمر بمبنى البرلمان وحديقة عامة مفتوحة للجميع وأمامها رصيف متسع المساحة وبه مقاعد خشبية عديدة، وللدهشة شبكة إنترنت في الشارع مجانًا تُسمى "Tblisi loves You" أي تبليسي تُحبك. سجلنا حينها أول مقطع فيديو أعبر به عن سعادتي بهذه الرحلة المفاجِئَة وغير المتوقعة والصحبة الفريدة من نوعها، ثم دخلنا إلى المترو الذي يعمل كما غالبية الدول الأوروبية أو الحديثة حتى وإن كانت غير أوروبيةِ، وهو بنظام كارت ممغنط تشتريه بخمسة لاري وبه رصيد اثنان لاري تقريباَ، وتكلفة استخدام المترو ثابتة كما لدينا في مصر ولا تختلف باختلاف المسافة كما في دبي مثلًا. والتكلفة للمرة الواحدة هي نصف لاري؛ أي خمسون تتري "وهي الوحدة الأصغر من اللاري".

كنت أظن أن السلم المتحرك الذي يأخذك إلى أسفل المحطة حيث القطارات نفسها والموجود بموسكو هو أطول سلم إلكتروني على الإطلاق، إلى أن رأيت سلم مترو تبليسي، ما كل هذا العمق تحت الأرض؟! وما هذا السلم العجيب الذي تمضي عليه دقائق على غير المتوقع في مثل هذه السلالم؟!

المهم هبطنا إلى تحت الأرض والمكان بسيط للغاية، حيث شريطان للقطارات فقط لا غير ولافتة كبيرة، والحمد لله كتبوا عليها أسماء المحطات باللغة الإنجليزية بجوار الجورجية بالطبع. شرحت لي شيرين خط المترو وأي خط سنستقل، حيث أننا ذاهبون إلى محطة تُدعى (ديدوبيه). وما هي إلا دقائق قليلة حتى جاء المترو بالفعل الذي لا يختلف كثيراً عن مترو موسكو ومترو خط المرج حلوان لدينا، من حيث قِدَم القطارات وعربات الركاب، وبالطبع غياب بوابات الأمان على شريط القطارات. ركبنا المترو وما هي إلا محطتان وفي الثالثة كانت محطتنا المقصودة.

إن كنت من سكان القاهرة أو من زائريها حتى وسبق وذهبت إلى محطة العتبة، ستتخيل عندما أصف لك أن (ديدوبيه) هذه ليست سوى العتبة لدينا، وهي تمثل استهلالية غير لطيفة، خاصة وأنه أول يوم وأول ساعات لي في





البلد، فما لي أشعر أني عدت أدراجي إلى مصر فجأة هكذا، حيث نفق بحوائط إسمنتية اللون كئيبة المنظر، ممتلئ عن آخره بالباعة دون محلات، وفي أحيانٍ أخرى بمحلات، وروائح مثل السمن والثوم والخضروات تملأ المكان، حتى الوجوه تشبه إلى حد كبير الوجوه المصرية "الشقيانة"، بالطبع إذا ما أغفلنا الملامح القوقازية لديهم.

خرجنا من هذا النفق، إلى حيث الفضاء الذي ما هو إلا موقف كموقف رمسيس أو أحمد حلمي أو عبود، سيارات أجرة كثيرة تربط بين تبليسي إلى حيث مدن أخرى، ولكن أغلبها ليست كالسيارات البيجو لدينا في مصر، كما أنها ليست أيضاً كالميكروباصات التي نعرفها، هي تشبه إلى حد كبير الميكروباص ولكنها مختلفة في تركيبة المقاعد بها والمساحات المتاحة.

أخبرنا أحد السائقين أننا متجهين إلى (جوري) فقادنا إلى سيارة "بتحمّل" ركاب جوري، ولحسن الحظ كانت بيجو سبعة راكب، فركبنا في المقعد الأخير والذي يتسع لراكبين فقط، وسرعان ما تحركت بنا السيارة بعدما اكتملت. والطريق من تبليسي إلى جوري يستغرق ساعتين من الزمن، وهما ما مرا سريعًا حيث أمضيناهما في الحديث سوياً أولًا عن كتاب شيرين الثالث والذي كان على وشك طرحه بالمكتبات بعد ساعات حينها وهو هوستل - وبالتأكيد الكتب الثلاثة تستحق القراءة-، وكذلك عن الأيام التي قضتها هي في المدينة قبلي، حيث أنها هنا منذ خمسة أيام ذهبت فيهم إلى مدن أخرى، مثل المدينة الساحلية باتومي ومدينة كوتايسي، وهذه المدن لا يصلح معها الـ "صدّ رد" هذا الذي نفعله اليوم، حيث أنها كانت مدنًا بعيدة تستوجب المبيت ليلة أو ليلتين على الأقل.

عامة لم أكن أنوي الذهاب إلى أي منهما، ربما كان لدي فضول إلى استكشاف (باتومي)، إلا أني أحجمت بعدما سمعت رأي شيرين فيها، كما أنه ظهرت صُحبة ستكون متاحة إذا ما غادرت شيرين تبليسي بعد أيام، وهي صحبة الشباب الثلاثة.

السائقون هناك لديهم فراسة حقيقية حتى بغياب اللغة، فقد لاحظ السائق أننا نبدو سائحين ولسنا من أهل البلد، وهو يتوقع أن أغلب السائحين هنا يأتون لزيارة متحف ستالين، فما إن مررنا بالمتحف حتى توقف موضحًا أن هذا متحف ستالين "لو كنتم عاوزين تنزلوا يعني"، فشكرناه لفراسته حيث





أغفلنا نحن أن نحاول "ونجرب حظنا" أن نخبره أننا نريد النزول عند متحف ستالين [٤٩].

نزلنا أمام المتحف والمكان لا يوجد به مارة على الاطلاق ولا شيء، اللهم إلا عددًا من الكلاب التي تتجول في المكان، وبعضها الآخر تشعر وكأنه منسجم ومستجم ويأخذ Tan في شمس يوليو الجيدة لديهم وليست حارقة.

دخلنا إلى المتحف الذي تحمل لافتاته جملًا جورجية وأخرى روسية "ونعم التنوع"، وذهبنا إلى شباك التذاكر وحجزنا تذكرتين و"سعر التذكرة ١٥ لاري"، ودخلنا إلى المتحف نفسه، حيث أعمدة رخامية ودرج رخامي فاخر أيضًا، وهو ما دفع شيرين إلى التعليق "لأ ويقولك شيوعية، ما الشيوعية بتصرف أهو". استمرت جولتنا على غير هدى ولا يُطالعنا شيء سوى صور ستالين بشاربه الكث وحذائه العسكري الطويل اللامع، إلى أن علمنا أنه هناك جولة بصحبة مرشدة سياحية بالمتحف، فاجتمع عليها عدد من زائري المكان وهم ليسوا كُثر بالطبع.

وبإنجليزية بلكنة روسية صرفة شرعت امرأة في أواسط الأربعينات من عمرها تقودنا من غرفة إلى غرفة في المتحف متحدثة عن ستالين وعن مراحل حياته من الصبا إلى الشباب إلى الكهولة وحتى وفاته، تقف أمام كل صورة من صوره الكثيرة في المكان وتخبرنا بقصة عنها. صراحة لم أكن مهتمًا بالمتحف إطلاقًا حيث أنني بالتأكيد لست من محبي هذا الموتور ستالين، أضف إلى هذا أن العناء الذي أبذله لمحاولة فهم الأخت المرشدة وهي تتكلم بسرعة شديدة للغاية وبلكنة لم أعتد عليها، وبالتالي آثرت التجول على مقربة منهم دون الاهتمام بما أراه.

---

[٤٩] ستالين: جوزيف فيساريونوفيتش ستالين، هو القائد الثاني للاتحاد السوفييتي ورئيس الوزراء (١٩٤١-١٩٥٣)، عُرف بقسوته وقوته وأنه قام بنقل الاتحاد السوفييتي من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي مما مكّن الاتحاد السوفييتي من الانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية والصعود إلى مرتبة القوى العظمى، وهو من مواليد جوري وحياته فيها الكثير مما لا يتسع المقام لذكره في مجرد هامش لذا ننصح بالقراءة عنه.



وعمليًا وبعيدًا عن موقفي الشخصي من ستالين، المكان فقير للغاية، لا شيء سوى مجموعة من الصور، وبعض أثاث منزله، مثل مكتبه الشخصي وبعض الخطابات والمكاتبات بخط يده، وبدلة عسكرية وملابس منزلية، ثم وصل الأمر إلى - ودون سخرية- طاقم "الأطباق الصيني" الخاص بالـ "ست أم ستالين". حقيقة هذا لا مزاح، حيث تجد دولابًا خشبيًا أشبه بالنيش لدينا ولكن أصغر حجمًا وبه طاقم الأطباق هذا، وبالمناسبة كانت "أبيض في أزرق".

غادرنا مع المرشدة هذا الطابق لننزل إلى الطابق السفلي حيث توجد به غرفة احتجاز، وربما أدوات تعذيب، ثم منها خروجًا من مبنى المتحف نفسه، حيث اصطحبتنا السيدة إلى البيت الذي وُلد فيه خالد الذكر هذا، والغرفة التي التقط فيها أول أنفاسه بالحياة، وهي غرفة صغيرة للغاية متواضعة حد القحط؛ غادرنا منزل العائلة هذا إلى محطتنا الأخيرة، وهي القطار الذي كان يستقله، حيث تم الإتيان به بجوار المتحف، صعدنا على متن القطار الذي ولا شك فخم وأنيق بمعايير الزمن الذي كان يستقله ستالين فيه.

أنهينا جولة المتحف هذه ثم غادرنا إلى حيث الطريق العام لإيقاف تاكسي يأخذنا إلى حيث كهوف أوبلستيخي، والتي لا تبعد من هنا سوى خمسة عشر كيلو تقريبًا، ولكننا واجهنا استغلال السائقين بالرفض، حيث طالبونا بثلاثين لاري دفعة واحدة ومنهم من طلب أكثر، إلى أن أتى سائق "ابن حلال" كبير في السن وافق أن يقلنا بالعداد، فركبت بجواره وركبت شيرين في الخلف، وكان هذا هو أفخم تاكسي سبق وركبته في حياتي خارج مصر أو داخلها!! حيث هو سيارة في الأغلب لادا، إنتاج السبعينات ربما، والمقعد الأمامي يكاد يلصقني بالتابلوه وبالفعل كانت ركبتي تلامسه عمليًا!!

أقلّنا الرجل إلى الكهوف، وبالعداد طالبنا بأجرة مقدارها فقط عشرة لاري لا غير، منحناه إياها، ولحسن الحظ أخذت شيرين رقمه ربما احتجنا أن يُقلنا من هنا بعد الانتهاء من زيارة الكهوف.

ودخلنا إلى حيث الكهوف، حيث شباك التذاكر أولًا حيث سعر التذكرة ٣ لاري فقط، ثم ساحة كبيرة مليئة بالباصات التي تقل مجموعات سياحية مختلفة، ثم مشينا في طريق الكهوف.



صراحة منظرها جميل للغاية، فهي كهوف صخرية، وهي الوحيدة بجورجيا كلها التي تحمل الطابع الصخري، حيث كل جبال جورجيا ومرتفعاتها تحمل اللون الأخضر - كما جبال الشوف في لبنان- ومن هنا تشتهر الكهوف لأنها تشذ عن القاعدة لديهم وهي اللون الأخضر.

عند اقترابنا من منطقة بداية صعود الكهوف سمعت صوتًا مألوفًا من الأفلام، فسألت شيرين مستفسرًا "انتِ سمعتي اللي أنا سمعته؟"، فأجابتني "أنا ليّا إني أشوف مش أسمع"، فأجبتها "مَا هو معنى إننا سامعينه يبقى هو قريب وممكن نشوفه في أي وقت ".

كان هذا الذي نتحدث عنه هو ثعبان، لأن ما سمعت صوته كان فحيح ثعبان، كان يغلب عليّ حينها قول "محمد هنيدي" أيضًا في "جاءنا البيان التالي": "قومي بينا نمشي". لكن وبدافع من وجود أناس كثر حولنا تشجّعنا، أو بالأحرى تشجّعت - فـشيرين كانت شجاعة بالفعل - وأكملنا المسير والصعود، ظللنا نصعد الكهوف التي بالطبع غير ممهدة للصعود بسهولة، ونُلقي نظرة على المكان أمامنا، حيث أُفق ممتد يطل على نهر متكوراي.

الجميع من حولي يصعد ويمسك بزجاجات المياه ويشرب، وأنا أنظر إليهم والعطش يفعل بي الأفاعيل، ولكني أكمل الصعود، ووصلت إلى ثاني أعلى قمة في الكهوف، وسجلت حينها مقطع فيديو ما أزال أذكره أقول فيه: "لو حد كان قال لي من كام يوم بس إني هسافر من السويس للغردقة ومن الغردقة لتبليسي ومن تبليسي لجوري ومنها لأوبلستيخي وارجع تاني تبليسي، لأ وكمان أطلع كهوف، كل ده وأنا صايم كنت هقوله انت أكيد مجنون"، حيث صراحة لم أكن أتوقع أنني قادر على فعل كل هذا مع عدم الحصول على قدر كاف من النوم أو الراحة فضلًا عن تناول الطعام والمياه.

ولكن ما يزال في اليوم بقية وما أزال أحتاج إلى طاقة لأصمد، فالمغرب في التاسعة إلا ربع مساء والساعة لم تتجاوز الرابعة بعد! كنت أرغب في إكمال الأمر حتى نهايته وأن أصعد إلى أعلى قمة في الكهوف والتي تستقر فوقها إحدى الكنائس، إلى أن قابلتني تلك اللعينة "السحلية"، أو بالأحرى مجموعة من السحالي في أماكن عدة، ولأني من أولئك الذين يعانون من رهاب الزواحف الـ Herpto phobia– كما تعلمون إذا كنتم قرأتم كتابي الأول سفرنامة- فإذ بي





أقرر النزول الفوري من على الكهوف، وكنت أكاد أطير من فوقها، ولولا الحذر لأن "الوقعة بموتة" حيث يغيب عنصر الـ Safetyتمامًا هناك، لكنت قد وقعت لأني بالفعل كنت أجري.

وهنا سأترككم مع بعض مما دونته شيرين عن ذلك الموقف: "هنا اكتشف أن محمد حمودة يعاني من رهاب الزواحف (والتي أعرف الآن أن هذا النوع من الخوف المرضي يحمل بالفعل اسم علمي وهو(Herpetophobia)، فقد صار يقفز في الهواء حرفيًا كل بضعة أمتار، هلعًا لرؤية إحدى السحالي، بينما تنظر إليه هي بعنق مشرئب ولسان حالها يقول "وده ماله ده؟"!، قبل أن تحوّل بصرها عنه وتزحف في لحظة خاطفة لتتوارى وراء السور مرة أخرى".

هبطت بحمد الله إلى الأرض سالمًا، ثم تبعتني شيرين، ووقفنا لالتقاط الأنفاس، ولكن جاءت هذه الوقفة بجوار استراحة السائحين حيث يكثر تناولهم للأطعمة والمياه والمشروبات الغازية التي كنت أتحرّق شوقًا لشربها، لذلك أعطيتهم ظهري مُعرضًا عن هذا التعذيب غير المقصود بالطبع، وسرعان ما اتجهنا إلى حيث بوابات الخروج، هنا عرفت للمرة الأولى أن البلد مقصد للسياحة الإسرائيلية بكثافة، حيث مجموعات متنوعة من أبناء العم سام[٥٠]. ومما لفت انتباه شيرين، حيث كنت أسبقها بعده خطوات، محادثة سريعة وعابرة بين رجل إسرائيلي وآخر إيراني، يتبادلان الحديث بالإنجليزية ويتمنى الإسرائيلي أن يأتي اليوم الذي تكون هناك علاقات سلام بين بلده وإيران.

لن أنكر أن فكرة أني على مقربة من إسرائيليين أزعجتني، إلا أن المُتّبَع في مثل الحالات منطق "وأنا مالي" أو "يا جاري انت في حالك وأنا في حالي ودونما صباح الخير".

[٥٠] أبناء العم سام: هناك بعض الروايات تقول أن اليهود يلتقون مع العرب في جد واحد وهو سام بن نوح، حيث أن نوح عليه السلام له أربعة من الأبناء (سام - كنعان - حام – يافث) فكنعان أبو السود، وحام أبو الأوروبيين، وسام أبو العرب واليهود، أما يافث فقد مات وانقطع نسله).



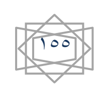


اكتشفت حينها شيرين أنها فقدت الكاب "قبعة الرأس" الخاص بها في التاكسي – وهو يحمل ذكرى عزيزة لديها - الذى أقلنا للكهوف، وكان من حسنِ الحظ أنها أخذت رقم هاتف السائق، فاستأذنت سيدة تحمل خطًا جورجياً واتصلت به، واكتشفت أنه من تلقاء نفسه كان في طريقه إلى حيث الكهوف ليعطيها الكاب، فعاد الرجل إلينا بعد دقائق وأقلنا إلى حيث الموقف الذي أخذنا منه سيارة تعود بنا إلى حيث تبليسي من جديد بعدما شكرناه على أمانته ولطفه.

في الطريق إلى تبليسي أدركت أن بطارية طاقتي قد انتهت، ولا أريد أن أشعر بالتعب بعد كل هذا المجهود فأخسر صومي وأضطر للإفطار، لذا أخبرت شيرين أنني سأعود إلى تبليسي والهوستل لأنال قسطًا من الراحة، وأن تذهب هي إلى ميتسخيتا ونلتقي في المساء. ولكنها تضامناً معي قررت التخلي عن زيارة ميتسخيتا – وأنه شيء لو تعلمون عظيم أن تتخلى هيٍ المهتمة بالأماكن عامة والتأصيل والبحث خاصة عن زيارة مكان - وأن نعود سوياً إلى تبليسي وهو ما قد كان بالفعل.

وما هي إلا ساعتان وكنا قد عدنا أدراجنا إلى حيث محطة العتبة، آسف أقصد ديدوبه، ومنها إلى حيث شارع روستافلي حيث يوجد به دار أوبرا تبليسي، والتي توافقت رغبتنا "شيرين وأنا" في مشاهدة عرض بها، لذا ذهبنا لرؤية فعاليات الأيام القادمة وحجز العرض الذي قد نتحمس له. كان عرض باليه بحيرة البجع مكتمل العدد، لذا جذبنا عرض آخر ورغبنا في حجز تذكرتين به، وكانت قيمة التذكرة ثلاثين لاري حيث مقعد ذو موقع جيد يتيح لنا مشاهدة ومتابعة جيدة. أكّدت شيرين على السيدة التي تجلس بشِباك التذاكر والتي لا تعرف الإنجليزية مطلقًا أن العرض موعده الجمعة مساءً، وهو ما أكدته الحسناء بهز رأسها تأكيدًا كما الهنود نوعًا ما.

سرنا بعد ذلك إلى حيث الهوستل وكانت الساعة السابعة إلا ربع، فأخذت دشًا سريعًا ودخلت الغرفة التي بها سريري فلم أجد أحدًا غيري، وصعدت على السريرِ وذهبت في سبات عميق، أيقظتني منه شيرين مفزوعًا في الثامنة والربع مساءً قائلة "اجهز عشان المغرب قرّب يأذن"، وسرعان ما بدلت ثيابي وأصبحت جاهزًا للمغادرة.



صحبتني شيرين إلى فرع هادئ نسبياً لمطعم شهير بتبليسي وله عدة فروع كثيرة، وهو مطعم (ماتش خله)، مرشحة لي الأطباق الجورجية التي سبق وجربتها هي خلال الأيام الماضية وأعجبتها.

من يعرفني من سابق قراءة يعلم أن علاقتي بالطعام ليست جيدة على الإطلاق، وأن حماسي لتجربة الجديد حماس فاتر، هذا في الأوقات العادية، أما الآن وأنا صائم وبعد هذا اليوم العجيب ومجهوده فأنا "عاوز آكل، مش أجرب".

كانت الميزة في المطاعم الجورجية أن كميات الأكل لديهم كبيرة، حيث الأطباق تأتيك كبيرة وممتلئة ولا يوجد في المنيو (قائمة الطعام) لديهم مسألة المقاسات هذه كالصغير والمتوسط والكبير **Small-Medium-Large** في أغلب الأطباق المقدمة، وبالتالي اتفقنا على أن نطلب طبقًا واحدًا من كل صنف ونتشارك فيه، فطلبت شيرين طبقًا من الخاتشبوري وآخر من الباذنجان بعين الجمل المهروس والرمان "له اسم لا أذكره" وثالث من البطاطس.

ا ستغرق إحضار الطعام وقتًا حيث ستكتشف بسهولة أن الخدمة بطيئة نوعًا ما، حينها كانت التاسعة إلا ربع موعد الآذان الذي أدرك بالطبع أني لن أسمعه، وها أنا أفطر خارج مصر بتبليسي آخر يوم بشهر رمضان على الخاتشبوري والباذنجان العجيب اللذان لم يكونا قد شرفا المائدة بعد ولكن كان معي إصبعين من فاكهتي المفضلة والأثيرة الموز، تناولتهما بنهم إلى أن أتى الطعام، أما البطاطس فهي تعرفنا ونعرفها وبيننا سابق عهد وعشرة، ولكنها أتتنا في طاسة سوداء متوسطة الحجم، وهي عبارة عن أصابع متوسطة الحجم ولكنها ليست مقلية في الزيت وإنما مطهاه بالفرن مضافًا إليها بهارات وتوابل وخلطة أشبه بخلطة القرنبيط هنا في مصر، ولي أن أقول لك أن طعم هذه البطاطس "حكاية"، ويبدو أن كائن البطاطس - إن جاز الوصف - حلو في كل حالاته وبشتى طرق طهيه.

أما عن الخاتشبوري، فسأدع وصفه لشيرين حيث دوّنت قائلة: "الخاتشبوري، عبارة عن عيش شبه القارب مخبوز في فرن حراري شبه التاندوري الهندي، بيتحط في وسطه جبنة "سالجوني" المحلية، وفوقيها بيضة وتتحط ف الفرن تاخد يادوب لسعة سوى وتتقدم، لمّا تيجي تاكلها لازم تضرب البيضة بالجبن كويس لأنها بتكون شبه نيّة، لكن لمّا بتضِّرب بالجبنة طعمها بيظبط



ويبقي حلو، بعدين تقطع عيش من طرفي القارب وتغمِّس"، ولك أن تعرف أنه أعجبني طعمه، كما أنه أتانا بنار الفرن، ساخن للغاية، وشهي "ويفتح النفس".

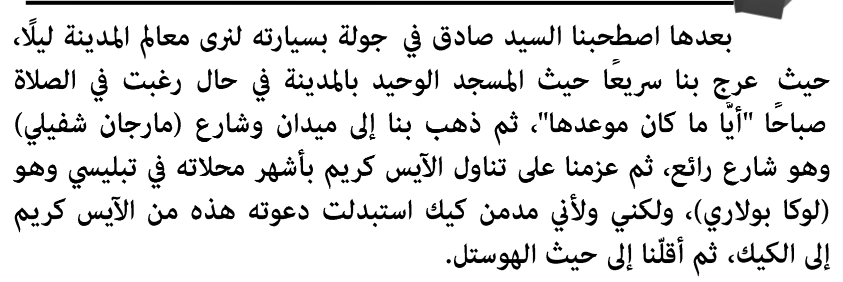
إذن الحمد لله الخاتشبوري أعجبني، فماذا عن الباذنجان بعين الجمل والرمان؟ في الأصل لست من محبي الباذنجان، اللهم إلا عندما يكون "مسقعة" مصرية الصنع، وبالتالي فشهادتي في هذا الطبق لن تكون منصفة، ولكنه كان بالنسبة لي طبق لا تعرف له أصل "تحسه مايع" لا هوية له، فما علاقة الرمان المطحون بالباذنجان بعين الجمل! لذلك تذوقته ولم أفضله، فأكلت الخاتشبوري الشهي والبطاطس الأشهى.

وتمت وجبة إفطار اليوم الأخير بالشهر الفضيل.

حينها انضم إلينا رجل مصري شهم مقيم بجورجيا سبق وتعرفت عليه شيرين عند وصولها، حيث أنه أحد أقرباء صديق لشيرين بالقاهرة. تبادلنا التعارف ورغبت حينها في معرفة معلومة بسيطة، حيث أن رمضان قد انتهى، إذن غدًا أول أيام عيد الفطر فمتى صلاة العيد؟

كنت قد بحثت عبر الإنترنت فلم أستدل على شيء تمامًا كما حدث في روسيا، لذلك حاول السيد صادق المساعدة، فاتصل بأحد أصدقائه العراقيين المسلمين - حيث أنه مسيحي الديانة- وأخبره أنه بصحبة شخص مصري يرغب في معرفة موعد صلاة العيد غدًا، وما كان المسئول بأعلم من السائل، حيث حيرنا ذلك الشخص الذى يجيب عبر الهاتف، ولم ندرك هل هي في السادسة أم في الثامنة صباحًا؟ وانتهت المكالمة الطويلة دون الوصول لمعلومة مؤكدة.





بعدها اصطحبنا السيد صادق في جولة بسيارته لنرى معالم المدينة ليلًا، حيث عرج بنا سريعًا حيث المسجد الوحيد بالمدينة في حال رغبت في الصلاة صباحًا "أيًّا ما كان موعدها"، ثم ذهب بنا إلى ميدان وشارع (مارجان شفيلي) وهو شارع رائع، ثم عزمنا على تناول الآيس كريم بأشهر محلاته في تبليسي وهو (لوكا بولاري)، ولكني ولأني مدمن كيك استبدلت دعوته هذه من الآيس كريم إلى الكيك، ثم أقلّنا إلى حيث الهوستل.

وها نحن ذا أخيراً في الهوستل مرة أخرى والساعة قد تجاوزت منتصف الليل، فاستعددت للنوم ودخلت إلى الغرفة التي بها سريري وكان نزلاؤها نائمين فلم نتعرف. صعدت وجملة يقولها ذلك الرجل الصيني العجوز الذي لعب دور الجد بفيلم "فول الصين العظيم" لـ "محيي": "كل واحد جوّاه قوة روحية لمّا يكون عنده إرادة تطلع"، وصراحة لم أكن لأصدق أني سيكون لدي الطاقة ليوم كيومي هذا، وها هو النوم يأتي مسرعًا والصباح رباح.



٣- كازيجي البلد

استيقظنا صباح أول أيام العيد، ومع فشل معرفة موعد صلاة العيد ولعدم التأكد ما إن كانت في السادسة أم الثامنة صباحًا ولكوننا على سفر، حيث سنغادر تبليسي اليوم إلى مدينة أخرى وهي (كازبيجي)، استيقظنا في السابعة وتناولنا إفطارًا سريعًا وجهزنا أنفسنا، وأقصد بذلك أن كل واحد منا اصطحب أغراضًا تمكنه من المبيت ليلة بكازبيجي.

في العادة تسافر شيرين بحقيبة Back bag كبيرة تأخذ كل أغراضها، وأخرى صغيرة تلك التي يمسكها طلبة المدارس، أما أنا فغير معتاد على السفر بالأولى - حيث أفضل الحقائب التقليدية الضخمة التي يتم جرّها - ولا أستخدم الثانية، لذا كانت هذه هي مرّتي الأولى في السفر بحقيبة مماثلة، وضعت فيها احتياجاتي الضرورية، وكذلك حقيبة بلاستيكية أخرى، وأخذت بـيدي جاكت جلد، في حين أخذت شيرين شالًا صوفيًا.

لماذا ونحن بـشهر يوليو؟ سؤال منطقي، نعم نحن في فصل الصيف، ونعم من الأمس وأنا أتحرك في جوري وأبلستيخى ومساءً في ماتش خلة ولوكا بولاري مرتديًا تيشرتًا صيفيًا خفيفًا وشورت. ولكن ببحث شيرين - وهي سيدة البحث بلا منازع، أو هكذا يمكنني وصفها- كانت قد أخبرتني قبل السفر من مصر أننا ربما نقضي يومًا ببلدة اسمها (كازبيجى)، وأن هذه البلدة ذات طقس بارد لأنها جبلية للغاية، لذا يحتاج زائروها إلى ارتداء الملابس الشتوية.

إذن يا سبحان الله، أنوي أو أرغب أن تكون "الخطاوي" إلى (سيرلانكا) وتحديدًا (نوراليا) لتجربة أن يأتي الصيف وأنا مرتديًا الملابس الشتوية، فإذ بي سأفعل هذا ولكن بجورجيا وتحديدًا بكازبيجي.

تحركنا إلى محطة مترو (ليبرتي سكوير) ومنها إلى (ديدوبه) أو عتبة جورجيا، سمها كما يحلو لك، وبمجرد خروجنا من ذلك النفق الذي سبق ووصفته حتى وجدنا سائقًا - حيث يصطاد السائقين زبائنهم من هناك- يسألنا سؤال من كلمة واحدة وهي كازبيجي؟ وبالطبع فراسة الرجل هذه سببها أن شخصًا مثلي ما يزال مرتديًا الملابس الصيفية التي وصفتها، ولكني أحمل بـيدي جاكت جلد، وشيرين الشال، فأجبناه أن نعم، فدلنا على (مارتوشكا) ستسافر إلى هناك، وهي



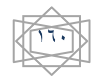
يمكن وصفها بميكروباص سياحي فاخر، حيث المقاعد ليست متجاورة للدرجة التي تجعل جزءاً من جسد الجالس بجوارك مُحمّلًا عليك.

جلست شيرين إلى جوار فتاة صينية تجلس بجوار السائق، وهو ما كان من حسن حظها، حيث كانت الفتاة تجيد الإنجليزية التي تجيدها شيرين بمهارة بالطبع وكذلك الروسية، لذا كانت هذه الصينية همزة وصل في ترجمة الأسئلة التي ترغب شيرين أن تطرحها على السائق. أما أنا فجاءت جلستي خلفها مباشرة وإلى جواري شاب ليتواني - أي من ليتوانيا - وهي دولة من دول الاتحاد الأوروبي والتي لم أكن قد سمعت عنها من قبل هي وشقيقتها إن جاز القول (استونيا)،. وكان يجلس خلفي شاباً إسرائيلياَ وبصحبته فتاة ربما تكون زوجته، لا علم لدي ولم أكن أرغب في أن يكون لي علم.

كوننا في سيارة واحدة مع إسرائيليين كان أمراَ لا أستريح له، ومع ذلك بقيت الشعارات سالفة الذكر هي التي تحكم منطق العلاقة "يا جاري انت في حالك وأنا في حالي ودونما حتى صباح الخير". أعلم أن هذا قد يتعارض مع ما ذكرته في كتالوج الكتاب، وأنه من المفترض أنه "لا يهمني اسمك ولا ميلادك ولا مكانك"، وأن الأهم هو الإنسانية، ولكن سأرجئ الكلام عن هذا حتى نصل إلى فصل آخر.

تحركت السيارة بعدما اكتمل عددها وأغلب من فيها **Couples** يمارسون أمارات الحب "اللي مولّع في الدرة" ولا داعي للإسهاب والشرح في هذه النقطة وتخيلها بمعرفتك ولكن لا تدع خيالك "يروح لبعيد" فهم مدركون أنهم أولاً وأخيراً بمكان عام.

وفي طريق استغرق الثلاث ساعات ونصف الساعة من السحر اللامتناهي، والخضرة العجيبة والمناظر الطبيعية التي لم أر أروع منها كنا قد وصلنا إلى (كازبيجى)، قبل هذا كنا قد توقفنا أكثر من مرة، منها مرة عند كنيسة (ميتسخيتا)، نعم هي تلك التي فوتتها شيرين بالأمس تضامناً معي، وها هي تأتي اليوم لزيارتها دونما تخطيط. تقع الكنيسة على منظر خيالي لربوة أنانوري، حيث نهر يحده يميناً ويساراً جبل أخضر. بالفعل لن تشعر نفسك بشيء سوى السكينة والسلام وكأنك في الجنة، التقطنا بعض الصور هناك ثم دخلنا الكنيسة التي كانت هادئة وفقيرة للغاية أيضًا، حيث حوائط عارية اللهم إلا بضع أيقونات معلقة





كيفما اتسق، ورائحة الزيت النفاذة التي لا أعلم ما هو استخدامها بالتحديد وكذلك الشمع، ومذبح خاو على عروشه لا يوجد به أي إبهار. وتوجد سيدة تمنع دخول السيدات إلا بعد استخدام غطاء للرأس، وهو متاح مجانًا لاستخدامه ودخول الكنيسة ثم تركه، وأحيانًا أيضًا تطلب من السيدات أن يضعن شيئًا أشبه بالمئزر على خصورهن إذا لم يعجبها البنطلون الذي ترتديه الداخلة إلى الكنيسة.

لم نستغرق وقتًا بالكنيسة الكبيرة نوعًا ما والعريقة أيضًا، وغادرنا إلى حيث السيارة مرة أخرى وأنا مندهش من سبب هذا التقشف البادي على الكنيسة. صحيح أن الكنائس الكاثوليكية بالطبع عامرة بالزخارف والأيقونات وآيات المعمار البذِخ، إلا أن كنائس روسيا - والتي هي أرثوذكسية كما أوضحت - لا تقل في روعة معمارها وبذخه عن نظيرتها الكاثوليكية، علّلت الأمر أنه ربما يرجع ذلك إلى أسباب اقتصادية، فبالتأكيد الاقتصاد الجورجي يختلف جذريًا عن نظيره الروسي.

كانت محطتنا التالية هي حائط مبني في الطريق يُشعرك أنه "Middle of Nowhere". وبتأصيلات وأبحاث شيرين التي وفرت عليّ جهد البحث بسبب تدوينها لهذه الرحلة عبر الفيس بوك علمت أن الحائط هو رمز للصداقة والعلاقات الروسية الجورجية، وأنه تم بناؤه بعد الانفصال أو بالأحرى انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي إلى دول مستقلة. وبوصولنا إلى هذا الحائط لم يكن هناك بد من ارتداء الجاكت حيث أصبح الجو باردًا، ويا له من منظر عجيب، حيث أرتدي الجاكت على تيشرت نصف كم وشورت، ولكن هذا لم يكن منظري منفردًا حيث فعل كل من كان معنا بالمثل، فالجميع كان يحمل قطعة ملابس شتوية بيديه.

الحائط يأخذ شكل القوس غير المكتمل، والذي يوجد عنده بعض الباعة الذين يبيعون عسل النحل، وهو عسل فاخر بالمناسبة لم أشتر منه للأسف، وكذلك تلك الحلوى التي سأكتشف لاحقًا أنها الحلوى الشعبية في البلد طولًا وعرضًا وهي التشورش خلة، وهي عبارة عن عامود متوسط الطول من مادة جيلاتينية مُحلّاة وتحت منها خيط رفيع يضم قطع عين الجمل، هي أشبه بالملبن بعين الجمل الذي نتناوله في المولد النبوي الشريف، ولكن مع وجود اختلافات في طريقة الصنع والتحضير. اشتريت منها واحدة لتجربتها، وهي جيدة الطعم





والمذاق، لكن عيبها بالنسبة لي أنها ليست لدنة أو لينة مثل الملبن، بل تحتاج إلى قواطع جيدة بالفك وهو ما آثرت معه السلامة.

كما يوجد هناك مندوبون لشركات سياحة تقدم نشاطًا استثنائيًا وغير متكرر وهو نشاط الـ Paragliding أي القفز بالمظلات من فوق الجبل، استمعت لعرض السيدة التي كانت تتحدث إليّ وكنت متحمّسًا لخوض التجربة، وهو ما أثار دهشة شيرين قائلة "يعني كنت خايف من سحلية، وكانت هتخليك على وشك إنك تنط من على الجبل ومش خايف تنط بالمظلة من فوق الجبل!"، ثبط هذا من عزيمتي، وربما كنت "بتلكّك" فصرفت نظر عن هذه التجربة.

عند الحائط انشغل كل واحد ممن كانوا في السيارة بالتقاط الصور، حرصت ألا أكون في مرمى الإسرائيلي وصاحبته حتى لا يطلب مني أن أصورهما سويًا، ولا أعلم حينها هل كنت لأتصرف بحسابات الدبلوماسية أم لا! لا أعلم.

وبإكمالنا الطريق أدركنا أننا نرتقي جبلًا بالفعل ولكن بالسيارة لا سيراً على الأقدام، ومن حين لآخر نتوقف لكي يعبر قطيع من الأبقار صفراء اللون التي تسر الناظرين.

وها نحن ذا في (كازبيجى) وتحديدًا في قرية تُسمى (ستيباتسميندا) "ما تزال الأسماء التي مصدرها اللغة الروسية " صعبة في النطق. توقفت بنا السيارة في ساحة فسيحة، والقرية بالطبع لا تحتوي على فنادق، فهي قرية ريفية بسيطة للغاية، وأيضًا لا تحتوي على Hostelsولكن Guest Houseوهذا الأخير هو عبارة عن بيت عائلة خصصت منه جزءاَ - غرفة أو أكثر - لتكون مصدر دخل لها فتستضيف السائحين القادمين إلى البلدة وهم كُثُر.

لماذا هم كثيرون؟ حسنًا هل يمكن لسائح أن يأتي مصر دونما رؤية ومشاهدة الأهرامات الثلاثة بالجيزة؟ في أغلب ظني لا، حتى أولئك السائحين الذين يقيمون في شرم الشيخ أو الغردقة تعمل شركات السياحة على توفير برنامج ولو ليوم واحد يمكّن السائح من زيارة الأهرامات. كذلك الأمر في جورجيا، حيث بدأت علاقتنا أو بداية السماع عن (كازبيجى) بمصري سبقنا إلى هناك وقال ذلك الوصف الذي سأزيد عليه ببساطة واختصار أنها بالفعل جنة لله على أرضه.





كانت شيرين قد حجزت بالفعل إقامة ليلة لنا هناك بإحدى بيوت العائلات تلك ويُدعىHQ of Nove_Sujashvili ولكن كيف سنصل له والقرية عبارة عن صفوف متراصة من البيوت ذات الحجم الواحد؟ ولا يمكنك أن تعبر من صف إلى آخر حيث لا توجد مداخل جانبية بين هذه الصفوف، حيث لا يعلمون شيئًا عن ثقافة الحارات والأزقّة لدينا في مصر، ومع غياب وجود أسماء للشوارع، ومع غياب وجود من نسألهم أصلًا، وحتى مع ظهور بعض المارة كان وجودهم والعدم سواء، كان علينا أن نمشي صفًا باحثين عن أي لافتة تُشير إلى مكان إقامتنا. كانت الساعة تجاوزت الثالثة عصراً، ونحن نسير بغير هدى ودون أن نصل إلى شيء. حاولت سؤال سكان البيوت أنفسهم فكنت أدق الأبواب ولا يجيبني أحد، والوحيد الذى تكبّد عناء الإجابة والرد على تحيتي الإنجليزية كان كلباً بأحد البيوت التي دققت بابها، فأفزعني "الله يقطعه". غادرنا الصف الذي كنا نسير فيه، وبعد وقت قابلنا الليتواني الذي كنا قد تعرفنا عليه خلال الطريق، الأخ فيرجس، وكان فيرجس هذا محظوظًا حيث وجد مكان إقامته سريعًا، بل وصعد إليه وبدل ملابسه وربما تناول غداءه أيضًا ونزل ليبدأ تجواله في البلدة، اندهش لأننا لم نجد مكان إقامتنا بعد، وتمنى لنا الحظ وانصرف.

وأثناء محاولة البحث المضنية تلك صادفنا مجموعة من عمال الدهانات فاستبشرت وظننته الفرج، ولكن شيرين ردتني إلى صوابي قائلة: "ودول هتسألهم ازاي وهتتكلم معاهم بأي لغة؟" فأجبتها "هقول اسم المكان بس يمكن يسمع معاهم وحد يعرف هو فين"، وهو بالطبع ما لم يحدث بعدما فغر الشاب الوسيم فاه دلالة عدم فهم ما أقول واستعان بصديقه الذي يعمل معه ولم نصل بهذه القمة الرباعية إلى شيء سوى تمام التأكد أني أعاني من لثغة في حرف السين ذكرتني بها محاولة نطق الكلمة الأخيرة من اسم المكان "سوجاجفيلي".

غادرنا هذا الصف وبصعودنا للصف الذى يليه قابلنا رجلا عجوزًا وبمجرد ما ذكرت اسم بيت الضيافة حتى أشار لنا أن اتبعاني، فتبعناه ونحن لا ندري هل إلى المجهول يصحبنا؟ أم أنه بالفعل يعرف المكان؟ وحمدًا لله كان بالفعل يعرفه، فدخلنا عبر باب حديدي لنجد في استقبالنا مجموعة من الدجاج والديكة، كما وجدنا بعض أحبال الغسيل المنشور عليها ملابس أهل الدار، الدار التي لا تبشر بأي طيب إقامة في هذه الليلة على الإطلاق.



استقبلتنا فتاة بشوشة بملامح قوقازية جميلة وشعر قصير وبنطال وقميص يجعلها أشبه بالأولاد منها بالبنات، قادتنا حيث درج علوي وأصبحنا داخل المنزل. من قال إن الحكم من الوهلة الأولى ومن المنظر الخارجي صحيح؟ البيت كان يخضع جزء منه للإصلاحات والتجديد وقادتني الفتاة عبر ممر إلى غرفة ما، وهي غرفة تنفي انطباع أي قدَم أو ريفية للمنزل، حيث أثاث حديث و"راوتر" للإنترنت ذو سرعة فائقة، والأهم من ذلك سرير بمرتبة رائعة أفضل من تلك التي في بيتي ولحاف، حيث أننا بحاجة إلى الدفء بالطبع في هذا الجو.

بدلت ملابسي وأخذت دشًا سريعًا، وخلدت للنوم لبضع ساعات، ونهضت قرابة السابعة، وجهزنا أنفسنا لنذهب لتناول وجبة الغداء. غادرنا البيت وسرنا نحاول التقاط علامات تهدينا إليه عند العودة، ووصلنا إلى حيث الساحة التي تركتنا فيها السيارة عندما وصلنا. كان أمامنا مطعم على تلة مرتفعة يُدعى ٥٠٢٧ متر، وهو للتدليل على ارتفاع المدينة وجبل كازبيجي بها. طلبنا الطعام، فالجوع كان قد فعل بنا الأفاعيل حينها، وبالطبع لم أكن لأتنازل عن طلب البطاطس إياها، وطلبتها شيرين كذلك مع طبق من الخينكالي الذي وصفته تدويناً بـ "الخينكالي من كتر ما بيعتبر العلامة المميزة للمطبخ الجيورجي قربوا يحطوه على العلم! عبارة عن عجينة بيحطوا في قلبه أي حاجة (لحمة ... مشروم ... بطاطس بيوريه ... إلخ) وبتتلف كده زي البؤجة وتتسلق، ليها طريقة خاصة في الأكل، بتقطع حتة صغيرة في جنبها، بعدين تشفط العصارة اللي جواها الناتجة عن تشبعها بمية السلق، بعدين تاكلها عادي باستثناء الرأس لإنها بتكون ناشفة ومالهاش طعم"، وقد جربت واحدة ولم تعجبني، وأوضحت شيرين أني لو جربته في (ماتش خلة) لأعجبني حيث أن طهيه هناك كان أفضل.

وعلى الرغم من أني كنت مرتديًا الجاكت بالطبع وشيرين الشال الصوف إلا أني كنت أشعر بالبرد، حيث أن الجزء الذي نجلس به في الهواء الطلق. ويُقدم المطعم خدمة لزبائنه وهي البطانية التي بإمكانك استعارتها واستخدامها للشعور بالدفء، وهو ما فعلته ونحن بشهر يوليو .

أتى الطعام وأتى معه ناموس أشبه بالـ "جمبري الكبير"، وبالتالي ما إن أنهينا تناول الطعام حتى آثرنا العودة إلى حيث بيت الضيافة، أولًا هربًا من لسعات الناموس العجيب هذا، ثانيًا احتماءً من البرد الذي استشرى في الأجواء،



وثالثًا حتى نستغل آخر شعاع ضوء منسحب من النهار في الوصول إلى المكان دون أن نتوه ليلًا، وبالتأكيد لا نريد خوض تلك التجربة بالليل.

عُدنا إلى البيت الذي كانت سيدته التي استقبلتنا قد سألتنا قبل الخروج مخيّرة إيانا بين عدة ألوان لنختار أحدها ليكون هو طلاء الغرفة التي تخضع للتجديد، فاخترنا لونين واختارت هي أحدهما بالفعل وعدنا ووجدناها قد دهنت الغرفة بنفسها.

دخلت إلى الغرفة التي بها سريري، ووجدت فتاة بولندية بمفردها، عازمة على صعود الجبل في الصباح ومعها أدوات تسلق الجبال وصعودها. تبادلنا أطراف الحديث، وعزمتها على كحك وبسكوت كانا معي احتفالًا بالعيد، وأخبرتها أننا نأكل هذه الأطعمة في العيد، ثم كان أن خلدت هي للنوم للاستيقاظ مبكرًا وبقيت أنا أنعم بذلك الإنترنت "الطلقة".

حينها كنت على تواصل مع الشباب الثلاثة، وكنت أعلم أنهم حجزوا رحلة إلى (كازبيجي) تشمل الذهاب والعودة وصعود الجبل في يوم واحد دون مبيت، وأنهم بالفعل أتمّوها وعلى مشارف دخول تبليسي من جديد، واتفقنا أن نتواصل بمجرد عودتنا إلى تبليسي حتى نلتقى سويًا، وبعد ذلك خلدت إلى النوم استعدادًا ليوم الغد وصعود الجبل.





٤- كازيجي الجبل....وسنة وشيعة "صلاة" واحدة

استيقظت في السابعة صباحًا لأجد أن رفيقتي في الغرفة قد غادرتها منذ الخامسة فجراً، ووجدت شيرين قد استيقظت هي الأخرى واستعدت، وطلبت مني أن أجهز نفسي وأن آخذ كل أغراضي من المكان حتى نذهب إلى الجبل ثم عند الهبوط نغادر مباشرة ولا حاجة للعودة لبيت الضيافة هذا مرة أخرى. بالطبع لم نتناول أي إفطار يُذكر، وتحركنا إلى ساحة القرية التي وجدنا فيها سيارة ستصعد إلى الجبل، والحمد لله فهذا سيوفر علينا الوقت والجهد، اقتسمنا تكلفتها مع اثنين آخرين، وبدأت السيارة في التحرك، وهي سيارة دفع رباعي من طراز اللادا الروسية والتي أثبتت بالفعل أنها فخر الصناعة الروسية، حيث أن عملية صعود الجبل بها هذه كانت أشبه بخلاط العصائر، حيث كنا نرتج صعودًا وهبوطًا ويمينًا ويسارًا، فالصعود إلى الجبل عملية شاقة ولا أعلم كيف حال "مساعدين " هذه السيارة.

بعد ربع الساعة تقريبًا نزلنا نحن بالقرب من كنيسة (جرجتي) وأكمل الراكبان الآخران الطريق إلى أعلى نقطة في الجبل حيث ينويان قضاء الليلة هناك "في الظلّ".

دخلنا الكنيسة التي لا تختلف في شيء عن سابقتها في (ميتسخيتا)، وكان بها طقس صلاة ولا أعتقد إذا يمكن القول أنه قداس، حيث لا يوجد فقط سوى قس وشاب "شمّاس" تقريبًا يساعده في الصلاة بقراءة بعض مقاطع من الإنجيل. وبعدما فرغا خرج الشاب ورن جرس الكنيسة ذو الصوت المرتفع والذي يسري في الأجواء حتى يصل إلى القرية. أعجبتني حالة السلام النفسي والصفاء التي يحياها هؤلاء البشر بعيدًا عن دنيا المادة وعالم الصراعات، يتعبدون في هدوء ودعة والحياة بالنسبة لهم بسيطة للغاية.

خرجنا من الكنيسة وجلسنا نتناول كحك العيد سريعًا، وأفرغت محتويات الحقيبة البلاستيكية في تلك التي على ظهري كما شيرين، وكان هذا بعد أن أوضحت شيرين أننا سنخوض تجربة نزول الجبل سيراً على الأقدام وليس باستخدام السيارة. لم أكن متحمسًا للفكرة، ولكن شيرين - ويمكنني وصفها بالقول "شيرين سيطرة"- أقنعتني أنها تجربة خارج نطاق المألوف وأننا لا نأتي إلى (كازبيجي) كل يوم.



قبل أن نشرع في نزول الجبل، دعني أسألك، هل تذكر تلك الخلفية الشهيرة لشاشة الكمبيوتر إذا ما كان نظام التشغيل هو Windows Xp؟ تلك التي هي عبارة عن مرج أخضر وسحاب يأسر النظر!، إن كنت تذكرتها فدعني أخبرك أن هذه الصورة ليست Photoshop وأنها حقيقية تمامًا إذا ما صعدت إلى كازبيجي، وإذا كانت لديك الصحة الكافية وروح المغامرة أيضًا وأكملت الصعود كما رفقائنا بالسيارة التي صعدت بنا ربما يمكنك أن تلمس السحاب، حيث تعانق السحاب قمة الجبل في منظر فريد وخلاب ولا يُنسى.

بدأنا رحلة النزول، وسرعان ما اكتشفنا أننا اتخذنا قرارًا خاطئًا بالنزول سيراً على الأقدام، حيث أن أحذيتنا لا تتلاءم تمامًا وطبيعة الجبل، كما لا نملك تلك العصى التي يستخدمها متسلقو الجبال لضمان تثبيت خطواتهم، ولكن هذا الاكتشاف جاء بعد فوات الأوان، لذا كان علينا السير كما البطريق على حد وصف شيرين لطريقة سيرنا، وهو الوصف الأنسب، حيث كنا نميل مع كل خطوة ذات اليمين وذات اليسار.

وباكتشاف صعوبة إكمال النزول بهذه الطريقة، كنا قد قطعنا شوطًا من السير لمدة ثلث الساعة تقريباَ، وأصبح التفكير في العودة إلى الكنيسة مرة أخرى وانتظار سيارة ضرباً من العبث، فإذا كان النزول صعباَ فالصعود أصعب بالتأكيد.

حينها كنت قد وقعت على الأرض وقعة بسيطة ولكنها جعلتني قلقًا من أن نكمل الجبل بهذه الطريقة، لذا استخدمت حقيبتي التي على ظهري محل العصى التي لم تكن معنا، وكنت حذرًا في كل خطوة أخطوها وأنا أدعو الله أن "يكمّلها بالستر"، وكانت حينها شيرين تسبقني بخطوات. وفجأة ودون مقدمات رأيتها تطير أمامي حيث تعثرت قدمها بقدمها الأخرى تقريباَ، فتدحرجت من فوق منزل، حينها أصبت بالرعب من المنظر ومن صرختها، وتلك الثواني التي استغرقها ذلك السقوط مرت كساعة، حيث لم أكن أعلم هل ستتوقف أم ستطير من فوق الجبل والعياذ بالله. وعندما توقفت عن التدحرج بحمد لله لم أكن أعلم هل مر الأمر بسلام ويمكنها النهوض؟ أم أصيبت بكسر سيستحيل معه حركتها وبالتالي يُصبح عليّ إكمال طريقي منفردًا بحثًا عن المساعدة.



وعندما أتاني صوتها مجيبًا على قولي "شيرين، انتِ كويسة!" وهي تَئِن وتحاول النهوض، ووجدتها حمدًا لله نهضت وبالتالي لا توجد كسور، وانتهى الأمر على كدمات وجلطات كتلك التي كانت تحدث لنا عند اللعب صغارًا في الشارع، وكذلك قطع يد حقيبتها "قال يعني الحكاية ناقصة أعباء"، وكذلك قطع ببنطالها أسفل الركبة. حينها جلسنا لالتقاط الأنفاس، وحمدنا الله كثيراً أنها "جت سليمة"، واستخدمت هي زجاجة عطر وضمادات كانت معها لتطهير تلك الجروح، ثم أكملنا النزول بحذر أكبر وبمجهود أكثر. كنا نسير نتحدث عن أشياء كثيرة، وأعتقد أن صداقة حقيقية بيني وبين شيرين قد نشأت في هذه الرحلة إجمالًا طبعًا ولكن فوق جبل كازبيجي بالتحديد.

بعد ساعة ونصف الساعة تقريبًا هبطنا بسلام إلى حيث (ستيباتسميندا)، وكنا كلما نرى بيوت القرية تقترب ونحن فوق الجبل نشعر بالسعادة.

بمجرد الوصول إلى القرية توجهنا إلى الساحة ووجدنا (مارشوتكا) شعبية في طريقها إلى (تبليسي)، وينقصها فردان، فكنا هُما، وللصدفة كان بجوارنا ذلك الليتواني فيرجس الذي كان صعد الجبل وهبطه سيرًا على الأقدام وبمفرده تمامًا، وهو ما يشير إلى أنه إما مجنون حيث ماذا إذا ما أصابه مكروه كذلك الذي حدث لشيرين قبل قليل وماذا إذا ما كانت عواقبه أسوأ؟ وإما أنني محافظ وأفتقد روح المغامرة أكثر مما ينبغي. سجّلت معه شيرين لقاءً لأنها كانت تعمل على مشروع توثيقي للرحلة وهو ما لم يكتمل حتى كتابة هذه السطور للأسف. حينها كنت أجلس في هذه العربة اللعينة ومفصل الركبة ملامس للمقعد الذي أمامي حد التسبب في الألم، فما كان من بد من أن أستخرج تيشرتًا من الحقيبة وأحشره بين ركبتي والمقعد حتى يخف الضغط، حينها تذكرت ميكروباصات مصر التي هي بمثابة صالون للاستقبال مقارنة بهذه السيارة.

وبمغادرة (كازبيجى) وجدت نفسي أتمنى لو أن أتعلم الفلاحة والزراعة وأجلس هنا في هذه القرية الهادئة، أنعم بجمال الطبيعة وراحة البال، تاركًا كل شيء خلفي، ليت الأمور بهذه البساطة.

وبمجرد عودتنا إلى (تبليسي) مجددًا ونزولنا في (ديدوبيه) حتى ذهبنا لإصلاح حقيبة شيرين، وهو ما تمكنّا منه بالفعل، فنحن في موقف شعبي للغاية





وبالتالي وجود مثل هذه الحرف أمر متوقع. ومن الطريف أن إحدى السيدات كانت تنوي تدبير خيط وإبرة لحياكة اليد المقطوعة، وبالتأكيد لم تكن تلك الحياكة لتصمد إذا ما حملت الحقيبة أوزانًا، فرغبت شيرين أن توضح للسيدة أن هذه ليست الحياكة التي تريدها وإنما تريدها مميكنة، وبانعدام قدرتنا على التواصل بالروسية أو الجورجية فما كان من شيرين سوى التواصل بالصوت لا الكلام، حيث أوضحت أنها تريد الخياطة بـ "تشك تشك تشك " بصوت متتابع ففهمت السيدة رغبتها واستغرقت في الضحك ومعها أنا وشيرين بالطبع، وقادتنا إلى حيث سيدة ستقوم بخياطة الحقيبة "تشك تشك تشك"، ثم عدنا أدراجنا إلى حيث الهوستل العزيز. استعدنا نشاطنا بقليل من الاسترخاء، ولا تسألني عن النوم فعند السفر ومع شيرين تحديدًا ستنام مرة واحدة في اليوم بنهايته ونهاية طاقتك وطاقتها بالفعل معه.

في المساء سرنا إلى حيث شارع (كوتي أخبازي) وهو من الشوارع الرئيسية بالمدينة والجميلة أيضًا، وصحبتني شيرين إلى حيث الفرع الرئيسي لمطعم الأمس (ماتش خلة)، وهو فرع من طابقين، والطابق الثاني به شرفة بها مناضد للطعام تطل وأنت تتناول طعامك على منظر النهر والتلفريك والشارع والسيارات، ولا تتوفر هذه المناضد بسهولة.

جلسنا وانضم إلينا صادق وتناولنا الطعام، حيث كانت وجبتي (خاتشبوري) ولكن ليس كسابقه وإنما بالخضروات والجبنة. ووقعت في غرامه يا سادة، فقطع الطماطم والخيار مع قارب الخاتشبوري الساخن والجبن الأشهى التي سبق وتناولتها في حياتي جعلني أعشق ذلك الطبق، وبالتأكيد بجواره طبق من البطاطس التي لا ينبغي التخلي عنها طوال الرحلة فهي لن تُعوض، ثم كانت التحلية وهي كأس كبير "زيادة عن اللزوم" من سلطة الفواكه الغارقة في الكريمة البيضاء.

حينها كنت على تواصل مع الشباب عبر الإنترنت، واتفقنا أن نلتقى أمام المطعم، وهو ما حدث بعد قليل، فكان التعارف بين صادق وشيرين والشباب، وتحركنا للشارع المقابل حيث المقاهي والملاهي الليلية، وأخذنا صادق إلى مقهى أحد المصريين، وآثرنا أن نجلس نحن الشباب الأربعة على منضدة وحدنا، وهنا عرض علينا علي فكرة كان في قمة حماسه لها، وهي ممارسة نشاط الـ Water





Rafting، وهو رياضة التجديف في الماء، وعادة ما تكون في أنهار جارية تنتهي بشلالات، خاصة وأن موعد مغادرته السبت مع شيرين على نفس الطائرة، وبالتالي لا يتبقى له سوى يوم الجمعة فقط.

حماسي كان صفراً لممارسة ذلك النشاط، فهو ذو تكلفة مرتفعة تتجاوز المائة وخمسون لاري تقريباً، فضلًا عن كونه نشاطًا مائيّا وعلاقتي والمياه ليست على ما يرام باستثناء الدش، كما أنه يتم ممارسته خارج تبليسي وتحتاج إلى سيارة تأخذك مسيرة ساعتين تقريباَ حتى تصل لمعسكر ممارسة هذه الرياضة أو ذلك النشاط.

كان الشباب متحمسون بعض الشيء للتجربة وآثرت أنا عدم المغامرة، وغادرنا المقهى سوياً حيث اصطحبني الشباب إلى حيث الهوستل الخاص بهم، فربما أنتقل بدلًا من علي بعد رحيله وشيرين، وذهبت إلى ذلك الشارع الساحر (مارجان شفيلي). صحيح هو ليس ك(نفوسكي بروسبكت) في (سانت بطرسبرج) ولكنه يشبهه إلى حد كبير، بَيدَ أنه أصغر من حيث المساحة.

أعجبتني المنطقة والهوستل أيضًا، وتركت مسألة حسم قراري هذا إلى حينه، ثم تحركت في طريق العودة للهوستل وكانت الساعة الثانية والربع صباحاً، أمشي وحيدًا في بلد غريب، آمن تماماً، مطمئن للغاية، معي كل النقود "اللي حيلتي" والهاتف كذلك، ثم وجدت تصوير مشاهد سينمائية في الشارع، حيث يستغلون تأخر الوقت لإنجاز عملهم، وأبهرتني حجم الصناعة التي أعلم أنها صناعة بالفعل، فخمس سيارات نقل كبيرة "Van" وإضاءات وأدوات تصوير وCrane وما إلى ذلك من أدوات. وقفت أشاهد المشهد الذي يتم تصويره ثم انصرفت مستقلًا تاكسي إلى حيث الهوستل بأربعة لاري فقط لا غير.

وعلى ذكر السينما، كان مما علمته عند حائط الصداقة في الطريق إلى كازبيجي أن مشاهد من الفيلم الخالد Brave Heart تم تصويرها هناك.

وصلت الهوستل، وفي الصباح علمت أن شيرين قد عادت قبل عودتي بعدما أقلّها صادق، وأنها ستقضي اليوم حيث أنه يومها الأخير في شراء بعض الأغراض والتذكارات، خاصة وأن أمل حضورها عرض الأوبرا تبخّر في الهواء حيث أخطأت الموظفة في تاريخ الحجز الذي لم يكن الجمعة وإنما هو السبت بعدما





تكون قد سافرت شيرين، وبالتالي حاولت هي إعادة تذكرتها وهو ما نجحت فيه، وأيقنت أني سأحضر العرض منفردًا.

في صباح الجمعة الباكر، استيقظنا وأصبحنا جاهزين للمغادرة، حيث يقع خلف الهوستل بشارع مكتب التلفريك القطار الذي يصعد بنا إلى حيث حديقة (ماتيتسميندا)، وهي أهم متنزهات تبليسي وأكبرها وأعلاها، حيث تملك إطلالة بانورامية فريدة على تبليسي كلها.

ذهبنا وبالفعل حجزنا تذاكر الصعود، وهو عبارة عن تلفريك يمشي على قضيب طولي بزاوية انحدار وليس كالتلفريك المشهور والمعروف والمُسمى ب الـ Cable Car. وبمجرد وصولنا إلى الحديقة حتى بدأت الأمطار تتساقط، "أمطار يوليو، في بلد غير استوائي، يا للعجب!". احتمينا من المطر بالجلوس تحت مظلّة، ثم تناولنا الإفطار في أحد مطاعم الحديقة وتجولنا فيها بعض الوقت، والتقطنا بعض الصور وشاهدت مطعمًا تمنيت أن تكون أسعاره مقبولة حتى أتناول به وجبة لاحقًا أنا والشباب وهوFunicular حيث يطل على حافة الحديقة، فإذا ما تناولت الطعام فيه ستكون تأكل وأنت تشاهد تبليسي كلها وهو منظر خيالي جميل، حينها كان المطعم لم يعمل بعد للأسف.

غادرنا الحديقة ثم ذهبت أنا إلى حيث المسجد لأداء صلاة الجمعة، وهو المسجد العجيب والذي يقع بجوار الفرع الرئيسي لماتش خله بنهاية شارع كوتي أخبازي، ولماذا هو عجيب؟ حيث أنه المسجد الوحيد في المدينة المسيحية الصرفة، ولأنه الوحيد فوجب أن يتشاركه من يستطيع اللحاق وإيجاد مكان له بالمسجد من مسلمي المدينة السنّة والشيعة البالغ عددهم خمس وثلاثون ألفًا، نعم! الأمر كذلك، هو مسجد له بابان وبداخله تجد محرابين ومنبرين! وهذا هو قمة العجب، وإلى وقت قريب كانت صلاة الجمعة تتم مرتين مرة للشيعة في الجزء الخاص بهم وأخرى للسنّة، إلى أن حدث اتفاق أن تكون خطبة الجمعة والصلاة موحدة ومرة تكون للشيعة ومرة تكون للسنّة، وفي الحالتين - وإن كانت الخطبة التي حضرتها خطبة سنّية-، لم تكن لتفرق، حيث أن الخطبة بعد الافتتاحية العادية التي تسمعها في أي مسجد هنا في مصر تحولت إلى اللغة الجورجية وبالتالي لم أفهم شيئًا.



أما عن المسجد نفسه، فهو مسجد عادي غير ملفت في معماره باستثناء مسألة المحرابين هذه، وليس ذو سعة كبيرة ولا أعلم حجم تناسبه مع عدد المسلمين في المدينة وهل يكفيهم أم لا؟ وإن كان في الأغلب يحتاجون إلى إقامة مسجد آخر.

وللأسف أصبحت لا أفهم سر ارتباط التسوّل عند المسلمين بأن يكون أمام المساجد وباستغلال العاهات والحالات المرضية، وهو الأمر الذي لا تجده عند دور العبادة الأخرى سواء الهندوسية كما في ماليزيا أو المسيحية كما في روسيا وجورجيا أو البوذية كما في تايلاند.

بعد انتهاء الصلاة سألت الإمام لأتأكد متى انتهى رمضان، فلم يفهمني لأنه لا يجيد العربية، فأجابني رجل عراقي وقال أن رمضان انتهى أول أمس وأنه كان كاملًا؛ إذًا الحمد لله أتممت صوم الشهر الكريم.

كانت المفاجأة عندما التفت أثناء الخطبة ووجدت بجواري الشباب الثلاثة. إذًا هم لم يذهبوا لخوض تجربتهم تلك، وبعد الصلاة عرفت منهم أنهم لم يتمكنوا من الحجز بالليلة الماضية، وأن علي قد اتخذ قرارًا بمد فترة رحلته يومين آخرين وتغيير رحلة العودة لتصبح مع منصور، أما زيزو فقد أراد تعديل تذكرته هو الآخر مبكّرًا إياها ليعود مع الشباب، وبالتالي ذهبنا إلى مقهى إنترنت وأتممنا تغيير حجز التذاكر ليعود الشباب إلى مصر يوم الاثنين، أما أنا فسأعود في موعدي الذي سبق وحجزته بالفعل وهو الثلاثاء.

ذهبنا بعد ذلك لتناول الطعام في ماتش خلة وهو ما لم يحدث لبطء الخدمة المتناهي، حيث تشعر أن العاملين "تنابلة" لذا غادرناه بحثًا عن مطعم آخر، وقد كان مطعمًا فارسيًا يقدم وجبات عربية. المطعم جميل "وإيه يعني" فكل المطاعم في تبليسي جميلة، ميزته أنه كان ذو أجواء عربية حيث أغاني لعدة مطربين عرب، أما عن الطعام فكان "غالي على الفاضي" حيث طلبت قطع دجاج "بانيه" أتتني قطعتين بالعدد وبعض أصابع البطاطس المقلية العادية وكان الحساب ٢٢ لاري، وهو رقم لا تصل إليه في المطعم الجورجي حتى بعد تناول التحلية.



ما لفت انتباهي في هذا المطعم هو تلك المنضدة المواجهة للباب مباشرة والتي تحمل الكتب السماوية الثلاثة، التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

ولنمر على تفاصيل باقي اليوم مرور الكرام، حيث أنها كانت تفاصيل عادية من المشي في شارع كوتي أخبازي، واصطحاب علي للهوستل المقيم فيه، وشراء عدد من التشورش خلة كهدايا للأهل والأصدقاء، وبنهاية اليوم عدت للهوستل وسلّمت على شيرين وشكرتها أن أتاحت لي هذه الفرصة العظيمة، وتركتها تذهب لتنام حيث أنها ستستيقظ في الخامسة فجراً لتتحرك إلى المطار.





٥- من باب الصُحبة

ثم كان يوم السبت وكان يومًا عاديًا ولكن من باب أنك تصحبني في الرحلة لذا ربما ليس من اللائق أن "أضحك عليك" و"أختصر" منك يومًا من الأيام.

استيقظت ووجدت أن شيرين قد غادرت الهوستل بالفعل، وحينها كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها مع شركائي في الغرفة، وهما زوجان فرنسيان، كان الرجل نائمًا بينما استيقظت زوجته فتبادلنا التحية والكلام، وعرفت منها أنهم مغادرون الليلة لزيارة أرمينيا، وهي متخامة لجورجيا ولا تحتاج زيارتها لتأشيرة مستقلة للأوروبيين، وتحدثت معها عن مصر ولكن للأسف ما إن سمعت اسمها حتى قالت "لن أتحدث حتى لا تغضب"، فقلت لها لا بأس فقالت "لا أفكر في السفر إلى مصر، حيث أن صديقاتي سافرن قبل ذلك واشتكوا من أمرين، الأول أن الناس يضحكون عليهم ويتعاملون معهم بأسعار مُبالغ فيها لكل المنتجات والخدمات، والثاني وهو الأهم أنه يتم التحرش بهن في الشارع".

من المحزن والمؤسف أن تسمع ما يُسيء إلى بلدك من الغريب، حاولت الدفاع عنّا بأن قلت لها "أما الأمر الأول فهو يحدث في كل البلدان مع السائحين، وهو يحدث معنا هنا في تبليسي إذا ما ركبنا تاكسي على سبيل المثال، لذلك وجب علينا أن نفاصل. أما الأمر الثاني وهو التحرش، فهو يحدث ولا أستطيع أن أنكره ولكن إذا سافرتِ إلى مدن كشرم الشيخ أو الغردقة أو مرسى علم أعدك أنك ستكونين في أمانٍ تام حيث أن شرطة السياحة هناك متواجدة بكثافة وبالتالي لا يجرؤ شخص على مضايقتك أو التحرش بكِ"، وأنهت هي المحادثة بدبلوماسية بأنها ستفكر في الأمر.

غادرت الهوستل واجتمعت مع الشباب وتوجهنا إلى حيث تبليسي مول، وهو مجمع تجاري لطيف وإن كان عاديًا ولدينا ما هو مثله هنا في مصر بل وأفضل منه أيضًا. تسوقنا فيه من بعض المحال والتي كانت بعضها ذات أسعار مقبولة، ثم غادرناه عائدين إلى (مارجان شفيلي)، حيث تجولنا فيه ولفت نظرنا أحد المطاعم الذي يضع مناضد بالخارج على شكل سيارات كاديلاك ذات ألوان جذابة ولكنها لم تكن شاغرة، فقررنا أن يكون عشاء الليلة الأخيرة للشباب





بتبليسي غدًا فيه، فدخلت أنا وعلي وحجزنا منضدة من هؤلاء في تمام التاسعة من مساء الغد الأحد، ثم تناولنا الطعام بأحد المطاعم التي تُقدم الأكل العربي بالشارع، وهي مطاعم منتشرة أغلبها لبناني ومنها ما هو تركي ولكنه يُقدم أطباق المطبخ العربي أيضًا.

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى شارع كوتي أخبازي مرة أخرى لنحجز بعد أن أقنعنا علي أن نجرب ممارسة الـ **Water Rafting** فذهبنا إلى أحد مكاتب السياحة المنتشرة في الشارع بأكمله والتي تقدم الرحلات داخل جورجيا كالذهاب إلى كازبيجي أو ميتسخيتا أو أنانوري وغيرهم، وكانت الصدفة أن وجدنا أن صاحب المكتب هذا مصري مقيم في جورجيا، التي يجيد التحدث بلغتها، وعرفنا أنه كان قد ترك مصر في ٢٠٠٨ بعد الأزمة المالية العالمية وتأثر قطاع البورصة بها.

أتممنا الحجز واتفقنا أن السيارة ستأتي لاصطحابنا في التاسعة صباح الأحد من أمام مترو مارجان شفيلي، ثم تمشينا إلى حيث جسر السلام، وهو عبارة عن جسر للمشاه أنيق ومختلف التصميم. حيث يشبه القوس في شكله، وهو مصنوع من الزجاج والفولاذ، وفي المساء يتلألأ بأضواء رائعة تنعكس على سطح مياه نهر كورا، حيث التقطنا بعض الصور هناك (صورة الجسر هي الغلاف الخلفي للكتاب).

عدت بعد ذلك إلى الهوستل حيث استعددت لحفلة الأوبرا، وفي تمام السابعة مساءَ كنت أمام مبنى دار الأوبرا الجورجية، الذي يعطيك انطباعًا أنه عريق وقديم. أغلب الحضور كانوا بملابس السهرة التي لم تكن معي كما كان الحال في البولشوي، حيث كان هناك إعداد مسبق لحضور المسرح، أما هنا في تبليسي فالفكرة جاءت وليدة اللحظة أثناء الكلام مع شيرين التي للأسف لن تحضر العرض وسأحضره منفردًا.

كان من حسن الحظ أن الأوبرا هناك لا تشترط الدخول بالملابس الرسمية كما أوبرا القاهرة في مسرحها الكبير، لذا دخلت. صحيح كنت أشعر أنني كالنغمة النشاز وسط لحن جميل، حيث أن ٩٠% من الحضور كانوا في قمة تأنقهم بملابس السهرة، كما أنني بالأصل معتاد على حضور حفلات دار الأوبرا بالملابس الرسمية لذلك كنت "أنا مش عارفني".



دخلنا إلى المسرح الكبير بالطبع، والذي للمصادفة يشبه إلى حد كبير شكل المسرح الصغير في البولشوي حيث اللون الزيتي والبيج على حوائطه.

جاءت جلستي بجوار سيدة سويسرية ودودة وبدينة ترتدي فستان سهرة أسود أنيق، جاءت لتحضر العرض بصحبة حفيدتها التي جاءت معها في الأساس لزيارة تبليسي، فالجدة والحفيدة فقط هما اللتان تمكنتا من السفر حيث أعباء الأم والأب لم تمكنهما من السفر والانضمام إليهما. ولمّا لم تجد هذه السيدة مقعدين متجاورين في العرض فاضطرت لحجزٍ المقاعد المتاحة، حيث كانت حفيدتها التي تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا تجلس في الجانب الآخر من المسرح، عرفت كل هذا بالطبع بتبادل أطراف الحديث معها كما عرفت أني مصري وأخبرتني أنها زارت شرم الشيخ من قبل وأنها أعجبتها.

ثم بدأ العرض الذي يمكنني القول أنه بالتأكيد لم يكن بجمال عرض بحيرة البجع، ولكنه كان أمتع من عرض ترويض النمرة الذي حضرناه فيٍ البولشوي، وبعد الاستراحة تحول إيقاع العرض بدرجة كبيرة وأصبح جذابًا بالفعل، وانتهى العرض وبقينا في تحية الجمهور لمدة طويلة. ويبدو أنهم هنا في تبليسي مثل الروس في هذه المسألة، ثم أخبرتنا العارضة الأولى أن الفرقة تحتفل بمرور خمس وسبعون عامًا على تأسيسها لذا توجد فقرة أخرى، وكانت فقرة ولا أروع من الرقص الإيقاعي الفولكلوري من تقاليد منطقة جبال القوقاز وبارتداء الأزياء القديمة كذلك. استغرق العرض الإضافي عشرون دقيقة تقريبًا ثم انهمرت علينا من السقف بالونات بألوان مختلفة مدوّن عليها اسم المسرح وأنها بمناسبة احتفالهم باليوبيل البلاتيني .

غادرت المسرح واجتمعت مع الشباب بميدان ليبرتي سكوير، ثم توجهنا إلى ماتش خلة لتناول العشاء، وحدث أن طلبوا هم بيتزا - وكانت الأسوأ على الإطلاق - حيث هل سبق لك "وشفت" بيتزا بالباذنجان!! نعم قطع كبيرة من الباذنجان تحتل معظم أركان البيتزا كمُكوِّن إضافي لعناصرها، أما أنا فطلبت ذلك الذي سبق ووقعت في غرامه وهو خاتشبوري الخضروات، ولم نكن لنغفل جميعنا طلب البطاطس إياها. هذا وقد أتى الأكل بعد ساعة بالتمام والكمال مما جعلنا نتساءل عن سر نجاح المطعم على الرغم من بطء الخدمة.



وعلى الرغم من أنها كانت الواحدة صباحًا إلا أننا قررنا تناول التحلية في ذلك المطعم الموجود أعلى حديقة ماتيتسمنيدا التي سبق وصعدت إليها مع شيرين صباح الجمعة، فأخذنا تاكسي ليأخذنا إلى هناك، وتقاضى ٨ لاري، وهو أكبر مبلغ لتاكسي داخل البلد حيث أن أغلب الانتقالات بالتاكسي بطول البلد وعرضها لا تتجاوز اللاريهات الستة بأي حال. لكن هذه التوصيلة مختلفة حيث أنها تكون بصعود الجبل بالسيارة، صحيح الطريق مُمهّد بالطبع، ولكنه يبقى صعود جبل، وافقنا بالطبع حيث أن المبلغ سيتم تقسيمه على أربعتنا، كما أننا لا نضمن إن سرنا إلى حيث التلفريك القطار أن يكون مفتوحًا أو قد أغلق بالفعل.

وصلنا إلى الحديقة واكتشفنا أن أغلب محالها قد أغلقت إلا ذلك المطعم الذي نرغب، الـ Funicular، ولكنه كان مفتوحًا حيث أن طابقه الثاني محجوز لحفلة خاصة؛ لذا لم نتناول شيئًا وغادرناه مستخدمين تلفريك القطار الذي يعمل حتى الثانية صباحًا لحسن الحظ، ومنه أنا إلى حيث الهوستل الذي يقع في الشارع المقابل والشباب متخذين تاكسي ليوصلهم إلى نزلهم على أن نلتقى في التاسعة من صباح الغد أمام محطة المترو لنذهب في رحلة المجهول تلك الـ Water Rafting .



٦- لي في النهر شبشب

قبل دقات التاسعة صباحًا كنت بالفعل واقفًا أمام محطة مترو الشارع الجميل (مارجان شفيلي)، وما هي إلا دقائق وأتى الفرسان الثلاثة، وسرعان ما وجدنا السائق يشير إلى سيارة ميكروباص "سياحي فاخر"، فركبنا وانطلقنا في الطريق الذي يستغرق ساعة ونصف حتى وصلنا إلى المعسكر.

استقبلنا شابٌ هناك وقال أننا نحن الأربعة ومعنا اثنان آخران هم زبائن اليوم فقط، وبالتالي سنتشارك جميعًا في قارب واحد، وبالطبع لم يكن لدينا اعتراض على هذا الأمر.

أشار لنا إلى غرفة قذرة لنبدل فيها ملابسنا ونرتدي ملابس السباحة "مايوه يعني" ثم ساعدنا في ارتداء الـ **Life Jacket** أو جاكت الإنقاذ في حالة الغرق، وكذلك خوذة حيث أن النهر الجاري والمنساب من شلال به العديد من الصخور لذا وجبت حماية الرأس، ومنح كل واحد منا عصا التجديف الخاصة به. حينها كنا نسأله عن إمكانية تصوير هذه التجربة "مش كل يوم بنعمل ووتر رافتنج" إلا أنه أخبرنا أننا لم نطلب هذا أثناء الحجز حيث يتكفل هو بإحضار مصوّر متخصص، وبالتالي نصحنا أن نأخذ معنا ولو هاتف محمول واحد ونقوم بذلك بأنفسنا في الماء، ولم يتحمس أحدنا لهذه الفكرة ولكن تحمسنا لفكرة أخرى وهي أن يأخذ شخص ما- يتبع الشاب- هاتف أحدنا ويقوم هو بتصويرنا ويتقاضى عشرون لاري، وافق الرجل وقبل أن تظن أننا مغفلون حيث سندفع عشرون لاري لشخص يقوم بتصويرنا وهو واقفٌ على الشط، دعني أخبرك أنه سيقوم بتصويرنا مستخدمًا سيارة المعسكر كي يسير معنا بحذاء النهر ويتوقف في بعض المناطق ويقوم بتصويرنا، لذا هي مهمة تتطلب تقاضي أجر .

المهم قمنا بحمل القارب الذي سنصبح أعضاءه بعد قليل وأخذناه إلى المياه- كما مشهد حمل القوارب بفيلم الطريق إلى إيلات – التي اكتشفنا بمجرد أن وضعنا أقدامنا بها أنها "تلج" باردة للغاية.

أصبح القارب في المياه ونحن كذلك فقفزنا إلى داخله، وهنا اكتشفنا - علي وزيزو وأنا - أننا لم نترك الـ "شباشب" على الشط فأخذناها معنا. بدأ المدرب





الذي يصحبنا والذي لا يعرف الإنجليزية يتفق معنا على طريقة التعامل وعلى كلمتين بالإنجليزية لا غير لنعرف بهما متى يتعين علينا التجديف ومتى نتوقف وهما كلمتان Go & Stop.

كنا نجلس في القارب كالتالي، أنا جِلستي بجوار الشخصين الآخرين اللذين لا نعرفهما واكتشفنا أنه رجل في الخمسينات من العمر وابنه في أواسط العشرينات، جميل جدًّا أن تصادق ابنك وأن تشتركا في أنشطة مختلفة سويًا، وعلى الجانب المقابل يجلس زيزو أمامي ومنصور مواجهًا للرجل الكبير وعلي مواجها للشاب العشريني وعلى رأس القارب الـ "كوتش".

بدأنا في الحركة، وإلى هنا والأمور عادية وجميلة، مرهقة بعض الشيء خاصة لأولئك الذين لا يذهبون إلى الـ "جيم" مثلي، ولكن الأمر ممتع، صحيح كلما هاج النهر ملقيًا زخات من المياه علينا "بيطرطش علينا" ننتفض من فرط برودة المياه، إلا أننا كنا نضحك ونكمل التجديف.

صحيح لم أكن متحمسًا للتجربة من الأساس، وصحيح أن علاقتي بالمياه ليست إيجابية وربما فعلتها معهم من تأثير الحشد الجمعي ولكي لا أمضى النهار وحيدًا، إلا أني حينها حمدت الله أني انضممت إلى الشباب في هذه التجربة، فأن تجدف في نهر جار عذب وعلى يسارك جبل فائق الخضرة وعلى يمينك ربوة خضراء كذلك وأمامك الأفق المتسع ومشهد السماء والسحاب الجميل، لهو بكل المقاييس مشهد من الجنة.

كنا نجدف ويظهر لنا بين كل حين على الشط حيث الجبل الأخضر بعض الحوريات بلباس البحر اللذين يلوحنَ من باب التشجيع لنا من دون سابق معرفة.

إلى هنا والأمور تسير من حسن إلى أحسن، صحيح هناك بعض المطبات صعودًا وهبوطًا إلا أنه كان في النطاق المقبول، ثم حدث أن اصطدمنا بصخرة كبيرة، وفجأة وبدون مقدمات انقلب القارب، وانقلبنا معه بالطبع في الماء، ولا أعرف هل سأنجح في وصف ما حدث وما شعرت به أم سأبوء بالفشل؟ ولكن لأجرب:

بانقلابنا في الماء كانت الصدمة الأولى هي صدمة للجهاز العصبي على ما أعتقد من فرط برودة المياه، ثم كانت محاولتي للرؤية التي لم تسفر إلا عن رؤية القارب جاثمًا فوق مني، ثم محاولات التمرد أو الـ "فلفصة" والصعود على وجه المياه وهي ما كانت تبوء بالفشل، ثم محاولات استخدام قدمي والبحث عن أرض لأقف عليها وهو ما استحال حدوثه بسبب التيار الجاري للنهر من ناحية، وكثرة الصخور التي أخذت تجرح قدمي، وكانت أي مقاومة لحركة تيار المياه تعني الإصابة بكسر في القدم أو الفخذ وربما حتى اليد أو الكتف.

تلك اللحظات السريعة من المقاومة والفشل جعلتني أدرك أني على وشك النهاية بالفعل، وأن الجنة التي رأيتها منذ قليل ها هي تتحول إلى جحيم، وبالتأكيد الإحساس بالغرق شيء بغيض تمامًا بل وصعب، حيث تلك اللحظات التي تمتلئ فيها رئتيك بالمياه وتعجز عن التنفس هي لحظات بشعة.

ثم حدثت المعجزة التي من المفترض أن تحدث، حيث أنني أرتدي الـ Life Jacket، طفوت على سطح المياه. لم يطفُ جسدي كله وإنما الرأس والصدر، حينها أدركت أني عُدت للحياة مجددًا، وما علمته لاحقًا أن الذي أخّر حدوث هذه المعجزة أني كنت أقاوم وأحاول، وكان الأسلم هو أن أستسلم إلى أن يطفو بي جاكت الإنقاذ. وسمعت صوت علي ينادي عليّ أنا وباقي الشباب، فأجبته بصوت واهن. كنا على مبعدة من بعضنا البعض، فأخذ علي يلقى علينا بتعليمات ماذا نفعل وأنا في حالة من الصدمة والخوف تجعلني لا أركز في شيء سوى أني أريد الخروج من هذه المياه اللعينة. بعد لحظات كان الكوتش قد استطاع أن يستعيد القارب المقلوب الذي كان قد ذهب مع التيار هو أيضًا، وبمعاونة علي والشباب والرجل وابنه استطاعوا عدله مرة أخرى، وكان أول الأمر أن أصعدوني، حيث بدا عليّ الخوف والاضطراب وما زلت أردد "طلعوني من هنا"، وما إن وضعوني في وسط القارب حتى هدأت نسبيًا وصعد الشباب، والكوتش يقول أنه بقي مسافة صغيرة، وأنا رافض تمامًا للإكمال وأريد الصعود على الربوة التي على يميننا ومغادرة الماء. طبعًا حينها كنا قد فقدنا شباشبنا وكان الصعود على الربوة



غير المُمهدة يعني المزيد من الجروح لقدمي التي كانت قد جُرحت بالفعل من صخور المياه وكانت تقطر دمًا، لهذا استحال مغادرة القارب، هنا وبقي أن نكمل التجديف حتى المكان الذي سنخرج منه، فأكملوا هم التجديف وبقيت أنا ممسكًا بعصا التجديف خاصتي دون الانضمام لهم "حالة Trauma" [٥١]

بقيت خائفًا أن يتكرر الأمر ثانية، إلا أنه الحمد لله لم يتكرر، ووصلنا بالفعل إلى نهاية جولتنا بعدما استغرقنا قرابة الساعة والربع في المياه.

بوصولنا إلى نقطة نهاية الجولة صعدنا على الربوة التي كانت طينية في هذه النقطة، وبالتالي لم تكن مؤذية لأقدامنا. حملنا القارب لنصعد به كما الطريق إلى إيلات أيضًا، وحمل القارب ذي الوزن الثقيل نسبياً والصعود به جعلني أدرك حقًا مدى براعة أبطالنا أثناء حرب أكتوبر المجيدة. ثم تم تحميل القارب على سطح تلك السيارة التي كانت تتبعنا لالتقاط الصور لنا والتي أخذتنا عائدة إلى حيث مكان المعسكر، وهناك بدلنا ملابسنا، وغسلت قدمي وحاولت تنظيف وتعقيم جروحها، وبالفعل كنت أصطحب في حقيبتي ضمادات أفادتني حينها.

أخذتنا السيارة وأعادتنا إلى حيث مارجان شفيلي، وكنت قد استعدت حينها حالتي الطبيعية وعدت للاندماج مع الشباب والحديث عن هذه التجربة الفريدة التي انتهت والحمد لله وأنا لي في نهر أراجفي شبشب فقط وليس شبشب وجسد وروح.

عاد كل منا إلى حيث نُزُله "الهوستل الخاص به يعني"، ثم تقابلنا في المساء مرة أخرى، وذهبنا إلى المطعم الذي كنا حجزنا به بالليلة الماضية، وجلسنا على المنضدة شكل السيارة الكاديلاك الحمراء التي رغبناها وتناولنا الطعام الذي كان في أجواء أوروبية جميلة، حيث الطاولة مُطلّة على الشارع الجميل، والأمطار لا نعرف لها سبباً في شهر يوليو ولسعة البرد أيضًا في العاصمة تبليسي وليست

---

[٥١] Trauma: صدمة بلغة الأطباء ويطلقونها على الحالات التي تدخل غرف الطوارئ.



المدينة الجبلية البعيدة كازبيجي، وكان طعامي شهيًا حيث كان طبق المكرونة بالصلصة البيضاء "White sauce"والبطاطس بالطبع. جلسنا نتسامر ونحكي، وكنا خلال الأيام الماضية قد أصبحنا نعرف بعضنا البعض وكأننا لم نلتقِ منذ بضعة أيام بمطار الغردقة؛ لذا كانت هذه الرحلة مثالًا عمليًا للآية الكريمة التي تقر أن الله خلقنا لنتعارف "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" [٥٢].

ثم كان منتصف الليل، فودعت الشباب اللذين سيطيرون في تمام السابعة صباحًا عائدين إلى الغردقة ويتركوني لأمضى يومي الأخير بالبلد دونهم.

[٥٢] سورة الحجرات، الآية ١٣



٧- نتكلم جد "شوية"..إنسانيات مريكة..واليوم الأخير

سبق وأوضحت أني اكتشفت عند كهوف أوبلستيخي أن جورجيا من تلك البلدان التي تشهد سياحة إسرائيلية كبيرة، كما سبق وصادفت تواجد جماعات منهم بشارع كوتي أخبازي حيث المعبد اليهودي الخاص بهم مع التفريق بين أولئك الذين رأيتهم هناك حيث ربما يكونوا يهودًا فقط ويعيشون ويحملون جنسيات بلدان أخرى.

لماذا الإشارة إلى هذا الموضوع الآن؟

لأنه أثناء رحلة الـ Water rafting سالفة الذكر كنت قد أخبرتك، أننا كُنا بصحبة اثنين أب وابنه، حينها لم نتبادل أكثر من تحية عابرة وهي الـGood Morning والـ Hello ولكن بعد أن أصبحنا في وسط الماء وقبل أن تأخذ الأحداث في التصاعد إلى حد انقلاب القارب، كان منصور قد رغب في معرفة الوقت، ولم يكن أينا يرتدي ساعته، إلا أن الرجل الخمسيني كان بمعصمه ساعة رياضية، فسأله عن الوقت فأجاب. إلا أنه "منصور" أراد أن يفتح بابًا للتعارف فسأله من أين أنتم؟، ويا ليته ما سأل حيث أجابه بوضوح جازم "من إسرائيل" وأتبع إجابته و"أنتم؟" فأجابه منصور من مصر فرد قائلًا "So we are neighbors" إذن نحن جيران.

حينها تعكر صفو الرحلة بالنسبة لي، وقلت لمنصور "ليه كده، سألته ليه، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم"، وصراحة ولأن جلستي أيضًا كانت بجواره، فازددت غضباَ، ولا أخفيك سرَا كنت أسبهم بالعربية، والشباب منهم من يتجاوب معي ومنهم من خشي أن يكونوا "بيعرفوا عربي".

وبعيدًا عن السياسة التي اعترفت في أولى صفحات هذا الكتاب أنها قذرة، فالأمر هنا إنساني لا سياسي. صحيح بيننا وبينهم سلام، والسلام جميل ونعمة بطبيعة الحال، والحروب لعنة، إلا أنني أريد أن يقتصر سلامي معهم على منطق "انت في حالك وأنا في حالي" لا أن يتطور الأمر لنكون رفقة واحدة ويقول





لي الرجل أننا جيران. الرجل خمسيني وعلى حد علمي التجنيد في إسرائيل إجباري، أي أنه في أغلب الأحوال والظن قد حمل السلاح ضدّنا ولو مرة.

أفرق بمنتهى الأريحية بين اليهودية كديانة وبينها عندما تحولت إلى دولة وكيان مُغتصب لأرض وحقوق الغير. ربما لو كنت علمت أنهم يهود فقط كان الأمر سيمر مرور الكرام على الرغم من كل مساوئ اليهود التي نعرفها.

بانقلاب القارب وانقلابنا في المياه مر بـعقلي خاطر سريع ومخيف، أنه ربما إذا تمكن هذا الرجل أو ابنه من أحدنا لأغرقنا فهي فرصة وستمر بسلام حيث سيبدو الأمر كحادث عارض، حينها خشيت على نفسي والشباب أن يكون أحدنا أوقعه حظه السيئ بجوار الرجل أو ابنه [٥٣].

إلا أن ما حدث وتقتضيه أمانة الحكاية هنا، أنه عندما طفونا على سطح المياه واستطاعوا عدل القارب مرة أخرى، كانت يد الرجل الكبير ممدودة لي لتعاونني على الصعود إلى القارب، وبدا أنه مشفق عليّ من أثر الصدمة التي أعاني منها وكان يسألني "Are you ok" حينها كنت أجيبه هازًا رأسي أن نعم متحاشيًا الكلام كي لا أضطر أن أجيبه بالشكر "I am fine"،"thank you" ، ولمّا وصلنا إلى حيث المعسكر وكنت بمفردي أضمد جروح قدمي - التي عانيت منها بعد ذلك في ارتداء حذائي ولم ينفعني سوى حذاء كان أهدانيه محمود "فوزي بالطبع" من قبل - أتاني الرجل ليطمئن عليّ ويسألني مجددًا هل أنا بخير؟ حينها وقعت في أكثر المواقف الإنسانية إرباكًا في حياتي، حيث كنت متحفظًا على الرد

٥٣ من قراءة سابقة في كتاب جريمة في حارة اليهودي: في التلمود "من العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر ، ذمى ، لأن من يسفك دم كافر ،الذمي يقدم قرباناً لله".
وقال موسى بن ميمون : " الشفقة ممنوعة بالنسبة للوثني فإذا رأيته واقعًا في نهر أو مهددًا بخطر فيحرم عليك أن تنقذه منه ، لأن السبعة شعوب الذين كانوا في أرض كنعان، أرض فلسطين المراد قتلهم من اليهود لم يُقتلوا عن آخرهم بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض".



عليه بشكره وفي نفس الوقت الرجل لم يفعل شيئًا يضرني، وانتهى الموقف وأنا في قمة الحيرة كيف لنا أن نتصرف بالشكل الإنساني البحت هنا؟

هنا أتذكر ضجري من السيدة نادية الجندي - التي لا أراها فنانة بالمناسبة - عندما أقحمت أغنية عبرية إسرائيلية في فيلمها الأهطل من "وجهة نظري أيضًا" مهمة في تل أبيب وهي أغنية Hava Nagaila حيث أنها أدخلت إلى آذاننا لحن جميل يصعب نسيانه وهي تعلم أن موقف المثقفين في مصر يُفعل مبدأ السلام بـ "انت في حالك وأنا في حالي".

ويحضرني هنا أيضًا موقف الفنانة السورية أصالة والتي فرّقت بين المبدأ الإنساني في أسمى صوره ورفض إراقة دم الشعب السوري لأي غرض سياسي وبين المعروف الشخصي الذي يذكره ويعيرها به كل من وقف في المعسكر المقابل، وهو كون حافظ الأسد قد أمر بعلاجها من مرض كان يؤثر على قدرتها على السير بشكل سليم على نفقة الدولة في موسكو.

أعتذر لأن الفقرات السابقة كانت بعيدة عن أدب الرحلات وعن الرحلة، ذاتها ولكنني أحيلك مرة أخرى إلى الكتالوج المُدوّن على غلاف الكتاب الخلفي، وعامة ها نحن سنعود لأجواء الرحلة نفسها مجددًا.

أتى يوم الاثنين وغادر الشباب بالفعل مطار تبليسي، وكان المتوقع أنني سأمضى اليوم منفردًا، إلا أن هذا لم يحدث حيث أفادتنا التكنولوجيا الحديثة وتحديدًا جروب Traveller Experience . إذ تعرفت على مصري بمفرده هو الآخر وكنا على تواصل عبر هذا الجروب، لذا قررت أن أمضى يومي الأخير بالبلد معه، منها ألا أكون منفردًا، ومنها أن أكون مفيدًا لمصري سيكون وحيدًا في هذا البلد.

وبمجرد وصوله - رفيق الساعات الأخيرة محمد حجازي-، ذهبت إليه حيث الهوستل الذي كان قد اختاره للإقامة فيه، حيث استقبلتني صاحبة النُزُل وهي سيدة ودودة للغاية بدا هذا في ترحابها حتى مع غياب عنصر اللغة، حيث عرضت عليّ تناول الكيك أو القهوة والفاكهة، شكرتها واصطحبت حجازي مرافق اليوم الأخير في تبليسي وانصرفت بعدما صعدت معه ليضع حقيبته أمام السرير الذي سيصبح سريره لأيام، وحينها اكتشفت أن الهوستل الذي أقيم به وكذلك الذي أقام به الشباب أفضل بكثير، فما وجدته كان أشبه بشقة "عماد" أو



"عمدة" في أوكرانيا وهو الفنان "محمد شرف" في فيلم "الرهينة" لأحمد عز. حيث ينام النُزلاء في الطرقات والممرات على مراتب موضوعة على الأرض، أما الطابق الثاني وهو أفضل حالًا يشمل عدة أسرّة متجاورة. بالتأكيد فكرة الخصوصية في مكان كهذا "مضروبة بالنار" إن جاز القول.

كان المشهد هذا منطقي حيث أن تكلفة المبيت في الليلة الواحدة هي نصف تكلفة المبيت سواء في ديوان أو حيث نُزُل الشباب.

أخذت حجازي وتحركنا وعرفته في أول الأمر بنظام المترو وأهم المحطات التي سيتردد عليها كثيراً، ثم ذهبنا إلى حيث ليبرتي سكوير، ومنه سرنا إلى حيث شباك تذاكر تلفريك القطار الصاعد إلى ماتيتسميندا بارك لنتناول إفطارًا مميزًا وليُطِل الرجل على تبليسي كلها، لم يكن المطعم الذي ما زلت أحلم بتناول وجبه فيه متاحًا بعد، لذا تناولنا إفطارنا في نفس المطعم الذي سبق وتناولت أنا وشيرين طعامنا به هناك، ثم غادرنا الحديقة إلى حيث شارع كوتي أخبازي ومنه إلى التلفريك الذي صعد بنا إلى حيث الجبل الأعلى في المدينة، حيث تمثال سيدة جورجيا **Lady of Georgia** وهو ما سبق وأن شرحت لي شيرين إلامَ يرمز. فهو عبارة عن تمثال ضخم فضي اللون لسيدة تحمل في يد كأسًا وفي الأخرى سيفًا، حيث الكأس يرمز إلى الخمر الذي ترحب به تلك السيدة بمن يدخل البلد قاصدًا الخير والسلام، أما السيف فهو لمن يدخل البلد قاصدًا الشر أو الحرب.

استمتعنا بالبقاء في الهواء الطلق حينها، حيث الجو صحو وهواء منعش وهو ما كنت أفتقده في الأيام الماضية، حيث كان الجو باردًا بعض الشيء، ثم عُدنا إلى الأرض مرة أخرى باستخدام التلفريك الذي من المُدهش لا يُكلف إلا نصف لاري في المرة الواحدة ويمكنك صعوده بنفس الكارت الذي تركب به المترو، إذا ما كان بالكارت رصيد، وهو ما يُلقى بظلال عن مدى عدم منطقية تسعير الخدمات من الناحية السياحية أقصد، فها هو التلفريك بنصف لاري، والتلفريك القطار الذي يصعد بك إلى (ماتستميندا بارك) باثنان لاري لا غير، ودخول الحديقة نفسها مجانًا، أما كهوف (أوبلستيخي) فبتذكرة ثلاث لاريهات فقط، والثلاثة يستحقون أن تكون قيمة تذاكرهم أعلى، وبالتأكيد سيحرص الزائر على الزيارة وسيدفع سيدفع، وفي نفس الوقت تجد أن متحف ستالين هذا الذي لا





يستحق الزيارة "من وجهة نظري" ولا يحوي شيئًا ذا قيمة تجد أن تذكرته خمسة عشر لاري ولا أدري "على إيه؟".

لم يكن يتبقى لي حينها شيء لم أزره في تبليسي، اللهم إلا كاتدرائية (ساميبا) وهي الكاتدرائية الرئيسية والكبيرة في المدينة، بل وفي البلد كلها، فتوجهنا إليها سيراً على الأقدام أو بالأحرى صعوداً بالأقدام، حيث أنها تقع على مُرتفع وكل الطرق هناك جبلية كما أسلفت، آثر حجازي حينها انتظاري بالخارج فدخلت بمفردي.

المبنى من الخارج يشبه إلى حد كبير مبنى الكاتدرائية المرقسية بالعباسية، أما من الداخل فلا أعلم وجه الشبه بينهما، حيث أنني لم أزر الكاتدرائية بمصر، وهي من الداخل كبيرة بالطبع، ولكنها أيضًا لا تختلف كثيراً عن الكنائس الأخرى التي دخلتها بجورجيا، فهي بسيطة، لا تحوي الكثير من الأيقونات أو غيرها وذات مذبح بسيط، ربما تم رفع هذه الأشياء حيث وجدت بالداخل سقّالات عديدة دون عُمّال وقتها، مما يدل على أنها تخضع لعملية تجديد أو ترميم.

بعد هذا استقللنا تاكسي إلى حيث (ليبرتي سكوير) مرة أخرى، وتفرقنا، حجازي ذهب إلى محطة المترو ليعود إلى حيث الهوستل الخاص به ليستريح، حيث أنني فعلت معه كما فعلت معي شيرين وأخذته "في حموتها" ولم أمنحه وقتًا ليستريح من عناء السفر.

ذهبت أنا لاستكشاف المنطقة الغربية من (ليبرتي سكوير)، والتي لم يسبق لي أن ذهبت من هذه الجهة، فإذ بي أكتشف أننا طوال هذا الوقت على مقربة من فرع لكارفور الشهير، بالإضافة إلى سوق يقع في ممر فرعي أسفل محطة المترو، فاشتريت منه عين الجمل على سبيل الهدية لأسرتي وبعض الأصدقاء المقربين.

وفي المساء، ولأنها ليلتي الأخيرة بالبلد اخترت ألا أنصرف إلا وقد فعلت أمرين، أما الأول فهو الصعود لماتيتسميندا بارك مرة أخرى وأخيرة وتناول تحلية ما في ذلك المطعم الفريد **Funicular** وهو ما حدث أخيراً والحمد لله، فوجدت المطعم يعمل ووجدت به طاولة شاغرة، وتناولت "تارت" الفراولة الأشهى في





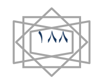
حياتي، وأتبعته بحلوى أخرى أتتني في طبق تؤكل بملعقة صغيرة، ومذاقها أشبه بمذاق الزلابية وبداخلها كريمة رائعة المذاق.

إذن تحقق الأمر الأول، أما الثاني كان أن أتناول خاتشبوري الخضروات الذي عشقته في ماتش خلة، فاصطحبت حجازي إلى هناك وطلبته وطلب هو آخر بالمشروم لم يطيقه إطلاقًا، فاستمتعت أنا بطبقي وظل هو يبكّتنى لأنه أراد تناول الطعام في مطعم عربي وأن يتناول أكلًا يعرفه حيث لا مجال للتجربة بالنسبة له.

وانتهت الليلة الأخيرة في سلام، تمنيت لحجازي رحلة سعيدة، خاصة وهو ينوي الذهاب إلى (باتومي)، وعدت إلى الهوستل لأحزم حقيبتي وأغراضي، وطلبت من ناتاشا أن تحجز لي تاكسي في الصباح ليأخذني إلى المطار ففعلت وأخبرتني أن الأجرة خمسة عشر لاري، استوثقت من الرقم الذي سمعته، وعلمت أنه "اضَّحَك عليّا" حيث أخذ السائق الذي أقلّنى من المطار للهوستل أربعين، فأخبرتها وقالت أن هذا طبيعي، فتكلفة التاكسي من المطار إلى وسط المدينة تختلف عن العكس وهو ما لم أفهم سببه.

وفي الخامسة والنصف صباحًا كنت في مطار تبليسي، وفى السابعة والنصف كنت على متن الطائرة العائدة إلى الغردقة. الغردقة التي وصلت إليها بعد أربع ساعات تقريبًا لأجد سائقًا مصريًا مثلي، يطلب مني أجرة مائة جنية كاملة ليقلني إلى حيث محطة الأتوبيس، وهي نفس المسافة التي قطعتها من الفندق إلى المطار بثلاثون جنيهًا لا غير!. فسألت السائق "هو انت مش واخد بالك إني مصري؟" والعجيب وأنه بالرغم أن المطار كان خاويًا على عروشه ولا توجد رحلات قادمة وبالطبع لا يوجد سائحون إلا أن السائق أصرّ على هذا المبلغ، وبالطبع رفضت أنا هذا الاستغلال وأتى سائق آخر عارضًا أن يوصلني بمقابل أربعون جنيهًا فوافقت.

ومن محطة الأتوبيس أدركت أني عُدت إلى الأجواء المصرية مجددًا، فحينما رغبت في شحن هاتفي المحمول الذي كان قد أوشك على فقد شحنه لم يوافق العامل بغرفة المحطة وأدَّعى أن "الفيش بايظة"، تذكرت أنني عندما دخلت إلى كافيتريا داخل صحن كاتدرائية ساميبا ومعظم من كانوا فيها من القساوسة واستأذنت أحد العاملين في استخدام مقبس كهرباء لشحن هاتفي وافق على الفور.





وأدركت عودتي للأجواء المصرية عندما عُدت مجددًا لحالة قبول المتاح، حيث لم أجد باصًا يذهب إلى السويس سوى باص الحادية عشر والنصف ظهرًا وكان ممتلئًا ولا توجد به أماكن شاغرة، ووافق السائق على ركوب بعضنا وقوفًا في طريق يصل إلى ست ساعات، وهو ما حدث بالفعل، واقفًا لبعض الوقت وجالسًا على سلّم الباص وقتًا آخر. عُدت أدراجي إلى السويس بعدما انتهت رحلة عجيبة وغريبة ومليئة بالمواقف والشخصيات والتجارب أيضًا.



٨-عين على جورجيا ... والختام

جورجيا التي لم أكن أعرف عنها أي شيء، وربما لم يسمع عنها الكثيرون من الأساس وظنّوها إحدى ولايات تلك المتحدة الأمريكية يخبرنا عنها الويكيبيديا قائلًا:

"هي جمهورية ذات سيادة في منطقة القوقاز، حيث ملتقى أوروبا الشرقية مع غرب آسيا، يحدها من الغرب البحر الأسود، ومن الشمال روسيا، ومن الجنوب تركيا وأرمينيا، وأذربيجان من الشرق، يبلغ تعداد سكانها تبعًا لآخر إحصاء أربعة ملايين وثلاثمائة وخمس وثمانون ألف نسمة.

هي من أوائل الدول التي اعتنقت المسيحية في القرن الرابع الميلادي - وهو ما يفسر الكثير مثل شكل العلم وكذلك وجود صور للسيد المسيح بمكاتب الجوازات بالمطار، وبلغت جورجيا قمة مجدها السياسي والاقتصادي خلال حكم الملك ديفيد والملكة تامار في القرن الثاني عشر. انضمت جورجيا للاتحاد السوفيتي بعدما اجتاحت الجيوش البلشيفية جورجيا عام ١٩٢١ واستعادت جورجيا استقلالها عام ١٩٩١ بانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه.

أصل التسمية: يدعو الجورجيون أنفسهم كارتفيليبي، وأرضهم ساكارتفيلو والتي تعني أرض الكارتفليين، ولغتهم كارتولي- التي هي الجورجية الآن. وفقًا للروايات الجورجية حاليًا ودون شك، الشعب الجورجي أو الكارتفيلي ناجم عن اندماج السكان الأصليين مع المهاجرين إلى القوقاز من جهة الأناضول النائية في العصور القديمة. ظهرت التسمية جورجيا والجورجيون في غرب أوروبا في العديد من الحوليات في بداية العصور الوسطى.

ذكر كل من المؤرخ الفرنسي جاك دو فيتري والرحالة الإنجليزي سير جون ماندفيل أن سبب تسمية الجورجيين نسبة إلى القديس جورج، وقد تبنت جورجيا في الشهر الأول من عام ٢٠٠٤ العلم خماسي الصلبان، الذي يعد علم القديس جورج."

وما زال ويكبيديا يقول الكثير عن جورجيا والذي يستحق القراءة، ولكن لا تتسع له المساحة هنا، لكن أبرز المشاهدات التي رأيتها بأم عيني والتي لا تخضع إلى ترتيب:





البلد هادئ ومنظم وجميل، يبدو عليه الفقر أو عدم الغنى ربما وهذا الطابع أخذته عن تبليسي فقط، في حين أن من زار باتومي أو كوتايسي يجد أن بها أبراجًا أو ناطحات سحاب وأبنية تتنافى مع قلة الموارد. السكان لا يتحدثون الإنجليزية إلا فيما ندر، بشوشين والكثير منها بدناء أو لنقل إن أوزانهم غير مثالية.

المرأة هناك أنشط من الرجال بشكل واضح، ويبدو أنها هناك معيلة للأسرة بشكل كبير، حيث صادفني السيدات اللائي يعملن في نظافة الشوارع، كذلك الكثير من العاملين بالمطاعم سيدات، ومن يعمل بنظافة ماتش خلة - المطعم الأشهر هناك- سيدات وللأسف كبيرات في السن، وهو ما كان يشعرني بغصّة أن تضطر سيدة في عمر والدتي أن تعمل في نظافة مكان ما أو خدمة زبائنه.

المرور منظم كما في كل الدول التي سبق وزرتها، لا أعرف لماذا نعاني نحن من أزمة في المرور مستعصية على الحل، على الرغم أن هذه الدول لا تعيد اختراع العجلة.

وعلى ذكر المرور يأتي ذكر السيارات، حيث اندهشنا لعدم وجود وحدة نوعية لاتجاه عجلة القيادة كما في دول العالم، فمن الطبيعي أن تكون سيارات البلد بأكملها إما عجلة القيادة بها إلى اليسار أو إلى اليمين، لكن أن نجد أن جورجيا بها النوعين يسيران جنبًا إلى جنب في نفس الطرق فـهو أمر مدهش بحق. دعك من دهشتي أنا، حيث ما زلت أحبو في عالم السفر، لكن ما دام الأمر قد أدهش شيرين وهي التي زارت العديد من البلدان والمدن الأوروبية ولم تكن شاهدت مثل هذا الأمر من قبل، إذًا فالموضوع جد مدهش، علمنا بعد ذلك أن جورجيا تستورد سيارات مستعملة من اليابان وهذا ما يجعل التنوع في مسألة اتجاه عجلة القيادة.



الطرق في تبليسي كما هي في موسكو مزدوجة الاتجاهات ولا توجد أرصفة فاصلة، ويعتبر عبور الشارع مخالفة حيث توجد أنفاق يجدر بالمشاة استخدامها لعبور الطريق.

الناس هناك يمارسون الحياة دون صخب، فصوتهم ليس مرتفعًا وهو الأمر الذي لاحظناه بسهولة عندما استرعى انتباهنا أننا نحن الشبان الأربعة نتحدث بصوت مرتفع دونما داع.

الناس هناك يمكن أن نطلق عليهم "شعب متدين بطبعه"، فالمسيحية الأرثوذوكسية هي الديانة الأغلب حيث يعتنقها ٨١% من السكان على أقل التقديرات في حين ٩% مسلمين، أما النسب الباقية فهي لليهودية واللادينين.

فلو كانت الأمارات التي تجعلنا نقول على المصريين أنهم شعب متدين بطبعه هي انتشار اللحية بين الرجال - قبل أن تصبح موضة صيف ٢٠١٦ وتنتقل منها إلى موضة عامة- وانتشار الجلباب القصير فبالتأكيد هي أمارات خاطئة، حيث أن الأمرين ليسا منتشرين بشكل كبير وسط المصريين. لكن أمارات وصف الجورجيين أنهم شعب متدين بطبعه هو أن الغالبية العظمى من الجورجيين لا يمرون بكنيسة سواء كانوا مترّجلين أو راكبين إلا ورسموا علامة الصليب، فإن كان الرجل أو السيدة ماشياَ ومر بكنيسه عن يمينه أو يساره يلتفت لها بجسده ووجهه ثم يرسم صليباَ وينصرف، وإذا كان راكبًا وخاصة إذا ما كان يقود السيارة تجده رسم الصليب دون أن يلتفت انتباهًا للطريق، وهو الأمر الذي فعله سائق التاكسي الذي أقلّنى من المطار حتى الهوستل في الطريق أكثر من مرة، ولم أكن أعلم لماذا يفعل هكذا، وهو الأمر الذي تكرر مع كل سائقي التاكسي أو المارشوتكا التي ركبتها هناك.

أضف إلى هذا أنهم يمارسون التبشير بشكل ملحوظ، حيث لفت انتباهي أثناء السير في اتجاه محطة ليبرتي سكوير وجود عامود في وسط الرصيف ومقسّم إلى أرفف وكل رف عليه بعض المطبوعات، وجذب عيني وجود الحروف العربية، فوقفت وأمسكت به فإذ به كتاب تبشيري عن المسيحية، وظهر لي رجل وسيم كان يقف بجوار حديقة عامة ليحدثني عن المسيحية، فشكرته وانصرفت.



بالطبع لم يُتح لي غياب اللغة معرفة ما إذا كان هناك تسامح ديني أم لا؟ وإن كان عدم وجود سوى مسجد واحد لطائفتين مختلفتين من نفس الدين لهو أمر يُلقى بظلاله عن مدى التسامح الديني أو قبول الآخر هناك.

ولكن من الحقيقي والمُنصف ذكره أن ديانتي أو جنسيتي لم يسببا لي أيّة عوائق تُذكر لا في المطار ولا في غيره.

المطبخ الجورجي سبق وتحدثت عنه بما أتيح لي معرفته عنه.

يبدو على الناس اهتمامهم بالثقافة، حيث يكثر باعة الكتب أمام محطات المترو، كما لن تخلو سيارة مترو من أحدهم مُمسكًا بكتاب يقرأه.

جزء من اقتصاد البلد قائم على صناعة الخمور والتي يتفننون في عمل الزجاجات لها، حيث تجد أغرب وأعجب الأشكال من الصلصال والفخّار الملون والتي ربما لن تدرك أنها زجاجات أصلًا، حيث تشبه التماثيل أحيانًا أو حتى الفازات ثم تكتشف أنها زجاجة. والبلد احتلت المركز الثامن في زراعة العنب ومن ثم إنتاج الخمور، ومن الملاحظ أنهم يُصنِّعون نوعًا رديئًا من الخمر للاستهلاك الشعبي التي للأسف تؤثر على إفرازات العرق في كبار السن منهم "مثل الحلبة لدينا"، وإذا ما كنت سيء الحظ للغاية فيجتمع عليك أن تكون راكبًا بمارشوتكا ضيقة وبجوارك أحد هؤلاء ولست جالسًا بجوار النافذة.

الأمن والأمان فحدث ولا حرج، وأعتقد أنك أخذت فكرة عامة عن الأمر عندما أخبرتك موقع الهوستل الذى أقمت به من قبل، ولأزيدك من الشعر بيتًا أني كنت أتجول ذاهبًا وقادمًا مارًا على كل تلك المباني، السفارة الإيطالية، والبرلمان وأمن الدولة وعلى كتفي حقيبة، وأحيانًا في يدي شنطة بلاستيكية بها أصابع الموز التي لا أستغنى عنها خلال السفر -وللأسف يتم بيعه هناك كما بلدان أوروبا بالواحدة، وأجد نفسي مفتقد زمن الكيلوهات الجميل كما نعتاد في مصر -، ولا أحد من العساكر الواقفين منتبهين يستوقفني ليسألني عن هويتي أو أي شيء آخر، أضف إلى هذا أن العساكر هؤلاء والواقفين لحراسة المكان لا يحملون سلاحًا، فقط هراوات وأدوات الشرطي العادية، مثل بخاخ الفلفل والأصفاد وفقط، كما لك أن تتخيل أن صف السيارات "الركن" أمام بعض هذه المباني متاح دون مشكلة.



أما عن الناس أنفسهم، فهم في حالهم، يتسمون بالهدوء. كبيرات السن من النساء لا يعتنين بأنفسهن إطلاقًا، ويتركن الطبيعة تظهر عليهن (وافهمها انت لوحدك)، أما الرجال فأعتقد أنه يسهل ملاحظة أنهم أقل من النساء في هذه البلد، ولا تعتمد هذه الملاحظة على معلومة أو إحصائية مؤكدة.

هذه كانت أبرز مشاهداتي بجورجيا.

▪▪▪▪▪▪▪▪▪▪▪▪▪

وختامًا؛ وأنت تنهي صديقي القارئ صفحات هذا الكتاب تكون قد أنهيت تجربتين إنسانيتين لنفس الشخص، أتمنى أن تكون قد وجدت فيهما ما لا يجعل وقتك أو مالك قد ذهب هباءَ منثورًا دون طائل.

وإذا أردت مني ختامًا يُشبه عظات يوسف بك وهبي على المسرح أو البابا شنودة الثالث بالكرازة المرقسية أو أيًا من شيوخنا على المنابر أو أيًا من محاضري التنمية البشرية في القاعات فأعتقد أنه ليس من الممكن أن أزيد عن قول: هذه هي الحياة، تمضي بين يوم مر ويوم حلو، وحتى في اليوم المُر لنعلم أنه يوجد دومًا Extra Level وأن الله سلّم ولم نضطر لمواجهة هذا الـ Level ال Extra، وكلاهما "المُر والحلو" أيضًا سيمضي وتبقى الذكرى والدرس الذي نتعلمه من التجربة.

ومن الدروس التي تعلمتها أنه إذا عزمت فتوكل على الله، وأنه من الحسن أن يكون في حياتك أصدقاء جدعان تعتمد عليهم، ومن الأمان أن يكون لك أب وأم على قيد الحياة فتشعر أن ظهرك مسنود وقلبك في مأمن، ومن السعادة أن تكون بصحتك فلا تحتاج لعون أحد.

وأختم أن أرسل لك برقية أقول فيها:

"سافر .. فالسفر حياة" .

تم بحمد الله وفضله.

٢٠١٧





شكر واجب

يقولون أنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله، وصراحة هناك قائمة من الأصدقاء والبشر الذين يستحقون رسائل شكر:

١-الصديقة العزيزة فدوى فؤاد، أتقدم إليكِ بأسمى آيات الشكر وأعمقه، وها أنا ذا أهديكِ العمل بعدما اكتمل.

٢-الصديق والأخ الأكبر الأستاذ سليمان العباسي، مدين لك بالكثير والكثير يا صديقي وبأشياء وتفاصيل في هذه الرحلة تحديداً، ولا أجد لك خيراً من قول ربنا يسعدك .

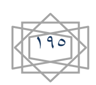
٣-الصديق والأخ الأكبر محمود عثمان، موقفك عقب نشر كتابي الأول سفرنامة كان من أكثر المواقف الداعمة لي والتي أسعدتني كثيراً فدمت طيباَ.

٤- أصدقاء سنوات العشرينات البكر الجميلة، أصدقاء كلية الألسن جامعة عين شمس الذين أدهشني وأسعدني اهتمامهم بي ككاتب، فشكرًا لكم فردًا فردًا.

٥- الصديق العزيز عمرو سليمان، شكرًا يا صديقي جزيل الشكر.

٦-الصديق العزيز محمود عاطف "أبا مليكة"، شكرًا لتشجعيك ودعمك الجميل.

٦- أصدقائي والأخوين د. محمد يوسف فاروق وعبد الله يوسف فاروق؛ شكرًا لما فعلتماه معي وقت الحادث.





٧- مديري أو كما نعرفها بالإنجليزية Admins جروب Traveller Experience وأخص بالذكر معتز محمد والذي لم ألقاه إلا مرة واحدة، ولكن الشكر للدور الهام الذي لعبه الجروب في صناعة الجزء الثاني من الكتاب رحلة جورجيا.

٨-الخلوق الإعلامي كريم الشيخ، عذرًا يا صديقي "وجعت دماغك" في مرحلة ما قبل صدور هذا الكتاب.

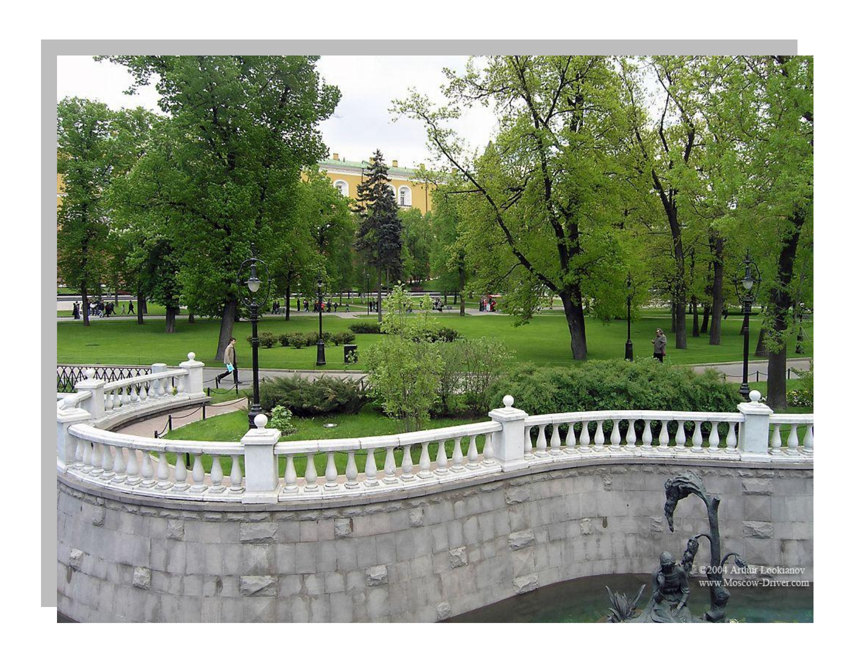
٩-الكاتب أحمد حسني، شكرًا لأنه بالعلاقة القائمة بين كتّاب أدب الرحلات الآن تنفي صدق المثل القائل "ما عدوك إلا ابن كارك".

١٠- إلى صاحب كوكبه الخاص والطاقة الإيجابية التي أغبطه عليها، الصديق عثمان عبد المنعم: شكرًا لدعمك ومجهودك خلال رحلة البحث عن ناشر، وتمنياتي بدوام التوفيق والنجاح.

١١- الطبيب البارع د. مجدي عبد العزيز، شكرًا جزيلًا وبارك الله لك في صحتك وعلمك ونفع بك.



قبل أن أعرض عليك صديقي القارئ مجموعة من الصور لبعض الأماكن التي ورد ذكرها وتحدثت عنها خلال صفحات هذا الكتاب، وجب التنويه أننا اصبحنا الآن في عصر الصورة بامتياز وأنه أصبح من السهل الوصول للصورة بدقة عالية وجودة كبيرة عبر الانترنت الذي في هو أيدينا الآن جميعًا عبر هواتفنا الذكية، لذلك ملحق الصور هذا ليس إلا من باب "خذ فكرة" وابحث إن شئت وشاهد بشكل أوضح وأفضل.

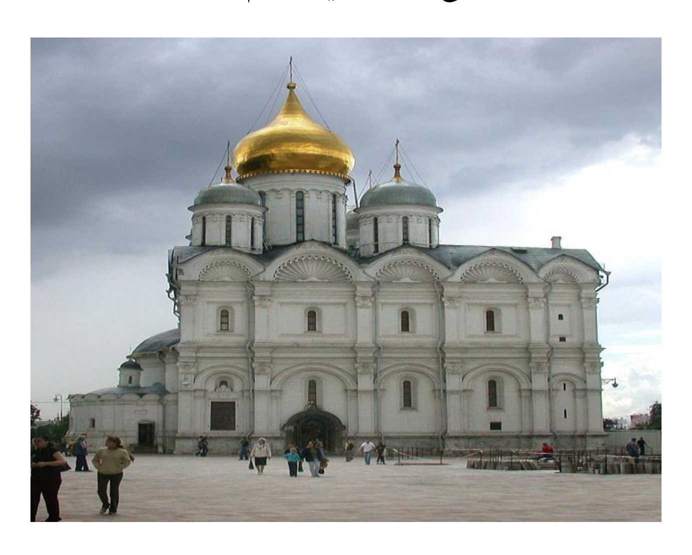


جانب من حديقة ألكسندر





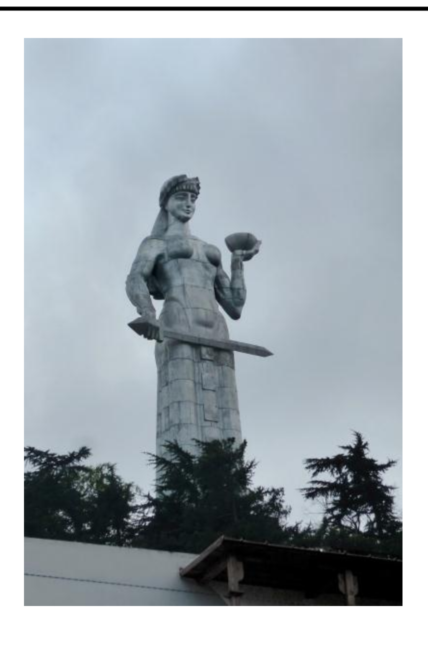
المجمع التجاري جوم "ليلاً"



كنيسة أرخانكلسجي







تمثال سيدة جورجيا



من مسجد سانت بطرسبرج

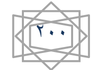




المسجد الكبير بموسكو



الأخوين فوزى وأنا على المقعد المتحرك







محمود وأنا يتوسطنا أحمد داخل مسرح الكرملين



من اليمين أحمد ومحمود وأنا بالطاقية الروسية الشهيرة أمام الكرملين







متحف الأرميتاج من الخارج



قلعة بيتروبول







مسرح البولشوي من الخارج



صحبة جورجيا الجميلة من اليمين "على- زيزو-منصور-أنا"







في الطريق إلى كازبجي



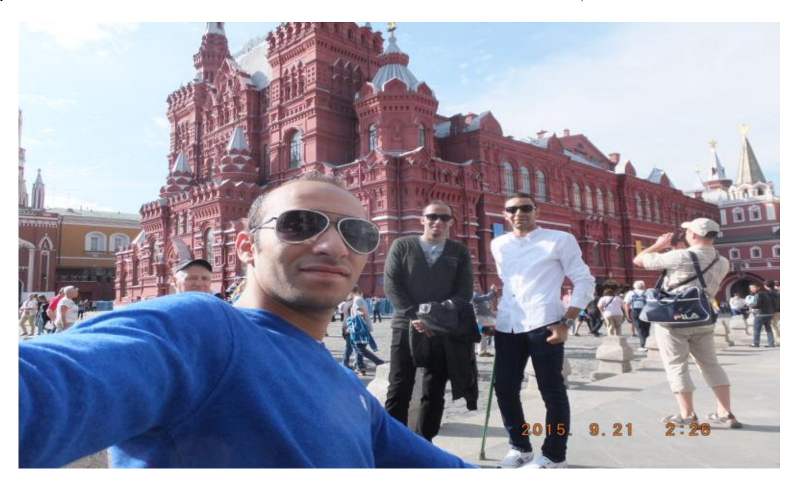
صورة لنا بـ ليبرتي سكوير أمام تمثال مارجرجس







أنا ورفيق اليوم الأخير محمد حجازي من أعلى مناطق تبليسي



أنا والأخوين فوزى فى الساحة الحمراء





قائمة المراجع

قائمة المراجع
كتاب أيام مع لينين لمكسيم غوركي - ص١ (دار القلم - بيروت).
كتاب جريمة في حارة اليهود ترجمة د. يوسف نصر الله وتقديم عادل حمودة عن دار الفجر للنشر والتوزيع برقم ايداع ISBN 977 5288 207
هامش كنيسة البشارة بمساعدة من الصديق الألسنجي (خريج كلية الألسن) العزيز محمد صلاح.
كتاب الآن قبل فوات الأوان ل حمدي حافظ "لم يُستدل ع الناشر أو رقم الإيداع للأسف".
http://russiapedia.rt.com/prominent-russians/history-and-/mythology/vladimir-i
/https://www.britannica.com
/https://mospat.ru/en/2014/11/09/news111091
http://www.babylon-lion.com/arabrussiamos.html
https://arabic.rt.com
http://www.thaqafnafsak.com/2013/03/stages-of-sleep.html
http://www.bolshoi.ru
https://www.maajim.com



نسعي للمعرفة




للنشر و التوزيع